مقالات منهجية وعقدية

تأليف

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ح مجلة البيان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل عبد اللطيف، عبد العزيز محمد

مقلات منهجية وعقدية. / عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف، - الرياض، ١٤٣٤هـ

ص ٣٢٤؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٨ - ٣٠ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - المقالات العربية - السعودية

٢ - العقيدة الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٨١٤,٩٥٣١ ١٤٣٤/٣٧١٤

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٧١٤

ردمك: ٨ - ٣٠ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فوصالًا لما درج عليه مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان من ضمِّ ما تفرَّق من مقالات بعض كتَّاب المجلة الأفاضل، وسَلكِها في عَقدٍ ينظمها، اتجهت همتنا لجمع مقالات فضيلة الشيخ د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف لحفظها وتقريب متباعدها إلى جمهور القُرَّاء.

وقد تناولت هذه المقالات موضوعات متعلقة بالمنهج وقضايا الاعتقاد والسلوك وما حفَّها، مما ارتبط بمناسبة أو كان الحديث فيه مبتدأ الكاتب.

ونرجو أن يكون في هذه الأوراق المجموعة ما يشبع نهمة المطالع ويقدح زناد الباحث، وهي حقيقة بذلك، كما نسأل الله أن يوفق كاتبها لما فيه الهدى والنور، ويبارك له في وقته وعلمه وقلمه.

مركز البحوث والدراسات

عجز الثقة

من عيون القصص التي أوردها القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك»: (أن رجلاً من أصحاب الإمام محمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) دخل بمصر حمّاماً، عليه رجل يهودي، فتناظر مع الرجل، فغلبه اليهوديُّ؛ لقلة معرفة الرجل، فلما حجّ محمد بن سحنون صَحِبه الرجلُ؛ فلما دخل ابن سحنون مصر، قال له: امضِ بنا أصلحك الله إلى الحمام الذي عليه اليهودي؛ فلما دنا خروج محمد بن سحنون، سبقه الرجلُ، وأنشب المناظرة مع اليهودي، حتى حانت صلاة الظهر، فصلى محمد، ثم رجع معه إلى المناظرة، حتى كانت العصر، فصلاها، ثم كذلك المغرب، ثم إلى العشاء، ثم إلى الفجر، وقد اجتمع الناس، وشاع الخبر بمصر: الفقيه المغربي (ابن سحنون) يناظر اليهودي، فلما كانت صلاة الفجر، انقطع اليهودي، وتبيّن له الحق وأسلم، فكبّر الناس وعلت أصواتهم، فخرج محمد وهو يمسح العرق عن وجهه وقال لصاحبه: لا جزاك الله خيراً، كاد أن يجري على يديك فتنة عظيمة، تناظر يهودياً، وأنت بضعف، فإن ظهر عليك اليهودي لضعفك، افتتن من قدّر الله فتنته)[1].

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (١/ ٤٢٩ - ٤٣٠).

فما كان لهذا اليهودي أن يغلب ذاك الرجلَ إلا لقلة علم الرجل وضعف حجته ومناظرته.

والثقة بالله والطمأنينة إلى المنهج الصحيح لا بد أن يقترن بهما بذل الجهد والرسوخ في دين الله ومدافعة ما ينافيه، وإلا فإن أهل الباطل لهم «علوم كثيرة وكتب وحجج، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. . «فالطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه، أهل فصاحة وعلم وحجج، والواجب أن تتعلم من دين الله ما يصير سلاحاً لك. . فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح»[١].

إن ضعف الحجة وغلبة الجهل يعقبه تسلط الخصوم، وظهور الباطل، وهوان أهل الحق. وقد قرر ابن تيمية في غير موطن أن من أسباب ظهور البدع تقصير المنتسبين لأهل السنة في مواجهة تلك البدع.

ومن ذلك أن الحنابلة بمصر أصابهم سنة ٧٠٥هـ إهانة عظيمة وكثيرة؛ وذلك بسبب أن قاضيهم قليل العلم مُزجى البضاعة، فلذلك نال الحنابلة ما نالهم[٢].

وخصوم أهل السنة - في هذا الزمان - كثيرون جداً، وفيهم الكافر والمنافق، وفيهم أهل البدع والأهواء، ولديهم من الإمكانات والقدرات ما يفوق العدّ والحصر، وقد أجلبوا بباطلهم، وزيّنوه للدهماء، ونشروه في الآفاق، ونفّروا من الإسلام والسنة والفضيلة، ومع ذلك فإن لأهل الإسلام والسنة من رصيد الفطر السليمة والعقول الصريحة ما يعزز منهجهم وينشر معتقدهم.

(١) كشف الشبهات، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٣٨ - ٣٩.
(٢) انظر: البداية، لابن كثير، ١٤/ ٤٠.

وقد حكى ابن تيمية واقعة عجيبة في هذا الشأن فقال: «حدّثني بعض أصحابنا أن بعض الفضلاء الذين فيهم نوع من التّجَهُّم[١]، عاتبه بعض أصحابه على إمساكه عن الانتصار لأقوال النفاة، لما ظهر قول الإثبات في بلدهم، بعد أن كان خفياً، واستجاب له الناس بعد أن كان المتكلم به عندهم قد جاء شيئاً فريّاً، فقال: (هذا إذا سمعه الناس قبلوه وتلقوه بالقبول، وظهر لهم أنه الحق الذي جاء به الرسول، ونحن إذا أخذنا الشخص فربّيناه وغذّيناه ثلاثين سنة، ثم أردنا أن نُنزِل قولنا في حَلْقِه، لم ينزل في حلقه إلا بكلفة).

وهو كما قال؛ فإن الله - تعالى - نَصَب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والنور، وبين الباطل والظلام، وجعل فِطَرَ عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق، لم يكن النظر والاستدلال..»[٢].

إن جملة أمور تستدعي الثقة التامة بالمنهج السلفي؛ فهو سبيل الفرقة الناجية، والذي كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - وهو القائم على نصوص الوحيين، ففي القرآن ما يردّ على جميع الأهواء، كما قال الإمام أحمد بن حنبل: «لو تدبّر إنسان القرآن كان فيه ما يردّ على كل مبتدع وبدعته»[٣]. والسنّة الصحيحة تبيّن القرآن وتدلّ عليه، كما أن المنهج السنيّ منهج مطّرد في مسائله ودلائله، فلا يلحقه التغيير، ولا يعتريه التذبذب والتبديل، وهو المنهج الوحيد الذي يزداد ظهوراً ونفوذاً عند وجود المعارضين، وإذا وُجد المرتدون، قامت جحافل العابدين المحبين لله تعالى والمجاهدين بالسنان والبيان، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ

(١) يعني بالتجهم: نفي صفات الله تعالى.
(٢) الدرء: ٥/ ٦١ - ٦٢.
(٣) أخرجه الخلاّل في السنّة: ١/ ٥٤٧.

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وإذا استدل خصم لباطله بدليل نقلي صحيح أو دليل عقلي صريح؛ ففي هذا الدليل ما ينقض مذهبه وينقض استدلاله، فإن الدليل الحق لا يدل إلا على الحق.

ومع قناعتنا بما سبق، إلا أن المتعيّن علينا بذل الأسباب واستفراغ الوسع من أجل التفقه في هذا المنهج الرباني، ومقارعة الشبهات، ومعالجة النوازل والتحديات؛ فلقد اتسع الخرق على الراقع، وانفتح طوفان من الشبهات والإشكالات، ولا تزال الجهود القائمة من أهل السنة دون ضخامة هذه القضايا الشائكة.

وهذا يوجب السعي إلى إنشاء مؤسسات علمية تربوية مستقلة لتأهيل علماء الشريعة، وتحقيق ذلك عبر برنامج علمي شرعي عميق، وخلال سنوات طويلة، ومن خلال مهارات عملية وبرامج تطبيقية من أجل تنمية مَلَكة الفقه والاستنباط، وسبل المناظرة والحوار، وقدرات وآليات في إعداد البحث العلمي وصياغته.

فلقد استحوذ الجهل في هذا العصر، وصارت البلاد موحشة وقفرة من غياب العلماء الربانيين، وانهمك طوائف من الإسلاميين بالبرامج الإغاثية والمؤسسات الإدارية التدريبية ونحوها، فلنتدارك هذا الحال قبل أن يغلب الجهال فيكونوا هم العلماء، فيَضلون ويُضلون، ويُفسدون ولا يُصلحون.

فسخ العزائم ونقض الهمم

ساق ابن الجوزي بسنده أن أبا معمر القطيعي (ت ٢٣٦هـ) من شدة إدلاله[١] بالسُّنَّة يقول: لو تكلمتْ بغلتي لقالت إنها سنّية، فأُخذ في محنة القول بخلق القرآن فأجاب، فلما خرج قال: كفرنا وخرجنا[٢].

تكشف هذه الواقعة عن المفارقة بين الدعاوى والأقاويل في حال السلامة، وبين النوازل والشدائد إثر وقوعها، وقد جاء في حديث عمار بن ياسر – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «وأسألك الرضا بعد القضاء»، أخرجه أحمد و النسائي. قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث عمار: «وإنما قال: الرضا بعد القضاء؛ لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا، فإذا وقع القضاء فقد تنفسخ العزائم.. فلا ينبغي للعبد أن يتعرض للبلاء، ولكن يسأل الله العافية، وأن يرزقه الرضا بالبلاء إن قُدر له البلاء»[٣].

(١) الإدلال بمعنى الإفراط في الثقة.
(٢) المنتظم ١١/ ٢٣٩.
(٣) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ١٧٦.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الشأن: «وما أكثر انفساخ عزائم الناس، خصوصاً الصوفية، ولهذا قيل لبعضهم: بم عرفت الله؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم، وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ [الصوفية]: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٢ - ٤].

وكلما أغرق الشخص في الأماني والدعاوى العريضة كان أكثر تعرضاً لنقضها والنكوص عنها، كما يُذكر عن سمنون المحبّ أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظ
فكيف ما شئت فامتحنّي!

فحُصر بوله، فكان يدور على المكاتب ويفرّق الجوز على الصبيان، ويقول: ادعوا لعمكم الكذّاب.

وفي رواية أنه قال: يارب قد رضيتُ بكل ما تقضيه عليّ، فاحتُبس بوله أربعة عشر يوماً، فكان يتلوى كما تتلوى الحية على الرمل؛ يتلوى يميناً وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: يا رب تبتُ إليك»[1].

وقال ابن تيمية عن هذا الصنف: «فهكذا شيوخ الدعاوى والشطح، يدّعي أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الربّ عن ربوبيته والنبي عن رسالته، ثم آخرته شحّاذ يطلب ما يقيته، أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته، فيفتقر إلى لقمة، ويخاف من كلمة؛ فأين هذا الفقر والذلّ من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعز؟!»[2].

(١) انظر: حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٩، ٣١٠؛ ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/ ٢٤١، ٦٩٠.
(٢) منهاج السنة النبوية ٧/ ٢٩.

وقال في موطن آخر: «إن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً، أو أُلقي في بعض عذابها، طار عقله.. ؛ فلا طاقة لمخلوق بعذاب الله، ولا غنى به عن رحمته»[(١)].

لقد عني المصطفى ﷺ بهذه «الواقعية» ومراعاة أحوال المكلفين، وملائمة جِبِلّة الإنسان بقوته وضعفه، ومن ذلك أنه ﷺ دخل على أعرابي وهو مريض كالفرخ، فقال: هل كنت دعوت الله بشيء؟ فقال: كنت أقول: اللهم ما كنت معذِّبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال: سبحان الله! لا تستطيعه – أو: لا تطيقه! –؛ هلاّ قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار!»[(٢)].

كما أرشد النبي ﷺ أمته إلى السداد والاقتصاد في العبادة؛ فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا!»[(٣)].

يقول الحافظ ابن حجر: «قوله: سددوا، معناه اقصدوا السداد، أي: الصواب. وقوله: قاربوا أي: لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة؛ لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرِّطوا»[(٤)].

إن الغلو والإفراط يورث تفلتاً وانحلالاً، ومن ذلك أن أقواماً حرّموا ما أحل الله تعالى؛ فزعموا أن أكل الحلال متعذر في هذه العصور، فأعقبهم ذلك إباحيةً؛ فصار الحلال ما حلّ بأيديهم، والحرام ما حرموه؛ «لأنهم ظنوا مثل هذا الظن الفاسد؛ وهو أن الحرام قد طبق الأرض، ورأوا أنه لا بد للإنسان من الطعام والكسوة، فصاروا يتناولون ذلك من حيث أمكن، فلينظر العاقل عاقبة ذلك الورع الفاسد كيف أورث الانحلال عن دين الإسلام»[(٥)].

---

(١) النبوات ١/ ٣٤٤.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر: حديث (٢٦٨٨).
(٣) أخرجه البخاري حديث (٦٤٦٣).
(٤) فتح الباري ١١/ ٢٩٧، ٢٩٨ باختصار.
(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٩/ ٣١٢.

فالغلو لَمّا كان مخالفاً للشرع ومصادماً لجِبِلّة الإنسان ونوازعه، أعقبه التفلت والانحلال.. كما أن الغلو والتشدد ذريعة للحيل المحرمة والتوثب على شعائر الله بأدنى الحيل، كما كشف عن ذلك ابن تيمية بقوله: «ولقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل؛ فوجدته أحد شيئين: إما مبالغة في التشديد لما اعتقدوه من تحريم الشارع؛ فاضطرهم هذا الاعتقاد إلى الاستحلال بالحيل، وهذا من خطأ الاجتهاد؛ وإلا فمن اتقى الله وأخذ ما أحل له وأدى ما وجب عليه؛ فإن الله لا يحوجه إلى الحيل المبتدعة أبداً؛ فإنه سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج، وإنما بُعث نبينا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة»[1].

لقد جاء الإسلام وسطاً تجاه حظوظ النفوس وشهواتها؛ بين من دنّسها ومن قدّسها؛ فإذا كان أرباب الشهوات قد أسرفوا على أنفسهم فأضاعوا الصلوات واتبعوا الملذات؛ فإن الذين دنّسوا الشهوات قد خالفوا السنة وصادموا الفطرة، فعمدوا إلى استئصال هذه الشهوات الجبلّيّة فتعذّر عليهم قمع تلك الغرائز؛ فانتكسوا في الإباحية واتباع الشهوات.

فينبغي التوسط بين المثالية الجامحة والواقعية المفْرِطة؛ فإن المثالية الجامحة قد يستحوذ عليها الاندفاع والحماس، فلا تراعي الواقع وشأن المصالح والمفاسد، كما أن الواقعية المفْرِطة منهمكة في مجاراة الواقع بعُجَرِه وبُجَره، وقد يؤول إلى هزيمة واستسلام، بل ربما أفضى إلى أن يصير هذا الواقعُ الموجع حاكماً على النصوص الدينية والثوابت الشرعية؛ فـ«المثاليون» قد تنفسخ عزائمهم وتنتقض هممهم، و«الواقعيون» قد غيّبوا عزائمهم واختفت هممهم وسبيل الحق بينهما.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٤٥ بتصرف يسير.

آفات النفوس والأحداث

آفات النفوس ودسائسها لا حصر لها، وما يعتري النفوس البشرية من اعوجاج وتلوُّن واضطراب يتعذر استيعابه، وكما قال أحد الشيوخ لابن القيم: «آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر؛ فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، وَلْتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ على سيرك»[1].

ولزوم السنة اعتقاداً وحالاً يهذِّب النفوس، ويحقق استقرارها، ويستلزم حياة طيبة، ويورث ثباتاً وطمأنينة، فلا ترى في هذه النفوس المطمئنة عِوَجاً، ولا تلحظ تناقضاً أو تحولاً، بل هي في منأى عن الإفراط والتفريط، وعافيةٍ من غوائل التقصير والغلو.

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٣١٤.

وسلفنا الصالح لَـمَّا حذروا من الابتداع والإحداث في دين الله – تعالى – فلأجل ما يقتضيه من تشريع دينٍ لم يأذن به الله – تعالى – وما تخلِّفه البدع من اندراس السنن، ووقوع العدواة والبغضاء، وحرمان التوبة، والتعرُّض للعقاب والوعيد.

كما أنهم على دراية بأهواء النفوس، وطبائعها وحظوظها، وما يكتنف هذه النفوسَ من آفات وعلل؛ إذ يكشف الابتداع عن نفوس معتلَّة، تقارف تنصُّلاً عن لزوم الصراط المستقيم، وتعاني اضطراباً وتناقضاً، واندفاعاً جامحاً ونشاطاً محموماً في سبيل الابتداع في الدين، ومضاهاة الشرع المنزَّل، إضافة إلى ما تكابده هذه النفوس من تناقض بين التنظير والتأصيل وبين التطبيق والتنفيذ.

فالتفلت من لزوم الشرع: هو من خبايا النفوس الملتوية وآفاتِ أرباب البدع، ويقترن بهذا الروغان عن السُّنة اجتهادٌ ظاهر، وجَلَدٌ متواصل في التشبث بالبدع وإذكائها.

وهذا ما جاء في الحديث الصحيح بشأن الخوارج: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم...»[1].

وأشار الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – إلى هذا «النشاط البدعي» بقوله: «اقتصاد في سُنة خير من اجتهاد في بدعة»[2].

فنفوس أهل الأهواء يعتريها الكسل والعزوف عن اتباع الشرع، لكنها سرعان ما تنشط وتندفع في مقارفة البدع، بكل شوق واستمتاع!

ولَـمَّا قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟ فقال: أَنسيتَ قوله – تعالى –: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣][3]؟

(١) إخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، (١/ ١٧٣)، ورواه الطبراني في الكبير.

(٣) ينظر: العبودية لابن تيمية، ص ٧٠.

وكَشَف أبو الوفاء ابن عقيل هذه الدسيسة النفسانية بقوله: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور...»(١).

وأما الإمام الشاطبي فله معرفة متينة بآفات نفوس المبتدعة وحظوظها، وقد أفصح عن ذلك بتحقيقٍ وتحرير، فكان مما قاله - رحمه الله -: «إن الدخول تحت تكاليف الشريعة صعب على النفس؛ لأنه أمر مخالف للهوى، وصادٌّ عن سبيل الشهوات؛ لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه، وكل بدعة فللهوى فيها مدخل؛ لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع. ومن الدليل على ذلك ما قاله الأوزاعي: «بلغني أن من ابتدع بدعةً خلاَّه الشيطان والعبادة، وألقى عليه الخشوع والبكاء، لكي يصطاد به»، وقال بعض الصحابة: «أشد الناس عبادةً مفتونٌ» ويحقق ما قاله الواقع، كما نُقل عن الخوارج وغيرهم؛ فالمبتدع يزيد في الاجتهاد لينال في الدنيا التعظيمَ والجاهَ والمالَ؛ وما ذاك إلا لخفَّةٍ يجدونها في ذلك الالتزام، ونشاطٍ يُداخلهم، يستسهلون به الصعب بسبب ما داخل النفس من الهوى»(٢).

ومن آفات النفوس التي تصاحب الابتداع في دين الله - تعالى -: داء الكِبْر وحبُّ الظهور وازدراء الآخرين، وهذا ما قرره ابن تيمية لَمَّا أورد مفاسد البدعة، فقال: «مسارقة الطبع إلى الانحلال من رِبقة الاتباع، وفوات سلوك الصراط المستقيم؛ وذلك أن النفس فيها نوعٌ من الكبر؛ فتحب أن تخرج من العبودية والاتباع حسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: «ما ترك أحد شيئاً من السُّنة إلا لِكِبْر في نفسه»(٣).

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي، ص ٤٥٥.

(٢) الاعتصام (تحقيق: مشهور): ١/ ٢١٥ - ٢١٧= باختصار.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦١١ - ٦١٢.

وكذا الشاطبي أَلْمَح إلى هذا الوباء قائلاً: «لم يتبين للمبتدع أنه ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كافٍ؛ فرأى من نفسه أنه لا بد لِمَا أُطلِق الأمر فيه من قوانين منضبطة وأحوال مرتبطة، مع ما يداخل النفوس من حبِّ الظهور والذكر بالمناقب التي ينفرد بها، واستنباط الفوائد التي لا عهد بها؛ إذ الدخول في غُمار الخلق يميت الهوى؛ لعدم الظهور، أو عدم مظنته»[(١)].

وجزم العلاَّمة ابن الوزير أن داء الكبر والعُجْب لا يفارق عموم المبتدعة، فقال - رحمه الله -: «الغالب على أهل البدع شدة العُجْب بنفوسهم، والاستحسان لبدعتهم، وربما كان أجر ذلك عقوبة على ما اختاروه أول مرة من ذلك، كما حكى الله - تعالى - ذلك في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. وهي من عجائب العقوبات الربانية، والمحذرات من المؤاخذات الخفية. وقد كثرت الآثار في أن إعجاب المرء بنفسه من المهلكات، ودليل العقوبة في ذلك أنك ترى أهل الضلال أشد عُجْباً وتيهاً وتهليكاً للناس واستحقاراً لهم. نسأل الله العفو والمعافاة من ذلك كله»[(٢)].

ومهما يكن فإن تلك النفوس المشحونة بالكبر والتعالي، سرعان ما يتقشع ذلك عنها ويعقبه المهانة والصغار؛ إذ يعاقب الله - تعالى - هذا الصنف بنقيض قصدهم، فتتساقط دعواهم العريضة، وينكشف عوارهم وعجزهم، كما حرره ابن تيمية قائلاً: «هكذا شيوخ الدعاوى والشطح يدَّعي أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الربَّ عن ربوبيته، والنبيَّ عن رسالته، ثم آخرتُه شحَّاذ يطلب ما يُقِيتُه، أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته؛ فيفتقر إلى لقمة، ويخاف من كلمة؛ فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمِّنة للغنى والعز؟»[(٣)].

(١) الاعتصام: ١/ ٤٩ = بتصرف يسير.

(٢) إيثار الحق على الخلق، ص ٤٢٦ = باختصار.

(٣) منهاج السُّنة النبوية وانظر: الرد على الشاذلي في حزبه لابن تيمية (ت: د. سمية حسين)، ص ٥٥ - ٥٦.

وأما ما يعلق بنفوس المبتدعة من التناقض والاضطراب فهذا مما يصعب حصره، لا سيما الروافض الإمامية، والذين يتعسر إيراد اضطرابهم وتخبُّطهم... وكما قال عنهم الدهلوي - رحمه الله -: «من استكشف عن عقائدهم الخبيثة، وما انطووا عليه، علم أن ليس لهم في الإسلام نصيب، وتحقق كفرهم لديه، ورأى منهم كلَّ أمر عجيب واطلع على كل أمر غريب، وتيقن أنهم قد أنكروا الحسي، وخالفوا البدهي الأولي، ولا يخطر ببالهم عتاب، ولا يمرُّ على أذهانهم عذاب أو عقاب؛ فإن جاءهم الباطل أحبوه ورضوه، وإذا جاءهم الحق كذبوه وردُّوه»[1]. وسأكتفي بمثالين:

أحدهما: المرجئة: فإن الإرجاء دين الملوك - كما قال النضر بن شميل في حضرة الخليفة المأمون[2] - ويقال: فلان مرجئي يتبع السلطان[3]، ويرون طاعة الأمراء مطلقاً وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة[4]!

ثم هم يتناقضون؛ فالجهم بن صفوان من غلاة المرجئة ولكن خرج على بني أمية، والحارث بن سريج يرى الإرجاء، وقد خرج على نصر بن سيار[5]، وقد وصف الأميرُ عبد الله ابن طاهر (ت ٢٣٠هـ) المرجئة فقال: «لا يرون للسلطان طاعة»[6].

وأما المثال الآخر: فأرباب التعبد المحدث (التصوف): فإنهم يتشدقون بالمثالية الجامحة والرهبانية الحادثة، بينما هم منغمسون في الشهوات والملذات، وسماع ورقصٍ، وصحبة مردان ونسوان... فهذه المثالية الـمُفْرِطة تخالف الشرع والعقل والفطرة؛ إذ تسعى إلى استئصال نوازع البشر، وقمع الغرائز، واجتثاث الشهوات، فأعقب ذلك إغراقاً في المذات، وانتكاساً في حضيض الشهوات.

(١) مختصر التحفة الإثنى عشرية، ص ٣٠٠.
(٢) انظر: البداية لابن كثير: ١٠/ ٢٧٦.
(٣) انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر: ١١/ ٤٣٦.
(٤) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ١/ ١٧٧، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٦/ ٢٨.
(٥) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ٧/ ١٦٩، ٢٥٨.
(٦) أخرجه الصابوني في عقيدة السلف (ت: الجديع)، ص ٢٧٢.

وقد أشار ابن الجوزي إلى ذلك بقوله: «إن قوماً منهم وقع لهم أن المراد رياضة النفوس لتخلُص من أكدارها المردية، فلما راضو مدة ورأوا تعذُّر الصفاء قالوا: مالنا نتعب أنفسنا في أمر لا يحصل لبشر، فتركوا العمل»(١).

وأحد أدعياء التصوف المعاصرين قدَّم أمثلة جليَّة على هذا التناقض المكشوف والاضطراب المعهود عنه وعن أسياده.. فبينا هو يلوِّح في الفضائيات متحدثاً عن الذوق الرفيع والتذوق اللطيف؛ إذ يدعو إلى العكوف في المزابل والنفايات طلباً لتهذيب النفوس، وتراه يصنِّف في السلوك، وتزكية النفوس، ورقَّة الشعور، ثم لا يغادر لَمْزَه وبغيَه على السلف الصالح(٢).

والمقصود أن البدع لا تنفك عن أهواء النفوس وأدوائها ورعونتها؛ ولذا أطلق أهل السُّنة على المبتدعة «أهل الأهواء». وإذا كانت البدعة قد تفضي إلى الشرك، فإن الهوى قد يكون إلهاً يُعبَد من دون الله. قال الله - عز وجل -: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ**﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

(١) تلبيس إبليس، ص ٤١٥.

(٢) انظر: ما سطره د. خلدون الحسني في كتابه المتين: «إلى أين أيها الحبيب الجفري؟». وكذا كتاب: «النصيحة مناقشة لفكر الحبيب الجفري» لحسن الحسني.

الثقة بالأشخاص ضلال

ما قال أبو الوفاء ابن عقيل هذه العبارة إلا عن دراية ومعرفة بطرائق المخالفين من المتكلمة والمتصوفة؛ فقد جرّب «الكلام» وخَبَر «التصوف»، فقال: «أنا أنصح بحكم العلم والتجارب: إياك أن تتبع شيخاً يقتدي بنفسه، ولا يكون له إمام يُعزى إليه ما يدعوك إليه، ويتصل ذلك بشيخ إلى شيخ إلى السفير ﷺ، اللهَ اللهَ؛ الثقة بالأشخاص ضلال، والركون إلى الآراء ابتداع»[1].

ورحم الله إمام دار الهجرة مالك بن أنس القائل: «ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ».

والناظر إلى حالنا يلحظ أن الاسترسال في العاطفة والانسياق في محبة أشخاص أوقع وبلسان الحال في غلو وتقديس لأولئك الأشخاص، كما أن بعضهم بلا قيد ولا زمام أعقبه بغي وعدوان كما هو مشاهد.

(١) درء تعارض العقل والنقل، ٨/ ٦٧.

فإذا تعيّن علينا اتباع الحق والدليل فلا يسوغ العدول عنه لرأي إمام نحبّه، أو متبوع نجلّه، وفي المقابل لا نجعل من زلة العالم أو كبوة المتبوع مسوغاً لظلمه والنيل منه.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الوسطية بعبارة بليغة فقال: «إن الرجل العظيم في العلم والدين قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين. ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه، بل في برّه وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، وكلا هذين الطرفين فاسد. ومن سلك طريق الاعتدال عظّم من يستحق التعظيم، وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق، ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويحبّ من وجه، ويبغض من وجه»[1].

فالواجب أن نقبل الصواب من كل شخص، وأن نتجنب الباطل مهما كان قائله، فلقد كان الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس: «واحذروا زيغة الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، فاقبلوا الحق فإن على الحق نوراً، فقالوا: وما يدرينا رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة؟ قال: هي كلمة تنكرونها منه وتقولون: ما هذه؟ فلا يثنيكم؛ فإنه يوشك أن يفيء، ويراجع بعض ما تعرفون»[2].

وأمر آخر ينبغي الاهتمام به لا سيما في هذه الأيام وهو ما قد يقع من مزالق وزلات لبعض المتنسبين للعلم الشرعي؛ فالواجب على سائر العلماء وطلاب العلم أن يعمدوا إلى مناصحة هؤلاء وتبيين الحق والصواب، وتذكيرهم بالوقوف بين يدي الجبار جل

(١) منهاج السنة النبوية، ٤/ ٤٣.
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١/ ٢٣٢.

جلاله فلا بد من الاحتساب عليهم والأخذ على أيديهم، وكما قال ابن تيمية: «يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب؟»[1].

وما قد يمارسه بعض المنتقدين من قسوة و «إسقاط» لأولئك لا يجرنا إلى المداهنة أو التغاضي عن مآخذهم.

ومن الاحتساب أن يقال عن طائفة منهم مثلاً لا تأخذوا بفتاويهم في باب الولاء والبراء لما غلب على تلك الآراء من تفريط وإضاعة لهذا الأصل العظيم، وقد يُنتفع بفتاويهم في أمور أخرى، أو أن يقال: لا تأخذوا بفتاوى طائفة أخرى في موضوع الحكم والسياسة لما استحوذ على آرائهم من تقديس وتسويغ للولاة، ووضع الآصار والتشديد على الرعية، ويمكن أن يقال تارة ثالثة: لا تأخذوا بفتاوى فلان في المعاملات المصرفية؛ إما لتساهله في مسائل الربا، أو لتشديد ومنع لا يستند إلى دليل. وهذا الشأن مسلك قال به أئمة السلف؛ حيث قال الأوزاعي: «من أخذ بقول أهل الكوفة في النبيذ، وبقول أهل مكة في الصرف، وبقول أهل المدينة في الغناء فقد جمع الشر كله»[2].

وقال عبد الله بن المبارك: «لا تأخذوا عن أهل مكة في الصرف شيئاً، ولا عن أهل المدينة في الغناء شيئاً»[3].

وذلك أن أهل الكوفة عُرفوا بإباحة النبيذ من غير العنب مما يسكر كغيره كما أن أهل مكة أجازوا الصرف؛ فمنهم من أجاز ربا الفضل، كما عُرف بعض أهل المدينة بالترخص في الغناء.

(١) إعلام الموقعين، ٤/ ٢١٧.
(٢) الاستقامة، لابن تيمية، ١/ ٢٧٤.
(٣) شرح السنة للبربهاري، ص ٥٢.

أحسب أن هذا «التبعض» يحصل به التوسط والعدل، فيُنتفع بحسنات القوم، وتُجتنب عثراتهم.

وأمر ثالث من الأهمية بمكان وهو مراعاة قاعدة المصالح والمفاسد، ومعرفة مراتب الانحراف والشرور وتفاوت الأحوال؛ فقد تجد مثلاً من يتصدر منبراً إعلامياً كالقنوات الفضائية، أو منبراً دعوياً كالمساجد والمؤسسات وقد يتكلم في مسائل دينية برأيه دون أثارة من علم أو دليل، فيعقب ذلك شرور ومفاسد، وقد ينتفع به أقوام تمكّن منهم الجهل وغاب عنهم العلم، فهؤلاء الأقوام حصل لهم خير وصواب لا ينفك عن شوائب، ولا شك أن هذا الصواب المقترن بما يعكر عليه خير من باطل لا صواب فيه.. وأما من أغناهم الله تعالى عن تلك المنابر والمواقع؛ لأجل ما في برامجهم من خير محض وصواب لا تشوبه تلك الشوائب فهم في عافية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوكُ الطريق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدَث لعدم القائم بالطريق المشروعة علماً وعملاً؛ فإذا لم يحصل النور الصافي بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف، وإلا بقي الإنسان في الظلمة فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة، إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدلَ عن ذلك يخرج عن النور بالكلية»[١].

ويقول في موضع آخر: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة و الجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على أيديهم خلق كثير، وانتفعوا بذلك، وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً، وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة قد يسمعها قوم فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذباً»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/ ٣٦٤، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦١٦ - ٦١٩.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٣/ ٩٥.

ويقول أيضاً: «والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة.. ليقدِّم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن لم يعرف الواقع في الخلق والواجب في الدين لم يعرف أحكام الله في عباده»[1].

فنسأل الله - تعالى - أن يرزقنا الفقه في الدين، وأن نقول الحق في الغضب والرضا. وبالله التوفيق.

(١) جامع الرسائل، ٢/ ٣٠٥.

سبيل العلاج من الوساوس والشكوك

لا ينفك الإنسان عن الوساوس والخطرات، كما لا يخلو من شكوك وشبهات.

فالإنسان مجبول على الفكر والتفكير كما جاء في قوله ﷺ: «أصدق الأسماء حارث و همَام»[1]؛ فأحق ما يسمى به الإنسان أنه حارث (عامل) وأنه همّام أي صاحب فكر وهمة ونية سواء كان فكراً صائباً أو فاسداً.

وأهل الإسلام والسنة وإن كانوا أرباب تصورات حقة، لكن قد تعتريهم الوساوس، وتعرض لهم الشكوك، وهم إزاء تلك الوساوس والشبهات على طرفي نقيض: فمنهم من ينساق معها ويغرق في لُجّتها، فتستحوذ عليه الحيرة، وتغلبه الشكوك، وربما أفضى به ذلك إلى ما ينقض أصل دينه. وطرف آخر إذا خطر له أذى وسواس في دينه إذا به ينوح على نفسه، ويتهمها بالكفر والنفاق، والواجب التوسط في ذلك كما سنبينه إن شاء الله. إن من المهم أن نراعي طبيعة النفس البشرية، وما يكتنفها من تلك الأدواء، لا سيما في هذا العصر عصر الانفتاح والفضائيات و «الإنترنت».

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، و أحمد و أبو داود و النسائي.

فالوساوس والشكوك واردة وواقعة، ولذا شُرع لنا أن نستعين بالله تعالى من تلك الوساوس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وقد عرض لبعض الصحابة - رضي الله عنهم - تلك الوساوس، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله! إنّا نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنّا تكلمنا به، فقال: (أَوَقد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان)(١).

والمراد بصريح الإيمان؛ أي: الإيمان الخالص، وهو كراهية تلك الوساوس ومدافعتها، وليس المراد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، بل هي من كيد الشيطان(٢).

يقول ابن تيمية: «لا بد لعامة الخلق من هذه الوساوس؛ فمن الناس من يجيبها فيصير كافراً أو منافقاً، ومنهم من قد غمر قلبه الذنوب، فلا يحسّ بها إلا إذا طلب الدين، ولهذا يَعْرِض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلُّوا؛ لأن الشيطان يكثر تعرُّضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه...»(٣).

وإذا تقرر وقوع الوساوس وورود الشكوك؛ فما سبيل السلامة والخلاص منها؟

- أول علاج وآكده أن يُعنى بحفظ الخواطر والأفكار عن وساوس الشيطان، فيصرف تفكيره فيما ينفع من العموم والإرادات النافعة؛ فمن أشغل فكره بالتصورات الصحيحة المفيدة، فإنه يسلم من الوساوس وما تؤول إليه من الأفكار الخاطئة.

كما قرر ذلك ابن القيّم - رحمه الله - بقوله: «وإياك أن تمكِّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك.

(١) أخرجه أبو داود وأصله في البخاري.
(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية، ص ٢٦٨، وفتح الباري ١٣/ ٢٧٣.
(٣) الإيمان ص ٢٦٨ باختصار.

وجماع إصلاح ذلك أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة و النار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته. . »[1].

- ومما يقي العبد من ركام الوساوس والشكوك أن يجتهد المسلم في تحقيق التسليم التام، والانقياد الكامل لما جاء عن الله تعالى في كتابه، وما صح عن رسول الله ﷺ؛ فما سلم في دينه إلا من سلّم لله ولرسوله ﷺ، ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم كما قال الإمام الطحاوي. قال الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].
إن الإذعان لنصوص الوحيين يدفع الشكوك، ويزيل الاشتباه، ولما أعرض أهل الكلام عن هذا التسليم والإذعان، بل عارضوا النصوص الشرعية بمعقولاتهم، أعقبهم ذلك حيرة وشكّاً، حتى قال بعض السلف: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام.

ووصف الإمام الطحاوي - رحمه الله - حال من أعرض عن الكتاب والسنة، واشتغل بعلم الكلام، فقال: «فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكّاً زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً»[2]
وألف شيخ الإسلام الهروي (ت/ ٤٨١هـ) كتابه «ذم الكلام» واستهله بهذا العنوان: «باب بيان أن الأمم السابقة إنما استقاموا على الطريقة ما اعتصموا بالتسليم والاتباع، وأنهم لما تكلّفوا وخاصموا ضلوا وهلكوا»[3].

---

(١) الفوائد، ص ١٦٩ - ١٧٠ باختصار.
(٢) شرح الطحاوية ١/ ٢٤٢.
(٣) ذم الكلام، ص ٢٥.

- وإن مما يدفع الوساوس والشكوك: تحقيق اليقين في تلقي الدين، سواء كان عقيدة أو شريعة؛ فلقد أثنى الله تعالى على المؤمنين الموقنين، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. فعلى المؤمن أن يكون موقناً ثابتاً؛ فاليقين يقابل الريب «والريب نوعان: نوع يكون شكّاً لنقص العلم، ونوع يكون اضطراباً في القلب، والإيمان لا بد فيه من علم القلب.. وعمل القلب أو بصبره وثباته، وطمأنينته، وسكينته، وتوكله، وإخلاصه، وإنابته إلى الله تعالى.

والريب: الحركة، و العرب تقول: ماء يقن، إذا كان ساكناً لا يتحرك؛ فقلب المؤمن مطمئن لا يكون فيه ريب»[١].

ويقرر ابن القيم عِظَم منزلة اليقين وكبير أثره فيقول: «ومتى وصل اليقين إلى القلب، امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهمّ وغمّ، فامتلأ محبةً لله، وخوفاً منه، ورضًى به، وشكراً له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه؛ فهو مادة جميع المقامات والحامل لها»[٢].

وإذا كان أهل الإرادة والسلوك يؤكدون على عظم اليقين كما بسطه ابن القيم في مدارج السالكين فإن الفقهاء يؤكدون على ذلك أيضاً؛ فمن القواعد الكلية الكبرى أن اليقين لا يزول بالشك. كما جاء في قوله ﷺ: «إذا وجد أحدكم في بطنه شيئاً، فأشكل عليه: أَخَرَجَ منه شيء، أم لا؟ فلا يخرجن من المسجد، حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»[٣]. وهذه القاعدة العظيمة تدخل في عامة أبواب الفقه ومسائله.

وإذا كان الدهماء ينخدعون ويتشككون، فيحاكون كل ناعق؛ فإن أرباب اليقين والرسوخ في دين الله لا تزيغ قلوبهم، ولا تضطرب ثوابتهم زمن المحن والأزمات،

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨/ ٤٢، ٤٣ باختصار.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٩٨.
(٣) أخرجه مسلم.

فضلاً عن زمن الرخاء والسلم. إن على أهل العلم والدعوة أن يلتفتوا إلى الوسائل والبرامج التي تحقق اليقين.

ومن ذلك التأكيد والتذكير بالثوابت الشرعية؛ فكم هي الأحكام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة قد صارت الآن محل اشتباه واضطراب، ومثال ذلك شعيرة الولاء والبراء، التي تواترات النصوص بتقريرها، واحتفتْ بترسيخها، حتى قال بعض العلماء: «أما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب ذلك، وأكّد إيجابه، وحرم موالاتهم، وشدّد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[١].

ومع ذلك كله فقد أضحى في هذه الأيام محل خصومة وجدال، وتشكيك والتباس، تحت أسماء موهمة كالتعايش، والحوار.. أو خضوعاً للواقع وانهزامية تجاه الأحداث وفق هالات «المراجعات» و «التحديات».

إن اليقين يحصل بأمور عديدة، وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ثلاثة منها فقط:

أحدها: تدبر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس، والآفاق التي تبيّن أن القرآن حق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [**فصلت**: ٥٣].

والثالث: العمل بموجب العلم؛ فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره، ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [**النساء**: ٦٦].

---

(١) النجاة والفكاك من موالاة المرتدين، وأهل الإشراك، لحمد بن عتيق، ص ١٣.

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

- وإن من آكد السُبُل في دفع الوساوس ورفعها: الانتهاء عن تلك الوساوس والشكوك، والكفّ عنها، والاستعاذة بالله من الشيطان، كما جاء في المسلك البرهاني الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله: «يأتي الشيطانُ أحدَكم، فيقول: مَنْ خَلَقَ كذا؟ من خَلَق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَك؟ فإذا بلغه؛ فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ»[١]. وفي لفظ لمسلم: «لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال: هذا الله خلق الخلق؛ فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنتُ بالله».

قال الخطابي: «قوله: من خلق ربّك؟ كلام متهافت ينقض آخره أوله؛ لأن الخالق يستحيل أن يكون مخلوقاً، ثم لو كان السؤال متجهاً لاستلزم التسلسل وهو محال، وقد أثبت العقل أن المحدَثات مفتقرة إلى محدِث، فلو كان هو مفتقِراً إلى محدِث لكان من المحدَثات»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنما وجب انتهاؤه؛ لأنه من المعلوم بالعلم الضروري الفطري لكان من سلمت فطرته من بني آدم أنه سؤال فاسد، وأنه يمتنع أن يكون خالقاً لكل مخلوق خالقُه؛ فإنه لو كان له خالق لكان مخلوقاً، ولم يكن خالقاً لكل مخلوق، بل كان يكون من جملة المخلوقات، والمخلوقات لا بد لها من خالق، وهذا معلوم بالضرورة والفطرة..»[٣].

ولا بد من التنبيه إلى أن الوساوس والشكوك في البدهيات لا تنمحي بالدليل والبرهان؛ لأن البدهيات يُستدل بها، ولا يُستدل عليها، والبرهان لا بد أن ينتهي إلى

(١) أخرجه البخاري.
(٢) فتح الباري ٦/ ٣٤١.
(٣) الدرء ٣/ ٣١٤.

تلك البدهيات، كما بيّن ذلك شيخ الإسلام بقوله: «الوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تُزال بالبرهان، بل متى فكر العبد ونظر ازداد ورودها على قلبه، وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه.

وهذا يزول بالاستعاذة بالله؛ فإن الله هو الذي يعيذ العبد ويجيره من الشبهات المضلّة، والشهوات المغوية، ولهذا أمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة فيقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]»(١).

- من وسائل دفع الشبهات والوساوس أن يقوم أهل العلم وطلابه بواجبهم في ردّ الوساوس وقطعها، وتفنيد الشكوك، وبيان ما يُشْكِل سواء من خلال الفتاوى، أو الردود، أو المناظرات.. كما أن على سائر أهل الإسلام أن يسألوا أهل العلم الثقات، وطلاب العلم الأكفاء «وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - يسألون رسول الله ﷺ، ويسأل بعضهم بعضاً، عن أدنى شبهة تعرض في حطابه وخبره..»(٢).

وها هي الشبهات والإشكالات تتتابع وتتلاحق، وتغزو البلاد والعباد، فيعمد بعض المتحمسين إلى دفعها، لكن بجواب ضعيف، وأسلوب ركيك، ويقابلهم من آثر القعود محتجاً بعلل عليلة، كأن يظن أن في الردّ على تلك الشكوك والإشكالات إظهاراً لها، وقد ذهل أن تلك الإشكالات متداولة بارزة في كتب ومجلات، وفضائيات وشبكات معلومات؛ فأي ظهور بعد هذا؟ وربما استروح بعضهم إلى آثار عن بعض السلف في منع مناظرة أهل البدع أو الرد على شبهاتهم، لكنهم غفلوا عن مناظرة ابن عباس - رضي الله عنهما - للخوارج، وما صنعه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - مع يزيد الفقير الذي شُغِفَ برأي الخوارج، فحدّثه جابر بحديث الجهنميين، فأقلع عن ذلك الرأي، وتاريخ أهل الإسلام والسنة حافل بالردود والمناظرات لمخالفيهم.

(١) الدرء ٣/ ١١.
(٢) الدرء ٧/ ٤٦.

ومما سطّره ابن القيم ضمن فوائد قصة وفد نجران قوله: «جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرتْ مصلحته من إسلام من يُرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة؛ فليولّ ذلك إلى أهله..»[1].

فمن أهم المهمات أن نقرر ونذكّر بأصول الاعتقاد وقواعد الشريعة، وأن نجيب عما يرد في ذلك من شبهات واقعة، أو إشكالات ملبّسة، وأن نقدِّم ما كان أشدها أثراً، وأعظمها انحرافاً وانتشاراً، فلا ننشئ شكوكاً مطمورة، ولا نحتفي بشبهات مغمورة، كما لا نعرض عن شبهات وإشكالات صارت ملء السمع والبصر.

- ومما يدفع الشكوك والوساوس: سؤال الله تعالى اليقين، كما في حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة؛ فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من العافية[2].

قال ابن القيم: «فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية؛ فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه»[3].

وكتب بعضهم إلى الإمام الشعبي قائلاً: رزقك الله اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه، ولا تعتمد في الدين إلا عليه[4].

والله المستعان.

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣٩.
(٢) أخرجه أحمد و ابن ماجه.
(٣) زاد المعاد ٤/ ٢١٦.
(٤) انظر: مجموع الفتاوى ٢/ ٣٨٥.

سُكْر الشهوات

«إن البشرية اليوم تعيش في ماخور كبير! ونظرة إلى صحافتها، وأفلامها، ومعارض أزيائها، ومسابقات جمالها، ومراقصها، وحاناتها، وإذاعاتها، ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإيحاءات المريضة، في الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلها... نظرة إلى هذا تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية، إن البشرية تتآكل إنسانيتها، وتتحلل آدميتها، وهي تلهث وراء الحيوان، ومثيرات الحيوان، لتلحق بعالمه الهابط...»[1].

هذا ما قاله سيّد قطب ـ رحمه الله ـ منذ أكثر من خمسين عاماً، فكيف لو أدرك هذا الزمان بقنواته الفضائية المتهتكة، ومواقع الفجور في الإنترنت ونحوهما؟! أضف إلى ذلك قرارات ومؤتمرات المنظمات الدولية التي تبيح ما حرّم الله تعالى ورسوله # من الفواحش والخنا: كالزنى، واللواط والسحاق، بل تسن هذه المنظماتُ القوانينَ في سبيل حماية ورعاية الفجور وأهله!

---

(١) في ظلال القرآن، (١/ ٥١١)، باختصار.

ويقول سيّد في موطن آخر: «وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله، وبخاصة في علاقات الجنسين، شاق مجهد، والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح! وهذا وهم كبير.. فإطلاق الشهوات من كل قيد، والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي.. إن هذه تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً، ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة، وعقابيلها في حياة المجتمع عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة.

والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي (تحررت) من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة، يكفي لإلقاء الرعب في القلوب، لو كانت هنالك قلوب!

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المِعْول الأول الذي حطم الحضارات القديمة، وحطم الحضارة الإغريقية، وحطم الحضارة الرومانية، وحطم الحضارة الفارسية، وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة»(١).

إن الولوغ في الفواحش لا يزيد الأمر إلا ولعاً وإدماناً على ذلك، فسعار الشهوات لا حدّ له ولا انقضاء.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بدّ لهم منه...»(٢).

والناظر إلى حال المسلمين ـ فضلاً عن غيرهم ـ يلحظ أن هذا الركام من الفواحش والقاذورات قد عمّ وطمّ، إذ استحوذت هذه الملذات المحرمة على فئام من المسلمين عبر وسائل كثيرة وميسرة، فآل بالكثير منهم إلى الانحلال والسفول، والتفلت من أحكام الشرع المطّهر.

---

(١) في ظلال القرآن، (٢/ ٦٣٢)، باختصار.

(٢) روضة المحبين، ص (٤٧).

وهذا الأمر الجلل يستوجب ما يلي:

• علينا ابتداءً أن نسمي الأمور بأسمائها الواردة في نصوص الوحيَيْن، فما يسمى الآن بالعلاقات الجنسية المشبوهة أو الممنوعة، أو المشاهد الإباحية ونحوها، فعلينا أن نطلق عليه: فواحش، وقاذورات، وزنى، وخبائث، قال تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [**الأنعام**: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [**الإسراء**: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**﴾ [**الأنبياء**: ٧٤]، وقال ﷺ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً، فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته، نُقِمْ عليه كتاب الله»[١].

إنّ في هذه الأوصاف استبشاعاً واستقباحاً لتلك الأفاعيل، وتنفيراً وتحذيراً منها، خلافاً للتعبيرات المعاصرة التي قد تهوّن سُبل الغواية، بل ربما عُبِّر عن هذه القبائح بأسماء محبوبة للنفوس.

يقول ابن القيم في هذا المقام: «وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيّروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة- وأكثر الخلق كذلك- حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون مجالس الفجور والفسوق: مجالس الطيبة...»[٢].

• على أهل العلم والدعاة أنت يبيّنوا حكم الله تعالى في أرباب الفواحش، وأن يظهروا أحكام الشريعة على أصحاب الفجور، فالزنى من كبائر الذنوب والموبقات كما قال ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة، فإذا خرج من

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الحدود، حديث (١٢).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٧).

ذلك العمل عاد إليه الإيمان»[1]، فإذا كان هذا حال الزاني، فكيف بما هو أشنع من ذلك؟

كما على أهل العلم والدعاة أن يبلغوا حكم الله تعالى والذي يجب إنفاذه في حق أهل الفجور، وإن تعذّر تطبيقه، فالرجم بالحجارة حتى الموت هو حكم الله تعالى في الزاني المحصن، وأما البِكر فجلد مائة وتغريب عام، وأما الذين يقارفون عمل قوم لوط، فعقوبته أغلظ من عقوبة الزاني، فقد أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على قتل اللوطي، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فمنهم من يرى تحريقه بالنار، ومنهم من قال يُرمى من شاهق. . . كما جاء مبسوطاً في موضعه.

• والمقصود تكثيف البرامج الدعوية بشأن شناعة الفواحش، وبيان مفاسدها وعواقبها الوخيمة في الدارين، فمن العجب أن يجاهر دعاة الرذيلة بفجورهم وفسوقهم، بينما يلوذ بالصمت الكثير من دعاة الفضيلة والعفاف!

فالمتعيّن أن نجهر بالفضيلة والطهر والنقاء، وندافع بكل حزم هؤلاء الدعاة العاكفين في أوحال القاذورات، ومستنقع الشهوات، بما يدرأ فجورهم ويكفّ غيّهم.

«نحن نعلم أن بعض الناس يعيش أغلب أوقاته في شبكة (المجاري).

ويبدو أن بعض الأدباء أَلِف الحياة في مجاري المجتمع ومساربه السفلى، والمدهش أنه يريد جرّ الآخرين إلى مستواه الخُلقي، أو أنه يريد نقل روائحه المنتنة إلى ظاهر الحياة محاولاً طمس ما نبت فوقها من حدائق وما فاح في جوها من عطور.

كذلك يصنع كتّاب الجنس في بلادنا، وفي أكثر أقطار الدنيا»[2].

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول: «فهكذا أهل الشهوات الفاسدة، وإن أضرمت قلوبهم نارة الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم من ذلك، أو

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، حديث (٤٦٩٠)، والترمذي، كتاب الإيمان، حديث (٢٦٢٥).
(٢) حصاد الغرور لمحمد الغزالي، ص (١٠٤).

ترك عذابهم، فإن ذلك يزيد بلاءهم وعذابهم، والحرارة التي في قلوبهم مثل حرارة المحموم، متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه، أو انتقل إلى مرض شرٍّ منه.

فهذه حال أهل الشهوات، بل تُدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها، والمنع من موجباتها، ومقابلتها بالضدّ من العذاب المؤلم الذي يخرج المحبة من القلب...»[1].

وقال أيضاً: «ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب، فإن الشهوة توجب السكر، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. وقد نهانا الله ـ عز وجل ـ أن تأخذنا بالزناة رأفة، بل نقيم عليهم الحدّ، فكيف بما هو دون ذلك من: هجر، وأدب باطن، ونهي، وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنى»[2].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن: «نهى الله ـ سبحانه ـ عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحدّ عليهم، فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم لهم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره...»[3].

فلا بد من بذل الجهد في توعية أهل الإسلام بمفاسد الفواحش، وسبل السلامة والوقاية من الفواحش وأسبابها، ومن أهم ذلك: إحياء واعظ الله تعالى في قلب كل امرئ مسلم، وتحريك بواعث الخوف والخشية من الله جلّ جلاله، وبيان ما يعقب هذه الفواحش واللذات العاجلة من الأنكاد والحسرات والأوجاع والنكال في الدنيا والآخرة.

مآرب كانت في الشباب لأهلها
عِذاباً، فصارت في المشيب عَذاباً

---

(١) جامع الرسائل (قاعدة في المحبة)، (٢/ ٢٩٣، ٣٩٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٨، ٢٨٩)، باختصار.
(٣) الجواب الكافي (٢٢٠).

• لا يُكتفى بالتوعية والتوجيه ويهمل جانب الأخذ على أيدي هؤلاء الشبيبة، وحجب منافذ الغواية عنهم، وكفّ وسدّ الوسائل المفضية إلى الرذيلة، فإن لتلك الشهوات سكراً وخمراً، فإذا استحوذت الفواحش على المرء، صار القلب متيماً مستعبداً للملذات.

وقد أشار ابن القيم إلى ذلك السكر فقال: «ومن أسباب السكر: حبّ الصور؛ فإذا استحكم الحبّ وقوي أسكر المحبّ، وأشعارهم بذلك مشهورة كثيرة، ولا سيما إذا اتصل الجماع بذلك الحبّ، فإن صاحبَه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميّز، فإن انضاف إلى ذلك السكر سُكر الشراب بحيث يجتمع عليه سُكر الهوى، وسُكر الخمر، وسكر لذّة الجماع، فذلك غاية السكر...»[1].

سُكران: سكر هوى وسكر مُدامة

ومتى إفاقة من به سكران؟

والمقصود أن حبّ الشهوات إذا استحكم على الأشخاص، فقد لا يجدي التوعية والتوجيه في حق من غاب عقله، وأُشرب حبّ شهوته، فعندئذ يحتاج إلى الزجر والأخذ على أيدي أولئك الأشخاص، وأَطْرِهم على الاستقامة أطراً، لا سيما لمن كان لهم ولاية أو سلطة، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

• من المهم في معالجة هذا الانحراف أن نبيّن ما تؤول إليه هذه الفواحش من الكفر والشرك بالله تعالى، فإن المعاصي بريد الكفر، وقد ينقص الإيمان حتى لا يبقى منه شيء.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في هذا الصدد: «فإن أصر على النظر [المحرم] أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش،

(١) روضة المحبين (١٥٢)، وانظر: قاعدة في المحبة لابن تيمية (جامع الرسائل)، (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).

فإن دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنى لا إصرار عليه.

بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان بالله»[١].

وقرر ابن القيم ذلك قائلاً: «إن التوحيد واتباع الهوى متضادّان، فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله ـ سبحانه ـ كسر الأصنام المجسّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً. وتأمّل قول الخليل ﷺ لقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله؟»[٢].

قد يتساهل البعض في شأن هذه الفواحش بدعوى أنها من مطلق المعاصي، وأن أصحابها تحت مشيئة الله تعالى، وقد غاب عن هؤلاء التلازم بين الظاهر والباطن، وخطورة الذنوب، وأنها قد تفضي بصاحبها إلى الانسلاخ من ملة الإسلام، خصوصاً وأن مدمني الشهوات قد لا يستطيعون تركها، إذ أسرتهم تلك الشهوات، فظلوا عليها عاكفين مصرّين.

وقد عقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ هذا الباب في كتاب الإيمان فقال: «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

وقال البخاري ـ رحمه الله ـ في نهاية هذا الباب: «... وما يحذر من الإصرار

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩٢، ٢٩٣)، باختصار.

(٢) روضة المحبين، (٤٨٣).

على النفاق والعصيان من غير توبة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]»(١).

ثم قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «مراده [أي: البخاري] أن الإصرار على المعاصي وشعب النفاق من غير توبة، يُخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص وإلى سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر»(٢).

وساق ابن رجب ـ رحمه الله ـ آثاراً كثيرة عن السلف في حبوط بعض الأعمال بالكبائر، ومن ذلك ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله «ما يؤمن أحدكم أن ينظر النظرة فيحبط عمله»(٣).

• إن الاشتغال بمعالي الأمور، والابتعاد عن سفسافها، والطموح بعزم وجدّ إلى المقامات السنية من العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله. . . إن ذلك لهو أعظم سبيل في مجانبة الأهواء والشهوات، فالإنسان «لم يخلق للهوى، وإنما هُيِّأ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيأوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وكما قال بعض السلف: القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحش»(٤).

---

(١) انظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن رجب (١/ ١٧٧).
(٢) فتح الباري (١/ ١٨١).
(٣) فتح الباري (١/ ١٨٤).
(٤) روضة المحبين (٣٧٢).

ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟!

دعا نوح ـ عليه السلام ـ أولُ رسول إلى أهل الأرض إلى تعظيم الله ـ عز وجل ـ فقال لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟! كما دعا خاتم النبيين والمرسلين نبينا محمد ﷺ إلى تعظيم الله ـ تعالى ـ وتقديره حق قدره، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يوماً على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يُقْبِل بها ويُدْبِر «يمجِّد الربُّ نفسه: أنا الجبّار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به[١].

وإذا كان تعظيم الله ـ عز وجل ـ هو سبيل المرسلين فقد ظهر في الآونة الأخيرة ما ينقض ذلك؛ إذ استفحل التطاول على ربنا ـ عز وجل ـ والانتقاص من جناب مقام نبينا الأكرم ﷺ، والاستخفاف بالدين وشعائره وحرماته، وصارت هذه «الردة

(١) أخرجه أحمد: ٢/ ٢٧. وابن خزيمة في كتاب التوحيد، ح (٥٩).

المغلَّظة» في مؤلفات وروايات ومجلات، وعبر قنوات ومواقع شبكات المعلومات. وتولّى كبر ذلك فئام من كفرة الغرب ومنافقي هذه الأمة وزنادقتها، كما نفر طائفة من المحتسِبين من أجل مدافعة هذا الفساد العريض والكفر الصريح.

وفي غمرة الانفتاح وانكباب المعلومات بعُجَرها وبُجَرها، ووفرة وسائل الاتصال وكثرتها؛ فإن بعض المُتديِّنة والمتسنّنة ـ فضلاً عمن دونهم ـ قد تساهلوا في اقتناء مؤلفات الزندقة والضلال، والاطلاع على روايات الكفر البواح، واعتادوا الدخول إلى مواقع إلكترونية تدعو إلى الردّة والانسلاخ من الإسلام والسنة، فأفضى بهم ذلك إلى استمراء سماع ومشاهدة الكفر والشرك والضلال، وهان عليهم التفوّه به ونشره، وتوسعوا في ذلك بدعوى الرصد والمتابعة لسبيل المجرمين.

فربما حذّر بعضهم من السحر، وضمّن هذ التحذير مشاهد مصورة للكفر المغلّظ الواقع من السحرة الأفاكين وأذنابهم، مثل: كتابة المصحف بدم الحيض، وتعليق هذه الصور الشنيعة في بيوت الله تعالى!

وقد يعمد البعض إلى بيان ضلال الرافضة وزندقتهم، فينقل طعنهم في الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ صوتاً وصورة، ومن ذلك: قذفهم أم المؤمنين عائشة الصدّيقة بنت الصدّيق ـ رضي الله عنهما ـ بما برّأها الله منه. مع أن التحذير متحقق دون الولوج في هذا المضيق، بل إن معاينة وسماع هذه المشاهد «الكفرية» في هذا السياق لا ينفك عن مفاسد متعددة؛ إذ إن الإفراط والإدمان في سماع ومشاهدة الردة المغلّظة ـ كالاستهزاء بالله ـ تعالى ـ وسبّ رسول الله ﷺ، وتضليل الصحابة رضي الله عنهم، والتهكم والانتقاص من شعائر وحرمات الشرع المطهّر ـ قد يؤول بأقوام إلى ضعف الغيرة الإيمانية، ورقّة الدين، وتهوين شأن هذه النواقض، فلا يتمعّر وجهه غضباً لله ـ عز وجل ـ كما يجب، بل ربما علق القلب بشيء من ذلك الضلال، فالشُّبَهُ خطّافة، والقلوب ضعيفة؛ فواغوثاه بالله!

إن الإيمان بالله مبني على تعظيم الله وإجلاله، قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ – ٩٣].

قال الضحاك بن مزاحم في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: «يتشققن من عظمة الله عز وجل»(١).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير هذه الآيات: «اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار، والبحار وما فيها من الحيتان، وفزعت السماوات والأرض، وجميع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، فاستعرت جهنم، واكفهرت الأرض حين قالوا: اتخذ الله ولداً»(٢).

وقد سار سلف الأمة على سبيل الإجلال والتعظيم لله ـ عز وجل ـ وآياته وشعائره، فقال الإمام سفيان بن عيينة: «سمعت من جابر الجعفي (رافضي هلك سنة ١٢٧هـ) كلاماً خشيت أن يقع عليّ وعليه البيت»(٣).

ولما ناظر الإمام الشافعيُّ حفصاً الفردَ (أحد المتكلمين) قال الشافعي: «لقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه»(٤).

وناظر الإمام أحمد القائلين بخَلْق القرآن، فكان مما قاله ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحداً طلب الكلام واشتهاه إلا أخرجه إلى أمر عظيم، لقد تكلموا بكلام

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة: ١/ ١٤٣.
(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٨٥١، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٦٣١.
(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم: ٢/ ٦١١.
(٤) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم: ٢/ ٦١١.

واحتجوا بشيءٍ مَا يقوى قلبي ولا ينطق لساني أن أحكيه. . »[١].

هكذا كان سلف الأمة يتورعون عن حكاية ضلالات المتكلمين، مع أن زندقة المعاصرين أشنع وأشنع من زندقة المتكلمين بمراحل، فإن بين هاتين الزندقتين مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، فكيف يحلو للبعض أن يقتني كتب الردة وروايات الزندقة دون موجب شرعي؟! لقد قرر ابن القيم أن الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها، فلا ضمان في تحريق الكتب المضلة ومحقها[٢].

فماذا يقال عن كتب الكفر والردة؟!

ومن طريف ما يُحكى في هذا المقام أن الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢هـ) أصابه داء أعيا الأطباء، فجيء له بكتاب «الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلي، وكتاب «المضنون به على غير أهله» لأبي حامد الغزالي[٣]. قال الصنعاني: «فطالعت الكتابين، ورأيت فيهما ما هو والله كفر لا يتردد فيه إيمان، فحرّقتهما، ثم جعلت أوراقهما في التنور وخُبِزَ لي على نارهما خبزٌ نضيج، وأكلته بنيّة الشفاء من ذلك الداء، فذهب ـ بحمد الله ـ ذلك الألم، ونمت الليل أو أكثره، وحمدت الله على نصرة دينه وعلى العافية»[٤].

ومع القناعة بأهمية معرفة سبيل المجرمين على سبيل التفصيل، واليقين بأن معرفة ذلك مما يزيد العبد إيماناً ورسوخاً، إلا أن المقصود هو مجانبة الإفراط والتوسع في ذلك، فلا يشتغل كل من هبَّ ودبَّ بحيازة علوم (الزندقة) وموادها، بل إنما يتولى

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، لابن بطة، (ت: الوابل)، ٢/ ٥٥.
(٢) انظر: الطرق الحكمية، ص ٤٥٢.
(٣) هذان الكتابان حافلان بالضلال المبين والزندقة والشطح.
(٤) مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني، لعبد الرحمن بعكر، ص ٩٢١.

ذلك عالم راسخ أو باحث ثقة ونحوهما، وبالقدر الذي تتحقق به معرفة الباطل، ومن أجل نقضه وهتكه، كما أن مخاطبة العامة وتحذيرهم من زندقةِ ورِدّةِ كُتّابٍ وحَمَلة أقلام ينبغي أن يكون بحذر وقدر، فالاسترسال بعرض باطلهم وزخرف قولهم وتزويق كلامهم قد يفضي بالعامة وأشباههم إلى انخداع وشكوك، ويوقع في جرأة ورعونة في التفوّه بهذه الضلالات.

نسأل الله الثبات. ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

قُطَّاع الطريق

«لقد دعونا نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب إلى الإسلام، فأخبروا أن المانع لهم ما يرون عليه المنتسبين إلى الإسلام ممن يعظّمهم الجهّال؛ من البدع والظلم والفجور والمكر والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع ولمن جاء به؛ فساء ظنهم بالشرع وبمن جاء به.

فالله طليب قطّاع طريق الله وحسيبهم»[1].

وقد أكّد ابن القيم - رحمه الله - مقالته السالفة في موطن آخر، فقال: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم؛ فكلما قالت أقوالهم للناس: (هلموا)؛ قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوا إليه حقاً لكانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدلّاء، وفي الحقيقة قُطّاع الطرق»[2].

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم ٢/ ٤١٦.
(٢) الفوائد، لابن القيم، ص ٩٤.

فابن القيم يتوجّع من حال هؤلاء المتبوعين أرباب الظلم والبدع والفجور والاحتيال، والذين يلصقون تلك الشناءات كلها بالشرع المطهّر، فأضحوا سبباً للصدّ عن سبيل الله تعالى، والنفرة عن دين الله عز وجل. كما ذم ابن القيم - في مقالته الأخرى - علماء السوء الذين يقولون بألسنتهم ما ينقضونه بأفعالهم.

- وقد أطنب ابن القيم في تحريم نكاح المحلِّل وذمّه وتغليظ جرمه كما في كتابه «إعلام الموقعين»، ومن قبله شيخه ابن تيمية في «بيان الدليل على بطلان التحليل»، وبيّنَا ما فيه من استحلال المحرمات، ومخادعة الله عز وجل، والتوثّب على محارم الله، تعالى. بل كان تجويز هذا «النكاح» مسبّةً على أهل الإسلام، وذريعة لشماتة الأعداء، وتزهيداً في الإسلام.

يقول ابن تيمية - في بطلان نكاح التحليل وذمّه -: «ولما رأى كثير من أهل الكتاب أن بعض المسلمين يقول: (إن المطلّقة تحرم حتى توطأ على هذا الوجه)، وقد رأى أن معنى هذا معنى الزنا، وحَسِب أن هذا من الدين المأخوذ عن رسول الله ﷺ أو تجاهل بإظهار ذلك؛ أخذ يعيّر المسلمين بهذا، ويقول: (إن دينهم أن المطلقة تحرُم حتى تزني، فإذا زنت حلّت)! وأخذ ينفِّر أهل دينه عن الإسلام بالتشنيع بهذا. ولم يعلم عدوُّ الله أن هذا لا أصل له في الدين، ولا هو مأخوذ عن السابقين ولا عن التابعين لهم بإحسان، بل قد حرّمه الله ورسوله، فإن دين الله أزكى وأطهر من أن يحرِّم فرجاً من الفروج حتى يستعار له تيس من التيوس، لا يُرغب في نكاحه ولا بقاؤه مع المرأة أصلاً، فينزو عليها، وتحلّ بذلك. فإن هذا بالسفاح أشبه منه بالنكاح، بل هو سفاح وزنا كما سمّاه أصحاب رسول الله ﷺ...»[1].

- وسرى وباء قطّاع الطريق فأصاب عامّة المسلمين ما أصابهم من الانحراف والزيغ، إذ استحوذ على كثير منهم الضُّلال، واستحكمت عليهم الشبهات، حتى

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل، ص ٤٣٧، ٤٣٨. باختصار.

إن النصارى شغَّبوا على ابن تيمية في أكثر من مناظرة، محتجين بهذا الواقع المريج. ومن ذلك: أن ابن تيمية لما ناظر ثلاثة من رهبان مصر وأقام عليهم الحجة، وأنهم ليسوا على دين إبراهيم ولا المسيح - عليهما السلام - عندئذٍ قالوا: نحن نعمل مثل ما تعملون؛ أنتم تقولون بالسيدة نفيسة، ونحن نقول بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن وأنتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين من قبلكم، ونحن كذلك.

فقال لهم: «إنّ من فعل ذلك ففيه شبه منكم؛ فإن الدين الذي كان إبراهيم عليه أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك..» إلخ. فلما سمع الرهبان ذلك منه؛ قالوا: الدين الذي ذكرتَه خير من الدين الذي نحن وهؤلاء عليه[1].

- وقَبلَ شيخ الإسلام، كَابَد ابن الجوزي هذا الداء، فكشف عن عُوار هذه الآفة في غير موطن. ويتجلى ذلك في ذمّه للمتصوفة وبيان حالهم، كما قال في إحدى خواطره: «فجاء أقوام فأظهروا التزهد، وابتكروا طريقة زيّنها لهم الهوى، ثم تطلّبوا لها الدليل. وإنما ينبغي للإنسان أن يتبع الدليل، لا أن يتبع طريقاً ويطلب دليلَها، ثم انقسموا: فمنهم متصنع في الظاهر، يتناول في خلواته الشهوات، ويعكف على اللذات، ويُرى في الناس بزيِّه أنه متصوف متزهد، وما تزهّد إلا القميص، وإذا نظر إلى أفعاله فعنده كِبْرُ فرعون»[2].

ولا يخلِّف هذا التلوّن والنفاق إلا زهداً في التدين وفراراً من الاستقامة. ولذا؛ صار هؤلاء المتصوفة محلّ تندُّر عند الظَّلَمة المستبدين، فضلاً عن غيرهم. وهاك مثالاً سطّره ابن الجوزي في هذا الصدد، إذ يقول: «ولقد بلَغَنا أن بعض الصوفية دخل على بعض الأمراء الظلمة، فوعظه، فأعطاه ألف درهم، فقبِلها، فقال ذاك الظالم: كلنا

(١) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٨٩، ٩٠، ومجموع الفتاوى ١/ ٣٧٠، ٢٧/ ٤٦١.
(٢) صيد الخاطر، ص ٥٥.

صيّادون ولكن الشباك تختلف»[1]. وصدق الظالم!

وقد قيل لصوفي آخر: تبيع جُبّتك الصوف؟ قال: إذا باع الصيّاد شبكته؛ بأي شيء يصطاد؟![2] فتماثلتْ مقالة الصوفي ومقولة الظالم، كما تشابهت قلوبهم.

- وقد تحدَّث الشيخ محمد الغزالي عن ذاك الداء الذي فتَكَ بنفر من المنتسبين للدعوة في هذا العصر، وسطّر عبارات لاذعة تليق بهذا الصنف، فقال: «ومن صِدْق الداعية مع ربّه - في أخذ نفسه ابتداء بكل إصلاح - أن يكون مدى ما يصيب من توفيق في عمله مع الناس.

ومن أعجب النقائض في دين الله ودنيا الناس، أن هناك نفراً ممن يتسمَّوْن بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من عِلْم إنما هو أمر يخص المخاطَبين فحسب! إنهم نَقَلة فحسب، إنهم «أشرطة مسجلة» تدور بعض الوقت ليستمع الناس إليها وهي تهرف بما لا تعرف. والدعاة الذين يَحْيَوْن على ذلك النحو المتناقض هم آفة الإيمان، وسَقام الحياة، ذلك أنهم تكذيب عملي للكلام الذي يلقون، والمبدأ الذي إليه ينتمون. أي أنهم عُذْر قائم بين يدي كل مقصر، وإياس من الصلاح أمام بغاته من السامعين والمطّلعين. وكثير من هؤلاء المنتسبين إلى الدين بألسنتهم، الخارجين عليه بأعمالهم؛ من يُلوِّن الدين برغبته، ويمزُج تعاليمه بشهوته، فهو - أولاً - يتعرف ما يشتهي، فإذا حدّده ألبسه ثوب الدين، وربما أقنع نفسه بأن شهوته هذه حق محض، ثم سعى إلى بلوغها، وكأنما هو يؤدي عبادة ولا يشبع نهمة!

إن الرجل القذِر البَدَن لا يغني عنه أن يحمل بين يديه قِطَع الصابون. ودعاة الدين الذين تهُبّ من سيرتهم سموم حارقة، إنما هم عار على الدين وصدٌّ عن سبيله.

والمراد من الدعاة المسلمين أن يتحسسوا أنفسهم، وأن يداووا ما قد يكون بها من

---

(١) تلبيس إبليس، ص ٢٠٧، والمنتظم لابن الجوزي، ١٤/ ١٢، ١٣.

(٢) انظر: تلبيس إبليس، ص ٢٢٢.

عِلل، تلك العلل التي تشيع بين من لم يُرزقوا العصمة، والتي يستحيل أن نخلو منها يوماً . . »[1].

إنّ أخْذَ الدين بقوة عِلماً وعملاً، والقيام بدين الله - تعالى - كله؛ لَهو الغذاء والدواء تجاه هذه البلية، وقد ورد في الأثر: «إنه لا يقوم بدين الله إلا من أحاطه من جميع جوانبه»[2]، كما أن التأسي برسول الله ﷺ كفيل برفع هذا الداء ودفعه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [**الأحزاب**: ٢١]، إضافة إلى أن النظر في سير السلف الصالح (العالمين العاملين) باعث على سلوك سبيلهم ومدافعة تلك الآفة.

«قيل لعبد الواحد صاحب الحسن البصري: أي شيء بلغ الحسن فيكم إلى ما بلغ، وكان فيكم علماء وفقهاء؟ فقال: كان الحسن إذا أَمَر بشيء أعملَ الناس به، وإذا نهى عن شيء أتركَ الناس له»[3].

«وكان يحضر حلقة الإمام أحمد بن حنبل خمسة آلاف، منهم خمسمائة يكتبون، والباقون يتعلمون منه حُسْن الأدب والسّمْت»[4].

«وقال بعض تلاميذ عبد الوهاب الأنماطي عنه: استفدت من بكائه أكثر من روايته»[5].

وما قد يقترفه بعض المنتسبين للعلم لا يعدّ مذهباً لهم - فضلاً عن أن يُستدل به؛ فالعبرة باتباع نصوص الوحيين - إذ قد يكون فَعَلَه ناسياً أو ذاهلاً أو متأولاً، أو ذنباً يستغفر الله منه، كما بينه ابن القيم في إعلام الموقعين[6].

﴿**رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [**الممتحنة**: ٥].

---

(١) كتاب «مع الله»، ص ١٨٢ - ١٨٤، باختصار.
(٢) قال ابن كثير في البداية ٣/ ١٤٢: «أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة، والحاكم، والبيهقي».
(٣) أخبار الحسن البصري، لابن الجوزي، ص ٢٨.
(٤) سير أعلام النبلاء، ١١/ ٣١٦.
(٥) ذيل طبقات الحنابلة، ١/ ٢٠٢.
(٦) ٣/ ١٩٦.

«الانفلونزا»... وانحسار التوكل والاتباع

طالما أن أهل الإسلام يرددون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في كل ركعة من ركعات الصلاة، ويعتقدون وجوب عبادة الله - تعالى - واتباع شرعه، وفريضة التوكل على الله وحده والإيمان بالقدر... فلا مسوغ لهذا الهلع الشديدد، والفزع الكبير من انفلونزا الخنازير الذي استحوذ على جهات صحية وإعلامية، وانعكس على عموم الناس، بل إن في آراء بعض متفقهة هذا العصر تأثُّراً وانسياقاً لتلك المبالغات والتهويلات.

ومع زخم المعلومات وتعدد المتابعات لذلك الحدث إلا أن النظرة الشرعية لم تكن حاضرة، فضلاً عن الاحتفاء بها وترسيخها.

فالتوكل على الله - تعالى - وحده هو شرط الدين، وشرط في الإيمان، بل إنه ضرورة فطرية لكل إنسان؛ فمن البدهي أن يجد كل شخص في نفسه حاجة وافتقاراً إلى من يعتمد عليه، ويُعلِّق قلبه به؛ فالعبد لا ينفك عن استعانة واعتماد: فإما أن يعتمد على الله وحده، فيحظى بالتوفيق والكفاية، وإما أن يعتمد على غيره، فيشقى بالخذلان والحرمان.

إن هذا التوكل إيمان فطري ضروري يزكِّي الروح، ويقوي النفس، ويحرك الفأل الحسن، ويورث حركة إيجابية، لكنه صار مغيباً مهملاً في أحداث هذه الانفلونزا.

ولا يُقتصر على تذكير الناس بالتوكل على الله، والتوعية بذلك، بل يُحتاج إلى ترسيخه وتربية الأمة عليه، وإلَّا فما أكثر الذين يعرفون التوكل في حال السراء؛ لكنهم سرعان ما يضطرب أو يتقشع في حال الشدة والضراء... كما قال المحاسبي: «ويصف التوكل على الله إن واتته الدنيا وأعطاه ما يحب... فإن خولف هواه بضيق العيش أو عَرَض له خوف مخلوق.. اضطرب قلبه، وطمع فما في أيدي الناس»(١).

إن متديِّنةً في هذه الأيام قد عرفوا التوكل على الله، إلا أن الضعف والهشاشة تجاه الانفلونزا قد أقعدهم عن الاعتمار في رمضان، والاعتكاف في المسجد النبوي، والتنصل من مشاركات دعوية تخوُّفاً من سبب موهوم أو مظنون!

قال ابن تيمية عن أشباه هذا الصنف: «قوم ينظرون إلى جانب العبادة والطاعة، ولا ينظرون إلى جانب التوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة؛ فهم مع حسن قصدهم، وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره، يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوي العبد، وتُيسِّر عليه الأمور»(٢).

- وهذه «الانفلونزا» وسائر الأدواء مما قدَّره الله - سبحانه وتعالى - وشاءه، وهو - سبحانه - لا يخلق شراً محضاً؛ فالشر ليس إليه، وله الحكمة البالغة في شرعه وقدَره. قال ابن القيم: «الآلام والمشاق: إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها. وقد أحصيت

(١) الرعاية: ص ٤٥٣.

(٢) التحفة العراقية (مجموع الفتاوى): ١٠/ ٣٢، وانظر: ١٠/ ٦٧٣.

فوائد الأمراض فزادت على مائة فائدة. . . ولهذا قالت العقلاء قاطبة: إن النعيم لا يُدرك بالنعيم، وإن الراحة لا تُنال بالراحة»[1].

وأورد ابن القيم - في كتاب آخر - أنواعاً من العلاج الروحاني والأدوية الإلهية تجاه المصائب والأمراض[2]، فكان مما سطَّره - رحمه الله -: «ومن علاجها أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكمُ الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه - سبحانه - لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه به، وإنما ليمتحن صبره وإيمانه، وليسمع تضرُّعه وابتهاله، وليراه طريحاً ببابه، لائذاً بجنابه. . .

والمقصود أن المصيبة كير العبد؛ فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فبين يديه الكير الأعظم. . . وإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا خير له من ذلك الكير، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قَدْرَ نعمة الله عليه في الكير العاجل»[3].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله # قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه، حتى يُوافى به يوم القيامة»[4].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بعد شرح هذا الحديث: «وهذا مما يُزهِّد العبد في الصحة الدائمة خوفاً أن تكون طيباته عُجِّلت له في الحياة الدنيا، والله - تعالى - لم يرضَ الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه، بل جعل ثوابهم أن أسكنهم في جواره ورضي عنهم. . .»[5].

(١) شفاء العليل = باختصار: ص ٥٢٤، ٥٢٥.
(٢) انظر زاد المعاد: ٤/١٨٨ - ١٩٦.
(٣) زاد المعاد: ٤/ ١٩٤، ١٩٥ = باختصار.
(٤) أخرجه: الترمذي وحسنه الألباني.
(٥) تيسير العزيز الحميد: ص ٥٣٤.

- لا يصح - شرعاً ولا قَدراً - أن يُعتمد على التداوي واللقاح؛ فالالتفات إلى الأسباب شرك، والاعتماد على غير الله لا يحقق المقصود ولا يُتم المنشود، والسبب لا يستقل بنفسه في حصول المطلوب، فما لم يكن بالله لا يكون، والتداوي سبب في الأعم الأغلب وليس سبباً مطرداً في حصول المطلوب، كما حرره ابن رجب في لطائف المعارف[1].

وقرر ابن تيمية أن التداوي تعتريه الأحكام الخمسة[2].

وقال ابن عبد البر: «وإنما التداوي مباح لا سنَّة ولا واجب، وليس العلم به علم موثوق به، بل هو حظٌّ وتجربة»[3].

وقال ابن تيمية: «إن كثيراً من المرضى يُشفَوْن بلا تداوٍ... فالتداوي ليس من الضرورة في شيء، والتداوي غير واجب[4]، ومن نازع فيه خصمته السُّنَّة في المرأة السوداء... إلخ»[5].

- وأما اضطراب الاتِّباع للشرع المنزَّل، والتوثُّب على قواعد الدين ومبانيه، فمن خلال ما سوَّده هواة الأقلام وأضرابهم ممن لا يرجون لشعائر الله وقاراً، فقد «اقترح» هؤلاء النوكى[6] ممن يؤلِّهون الصحة والعافية الامتناعَ عن الحج، كما سوَّغ بعضهم ترك الجمعة والجماعات إمعاناً في إيثار السلامة والوقاية!

وقد سئل العلامة محمد رشيد رضا - رحمه الله -: «هل يجوز لأي مسلم مَنْعَ مسلم من أداء الحج...؟

(١) انظر: وظائف شهر صفر من كتاب لطائف المعارف.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٢.
(٣) التمهيد: ٥/ ٢٧٩.
(٤) لعل مقصوده - رحمه الله - أنه ليس واجباً بإطلاق في جميع حالات التداوي.
(٥) مجموع الفتاوى: ١٨/ ١٨٣.
(٦) النوكى: جمع أَنْوَك وهو الأحمق.

فكان مما قاله: «من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، هو أنه لا يجوز لأحدٍ منع أحد من إقامة دينه وأداء فرائضه، ومن استحلَّ ذلك، فحكمه معلوم بالضرورة لا خلاف فيه بين المسلمين في كفره...»[1].

ورحم الله سماحة العلَّامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ متحدثاً عن أضراب هذا الصنف، إذ قال: «لقد انطلقت ألسنة كثير من المتعلمين، وجرت أقلام الأغبياء والعابثين، وطارت كلَّ مطار في الآفاق كلمات المتسرعين، واتُّخذت الكتابة في أحكام المناسك وغيرها تجربة لأقلام بعض.

ولعمري لئن لم يُضرَب على أيدي هؤلاء لتكونن العقبى التي لا تحمد، ولتأخذن في تماديها إلى أن تكون المناسك ألعوبة للاعبين، وفساداً فاشياً في تلك العبادات، وليقومن سوق غث الرخص، وليبلغن سيل الاختلاف في الدين والتفرق فيه الزبا...»[2].

والمقصود أن قيمة المرء ما يحسنه؛ فلا يسوغ لرفيق أو متطبب أو صحفي ونحوهم أن يخوضوا في مسائل الشرع المطهَّر، فرحم الله من عرف قدر نفسه، واشتغل بما يجيده، ولَزِم التسليم للوحي، وأعطى القوس باريها.

فاللهم إنَّا نسألك العفو والعافية والمعافاة، كما نسأله - سبحانه - الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت.

---

(١) فتاوى محمد رشيد رضا: ٤/ ١٥٥٩.

(٢) فتاوى محمد بن إبراهيم: ٦/ ٤٧، ٤٨ = باختصار.

مدافعة الشبهات

أجهش العلامة إبراهيم بن جاسر[1] - رحمه الله - (ت ١٣٣٨هـ) بالبكاء، لما قرئ عليه في كتاب (منهاج السُّنة النبوية في نقض الشيعة والقدرية لابن تيمية)؛ حيث جاء قول ابن المطهِّر الحلي[2] وما فيه من شبهات ومغالطات، ثم قال الجاسر لطلابه: أيها الإخوان! لو لم يقيِّض الله لهذا الطاغية وأمثاله مثل هذا الإمام الكبير؛ فمن الذي يستطيع الرد والإجابة عن هذه الشبهات[3]؟

وإذا تجاوزنا ما قاله العلاَّمة ابن جاسر؛ إذ لا تخلو الأرض من قائم لله - تعالى - بحجة، وتحدثنا عن السبيل إلى التعامل مع الشبهات ومدافعتها.

فالشبهة إن كانت واضحة البطلان، ظاهرة العوار لكل ذي عينين، لا يُلتفت إليها؛ فإن الخوض في إبطالها تضييع للزمان، وإتعاب للحيوان[4]، وإنما المدافعة

(١) انظر ترجمته في علماء نجد للبسام: ١/ ٢٧٧ - ٢٩٣.

(٢) في كتابه - المردود عليه - منهاج الكرامة، وقد سمَّاه ابن تيمية: منهاج الندامة، كما سمى مؤلفه بابن المنجِّس، ووصفه بأنه أجهل خلق الله بالسُّنة، انظر: منهاج السُّنة: ١/ ٢١، ٤/ ١٢٧.

(٣) علماء نجد للبسام: ١/ ٢٨١.

(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ٤/ ٩٣.

للشبهات التي يَضِل بها بعض الناس[1]؛ «إذ لا يشبه على الناس الباطل المحض، بل لا بد أن يُشاب بشيء من الحق»[2].

كما ينبغي التوسط مع الشبهات في حدِّ ذاتها؛ فالشبهات المغمورة، والاعتراضات المطمورة لا يُلتفت إليها بدعوى الرد والمناقشة؛ إذ في ردِّها إظهارٌ لها بعد اندراسها، وإحياءٌ لرميمها، ولكن الشبهات التي استفحلتْ وأوقعت حيرة ولبساً عند فئام من المسلمين، فالمتعيَّن مدافعاتها ومناظرة أربابها ومجادلتهم. قال ابن تيمية: «كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس...»[3].

وكذا التوسط مع الشبهات أثناء سماعها من الآخرين، أو ورودها من المخاطبين؛ فلا يزجر كل سائل تَعْرض له شبهة، ولا يُهمَل كل من وقع في حيرة أو اشتباه؛ فهذا الإعراض والإهمال قد أفضى ببعضهم إلى زندقة، وخروج عن الإسلام والسُّنة. وكذا الحذر مما يقابل ذلك، من تَقَصُّد الشبهات، أو دعوة الناشئة إلى إثارة أي شبهة أو إشكال، كما يفعله بعض المعاصرين؛ فإن تتبُّع الشبهات وحصرها ليس مقدوراً ولا مشروعاً؛ فالشبهات لا تنقضى ويستحيل حصرها. ولا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعها؛ «فالمعارضات الفاسدة التي يمكن أن يوردها بعض الناس على الأدلة لا نهاية لها؛ فإن هذا من باب الخواطر الفاسدة، ولا يحصيه أحد إلا الله... فالخواطر الفاسدة التي تقدح في المعلومات لا نهاية لها، ولا يمكن استقصاء ما يَرِد على النفوس

---

(١) انظر: التدمرية، ص: ١٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٨/ ٣٧.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ١/ ٣٥٧، وانظر: زاد المعاد: ٣/ ٦٣٩.

من وساوس الشيطان»[1]. «والقرآن لا يُذكر فيه مخاطبة كل مبطل بكل طريق، ولا ذَكَر كلَّ ما يخطر بالبال من الشبهات وجوابها؛ فإن هذا لا نهاية له ولا ينضبط»[2].

كما لا تُذكر الشبهة ابتداءً واستقلالاً، بل يقرر الحق، ويبيِّن الهدى بأدلته وبراهينه (النقلية والعقلية)، ثم يجيء الجواب عن الشبهات الواردة عَقِب هذا التقرير والتأصيل[3].

ومن مدافعة الشبهات: تحقيق اليقين، وترسيخ الإيمان؛ فإذا انشرح القلبُ بالإيمان وخالط بشاشة القلوب؛ فلا يقع انتكاس أو ارتداد. قال ابن القيم: «ومتى وصل اليقين إلى القلب، امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كلُّ ريب وشك وسخط وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبة لله، وخوفاً منه، ورضاً به»[4].

قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]. يقول العلاَّمة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -: «في هذه الآية ترتيب غريب عجيب، بالغ في الحُسْن؛ لأن السبب الأول: هو الغرور والخديعة، فتسبَّب عن الغرور والخديعة أن صغت إليه قلوبهم ومالت، ثم تسبب عن صوغ القلوب وميلها أنهم أحبوه ورضوه، ثم تسبب عن كونهم أحبوه ورضوه أن اقترفوه... والمؤمنون يعرفون زخارف الشيطان ووحيه؛ فيتباعدون منه ويجتنبونه»[5].

---

(١) الدرء: ٣/ ١٦٢، ٢٦٢.
(٢) الدرء: ٨/ ٨٨.
(٣) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية، وكتاب فقه الرد على المخالف لخالد السبت، ص: ٢٨٣.
(٤) مدارج السالكين: ٢/ ٣٩٨.
(٥) العذب النمير، تحقيق: خالد السبت: ٢/ ٥٨١، ٥٨٤ = باختصار.

ومفهوم الآية أن الإيمان باليوم الآخر يحقق مجانبة الإصغاء إلى هذا الخداع والتزويق؛ فالمؤمنون بالآخرة قد استنارت بصائرهم، فنظروا في حقائق الأمور؛ فلا يهولوهم زُخرُف القول، أو معسول الكلام.

وكذا؛ فإن تربية الأمة على الاستعلاء بالإيمان، والاعتزاز بالإسلام ولزوم السُّنة، لَيُحقق مَنَعة وسلامة من الشبهات؛ فالشبهات تَعْلق بالقلوب الضعيفة والنفوس المنهزمة؛ فهي محل قابل لتلك الشبهات، وكم جرَّت الهزيمة النفسية من ضعف وخَوَر، وانسياق مع الشبهات، وانصياع للاعتراضات!

ومن الحقائق الإيمانية التي ينبغي استصحابها في مدافعة الشبهات أن في القرآن العظيم ما يردُّ على كل مخالف، كما قال - تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]. قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: «لو تدبَّر إنسان القرآن كان فيه ما يردُّ على كل مبتدع وبدعته»(١). كما أن أهل السُّنة يجزمون أن أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية أو عقلية إلا وهي عند التأمُّل حجة عليهم(٢).

ومن الأجوبة المهمة تجاه الشبات عموماً: الاحتجاج بمحكمات الشريعة، والتمسك بجُمَل الإسلام والسُّنة؛ إذ لا يحتج بالمتشابه المحتمل على المحكَم القطعي الجلي إلا أهل الزيغ، وقد احتفى الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - بهذا الجواب المجمل، كما في رسالته المتينة: «كشف الشبهات».

ومن سبل المدافعة ما قرَّره يحيى العمراني (ت ٥٥٨هـ) قائلاً: «ولا تزول الشبهة عن قلوب العامة إلا من حيث دخلت، وقد كان ﷺ يزيل الشبهة من حيث علم دخولها»(٣). (ثم ساق الأدلة على ذلك).

(١) أخرجه الخلاَّل في السُّنة: ١/ ٥٤٧.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٦/ ٢٥٤، وحادي الأرواح لابن القيم، ص: ٢٠٨.
(٣) الانتصار (الجزء الأول): ١/ ٩٤.

ومما ينبغي مراعاته في هذا المقام: النظر في أحوال أرباب الشبهات، ومدافعتهم بالأسلوب الأقوم والملائم، والذي يحقق دفع الشبهة وإظهار السُّنة: «والألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات، كالسلاح في المحاربات، فإذا كان عدو المسلمين – في تحصُّنهم وتسلُّحهم – على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم، كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع»[1]. وقال العلاَّمة ابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ) – رحمه الله –: «المحامي عن السُّنة، الذابُّ عن حماها كالمجاهد في سبيل الله – تعالى – يُعدُّ للجهاد ما استطاع من الآلات والعدة والقوة، كما قال – تعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]»[2]. كما يُحذِّر من السِّباب والشتائم وبذاءة القلم واللسان أثناء معالجة الشبهات: «فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد»[3]. والكلام البذيء يدل على انقطاع صاحبه وقلة علمه، كما قال العمراني في الانتصار: ١/ ٩١. وعليه أنا يجانب البغي والعدوان، ويتحرى العدل والإنصاف؛ «فالإنسان إذا اتبع العدل نُصِر على خصمه، وإذا خرج عنه طمع فيه خصمه»[4]. وليحرص على مطالعة أحوال السلف وآدابهم في التعامل مع الشبهات، وجدال المخالفين ومناظرتهم[5]، كما يتعين الرسوخ في العلم الشرعي، والتمكُّن من الفقه لدين الله تعالى، والدراية بأساليب الحوار، وطرائق دفع الشبهات، والدُرْبة على المحاورات والمناظرات. قال ابن عبد البر: «ليس كل عالم تتأتى له الحجة، ويحضره الجواب، ويسرع إليه الفهم بمقطع الحجة ومن كانت هذه خصاله، فهو أرفع العلماء،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/ ١٠٧.

(٢) إيثار الحق على الخلق، ص: ٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٤/ ١٨٦.

(٤) الدرء: ٨/ ٤٠٩.

(٥) انظر: كتاب فقه الرد على المخالف لخالد السبت، وقد انتفعت به في هذا المقال. ومنهج الجدل والمناظرة لعثمان علي حسن.

وأنفعهم مجالسة ومذاكرة»[1].

ثم إن عليه - أولاً وأخيراً - أن يستعين بالله وحده؛ فما لم يكن بالله لا يكون، وكما قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -: «لكن إذا أقبلت على الله، وأصغيت إلى حججه وبيناته، فلا تخف ولا تحزن، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً، والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]»[2].

---

(١) جامع بيان العلم: ٢/ ٩٦٨.

(٢) كشف الشبهات، ص: ٣٩.

أَكْلُ الحلال وحلاوة المناجاة

يقال: إن الحَجَّاج بن يوسف لما ولي العراق، وكان أهله لا يتولى عليهم أحد يشوش عليهم إلا هلك سريعاً بدعائهم عليه، فأمرهم الحجاج أن يأتي كلُّ واحد منهم ببيضة دجاجة، ويضعها في صحن الجامع، وأراهم أن له بذلك ضرورة، فاستخفوا ذلك منه ففعلوا، ثم أمرهم بعد ذلك أن يأخذ كل واحد عين بيضته، وأراهم أن قد بدا له الرجوع عمَّا أراده، فلما أخذوا ذلك لم يعلم كل واحد منهم عين بيضته، فلما علم الحجاج أنهم تصرفوا في ذلك مدَّ يده إليهم، فدعَوا عليه على عادتهم فمُنِعوا الإجابة[1].

قال ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ) معلقاً على تلك الحادثة -: «ولأجل هذا المعنى كَثُرت المظالم اليوم، وكثر الدعاء على فاعلها وقلَّت الإجابة أو عدمت... فلو سلم بعضهم من مثل هذه الحال، ودعا لاستجيب له عاجلاً»[2].

(١) انظر: المدخل، لابن الحاج: ٢/ ٣٥٥.
(٢) المدخل: ٢/ ٣٥٥.

ولقد احتفى أهل السُّنة بأكل الحلال تقريراً وتحقيقاً، حتى أثبتوه في عقائدهم. يقول الفضيل بن عياض: «إن لله عباداً يحيي بهم البلاد والعباد، وهم أصحاب سنَّة، من كان يعقل ما يدخل جوفه من حِلِّه كان في حزب الله، تعالى»[١].

قال ابن رجب معلقاً على عبارة الفضيل: «وذلك لأن أكل الحلال من أعظم الخصال التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه»[٢].

ووصف شيخ الإسلام الصابوني أهل الحديث والسُّنة أنهم يتواصون بالتعفف في المآكل والمشارب والمنكح والملبس، وكذا قرره قِوام السُّنة الأصفهاني[٣].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله - تعالى - أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: «﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا** ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي الحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟»[٤].

ومن شروحات ابن رجب لهذا الحديث قوله: «مِنْ أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيب مطعمه، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله... وفي الحديث إشارة إلى أنه لا يُقبَل العمل ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله... فالرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٨/ ١٠٤.
(٢) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة: ص ٢.
(٣) انظر: عقيدة السلف للصابوني: ص ٢٩٧، والحجة للأصفهاني: ٢/ ٥٢٨.
(٤) أخرجه مسلم.

الحلال، وبالعمل الصالح؛ فما دام الأكل حلالاً، فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً؟»[1].

والمقصود أن على الداعي أن يتحرى أكل الحلال، ويتورَّع في مطعمه ومشربه؛ فإن هذا من آكد آداب الدعاء، بل هو من شروط الدعاء المستجاب[2].

إن من أجلِّ آداب الدعاء: إظهارُ الافتقار إلى الله، والانطراح والانكسار بين يديه، سبحانه. وكما قال سهل التستري: «ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار»[3].

وكلما ازداد الشخص عبودية وافتقاراً إلى الله، ازداد كماله وعَلَت درجته؛ فأكرم ما يكون العبد على الربِّ - سبحانه - أحوج ما يكون إليه، وأما الخلق فأهون ما يكون عليهم الشخص أحوج ما يكون إليهم[4].

فمن أعرض عن الدعاء والافتقار والإلحاح على الله، فإنه يشتغل بمسألة الناس، ويُقْبِل على التذلل لهم... فيرتكب ثلاث مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، ومفسدة إيذاء المسؤول، ومفسدة امتهانه لنفسه، وذله لغير الله[5].

قال ابن تيمية: «وقد جرَّب الناس أن من لم يكن سائلاً لله سأل خلقه، فإن النفس مضطرة إلى من يُحصِّل لها ما ينفعها، ويدفع عنها ما يضرها؛ فإن لم تطلب ذلك من الله طلبته من غيره»[6].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ١/ ٢٦٠ = باختصار.

(٢) انظر: الدعاء ومنزلته من العقيدة لجيلان العروسي: ١/ ١٨٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/١٠٨.

(٤) انظر: العبودية لابن تيمية: ص٨٠، وقاعدة في توحيد الألوهية لابن تيمية.

(٥) انظر: قاعدة جليلة في التوسل: ص ٦٦.

(٦) الرد على الشاذلي: ص ١١.

وهذ حال بعض شيوخ الصوفية الذين يتركون الدعاء استكباراً وغروراً، ويدَّعون الاستغناء عن اللجأ إلى الله - عز وجل - ثم آخر حالهم يعكفون على أبواب الظَّلَمة، ويقتاتون من مكاسب خبيثة.

وقد وصف ابن تيمية أولئك الشيوخ بقوله: «هكذا شيوخ الدعاوى والشطح، يدَّعي أحدهم الإلهية، وما هو أعظم من النبوة، ويعزل الربَّ عن ربوبيته، والنبيَّ عن رسالته، ثم آخرته شحَّاذ يطلب ما يقيته، أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته، فيفتقر إلى لقمة، ويخاف من كلمة؛ فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعزِّ؟»(١).

وفي غمرة الغفلات المتتابعة، وحظوظ النفس المتشعبة، وصخب الحياة الجسدية، فإن النفس لا تنفك عن الجهل والظلم، وحينئذٍ يعتدُّ الأشخاص بقدراتهم، ومواهبهم التي امتن الله بها عليهم، ويركنون إلى حولهم وقوَّتهم، ويدَّعي أحدهم بلسان الحال أو المقال أنه «العملاق» أو «سوبر مان».

بل إن اعتداد الشخص وثقته بنفسه وطاقته بعُجَرها وبُجَرها قد استحوذ على فئام من الدعاة، فلا تكاد تخطئ عينك كثرة الدورات والندوات في هذا الشأن؛ وغرق القوم في الالتفات والاعتماد على الأسباب الظاهرة المحسوسة، بل تجاوزوه إلى تعلُّق بأسباب مثالية موهومة. وأعقب ذلك ما نكابده من ضعف الأحوال الإيمانية: من الإخبات والخشوع والإنابة إلى الله - تعالى - بل ربما غاب ما يتعين استصحابه من فقرنا وفاقتنا، وضعفنا ومسكنتنا، وعجزنا وتفريطنا في جنب الله.

والناظر إلى الأئمة الأعلام لدى أهل الإسلام والسُّنة، وسيرهم وأحوالهم، لا تكاد تجدهم إلا أصحاب إخبات وانطراح بين يدي الله - تعالى - واعتراف بالذنب

---

(١) منهاج السُّنة النبوية: ٧/ ٢٠٩.

والتقصير، ويقين بالفاقة إلى الغني الحميد، سبحانه. فرحمة اللهِ على تلك الأرواح، لم يبقَ منهم إلا الأشباح.

وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان يقول: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقرُّ بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، مَنْ خضعت لك رقبته، وذلَّ لك جسده، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين! يا خير المعطين!»[2].

ويبدو أن ثمة تلازماً بين أكل الحلال، وحلاوة المناجاة لله - تعالى - ولذَّة الأنس والافتقار إليه، عز وجل. وقد قرر الحافظ ابن كثير - في تفسيره - أن أكل الحلال عونٌ على العمل عند تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأشار ابن الجوزي إلى ذلك التلازم في إحدى خواطره، فقال: «وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة. وغفلته عمَّا عوقب به عقوبةٌ. وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: «يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني!» فقيل له: «كم أعاقبك ولا تدري؛ أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟»».

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه ابن عساكر في معجم الشيوخ: ٢/ ٩٤٨.

فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة وَجَده بالمرصاد، فربَّ شخص أطلق بصره فَحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانَه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سِرُّه، وحُرِم قيام الليل وحلاوة المناجاة... إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس.

ولقد رأينا مَنْ سامح نفسه بما يمنع منه الشرع، طلباً للراحة العاجلة، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل، وعكست عليه المقاصد»[1].

وقد كابد ابن الجوزي شيئاً من عوارض حلاوة المناجاة ومكدِّراتها. ثم إن الله تداركه برحمته ولطفه؛ ولقد حكى هذه المعاناة بأسلوب بديع، فقال: «كنت في بداية الصبوة قد أُلهمت سلوك طريق الزهَّاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحُببت إليَّ الخلوة، فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عين بصيرتي قوية الحِدَّة تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتُبادِر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه فمال الطبع ففقدتُ تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه، لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطتُ، فقدم ما كنت أجد[2]، وصارتْ المخالطة توجب ظلمة القلب إلى أن عُدِم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع منِّي يوجب انزعاج أهل المجلس[3]، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلساً فيما بيني وبين حالي[4]، وكَثُر ضجيجي من مرضي، وعجزتُ عن طب نفسي. فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، وردَّ قلبي عليَّ بعد نفوره مني، فأفقتْ من مرض غفلتي، وقلت في

(١) صيد الخاطر: ٧٢، ٧٣ = باختصار.

(٢) لعله يعني أنه فقد ما يجده من حلاوة المناجاة والأنس بالله.

(٣) لعل مقصوده أن حنينه وندمه على فقدان هذه المناجاة أورث أهل مجلس وعظه وتذكيره قلقاً وخوفاً من الله، تعالى.

(٤) الأحوال هي ما تتعلق بالأعمال القلبية. فالحال ها هنا هو القلب.

مناجاة خلوتي: سيدي كيف أقدر على شكرك؟ وبأي لسان أنطق بمدحك؛ إذ لم تؤاخذني على غفلتي، ونبهتني من رقدتي، وأصلحتَ حالي على كره من طبعي؟ فما أربحني فيما سُلب مني؛ إذ كانت ثمرته اللجأ إليك! وما أوفر جمعي؛ إذ ثمرته إقبالي على الخلوة! وما أغناني؛ إذ أفقرتني إليك، وما آنسني؛ إذ أوحشتني من خلقك، آهٍ على زمان ضاع في غير خدمتك! أسفاً لوقت مضى في غير طاعتك!»[1].

وأختم هذه السطور بطرف من مناجاة أبي الحسن الكانشي (ت ٣٤٧هـ)، الذي عُرِف بالعلم والورع، ورقَّة القلب ومجانبة أهل الأهواء؛ فقد حكي عنه أنه قام ليلة فقرأ سورة الإسراء حتى ختم المصحف، ثم أخذ في البكاء وقال:

أتــراك بـعـد الــدرس لـلـقـرآن تحرقني؟

يا ليتني أُدرِجـتُ قبل الذنب في الكفنِ

ثم عاد إلى البكاء حتى طلع الفجر، ثم أقبل يقول: (وعزتك وجلالك! ما عصيتك استخفافاً بحقك، ولا جحوداً لربوبيتك، لكني حضرني جهلي، وغاب عني علمي، واستفزني عدوي، وإنِّي عليها - يا إلهي - لنادم)[2].

ومن مناجاته: (أرني من أطاعه فأضاعه، أرني من قصده فخيَّبه، أرني من توكَّل عليه فأضاعه. إذن لا تراه أبداً)[3].

(١) صيد الخاطر: ص ٩٢، ٩٣ = باختصار.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ١/ ٦١، ٦٤.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ١/ ٦١، ٦٤.

النجـــاة من كمين الشبهات

«الحمد لله الذي جعل أقوال الملحدين يظهر فسادها لكلِّ ذي عقل، كما علم إلحادهم كلَّ ذي دين»[١]:

فالكذبات الصلعاء، والإفك المكشوف لا يستحق أن يلتفت إليها، فالخوض في إبطالها تضييع للزمان، وإتعاب للحيوان[٢]، ثم إن الشغب على العلوم الضروريات يوقع في السفسطات، وإنكار الحقائق الجليات[٣]، وإنما الكلام بشأن الشبهات التي يشتبه فيها الحق بالباطل، إذ لا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لا بُدَّ أن يشاب بشيء من الحق[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «وكل ذي مقالة [من مقالات الملل والنحل] فلا بُد أن تكون في مقالته شبهة من الحق، ولولا ذلك لما راجت..»[٥].

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٠/ ٤٥.
(٢) انظر: مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٥/ ٩٣.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣١١.
(٤) انظر التدمرية لابن تيمية ص ١٠٦، ومجموع الفتاوى ٨/ ٣٧.
(٥) جامع الرسائل ٢/ ٤٠١.

ويقول الفيومي: «الشبهة في العقيدة: المأخذ الملبِّس، سميت شبهة لأنه تشبه الحق»[1].

■ والتعلق بالله - تعالى -، والانطراح بين يديه، والافتقار إلى الله في جميع الأحول، يحفظ العبد من بريق الشبهات وتزويقها.. فكم من عبد مُخْبِت قد سدّد الله شأنه، وأنار بصيرته، وإن كان متوسط الذكاء، أو دون ذلك، وكم من ذكي رقيق الديانة قد حُرِم برد اليقين، فهو في لجج الشبهات ليس بخارج منها..

يقول ابن تيمية - في هذا المقام -: «وقد يكون الرجل من أذكياء الناس، وأحدِّهم نظراً، ويعميه الله عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس، وأضعفهم نظراً، ويهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته، خُذِل، ولهذا النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة كثيراً ما يدعو ربَّه: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك..»[2].

قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾، أي تميل إلى ذلك القول المزخرف المزين الباطل؛ ليكون سبباً للضلال، فتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن المؤمنين يعرفون زخارف الشيطان ووسوسته، فيتباعدون منه ويجتنبونه..»[3].

(١) المصباح المنير ١/ ٣٥٨.
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤.
(٣) العذاب النمير ٢/ ٥٨٤ = باختصار يسير.

والحاصل أن التعلق بالله والدار الآخرة يحفظ العبد من شراك الشبهات وزخرفها، «والاستقراء يدلُّ على أنه إذا خلص الإيمان إلى القلب لم يرجع عنه..»[1].

■ ولا بُد من العبادة والإيمان، من العلم والرسوخ في الشرع، والتفقه في دين الله، فهما أمران متلازمان: العلم بالله وخشيته، والعلم بأحكام الله وشرائعه، وبهما يتحقق الثبات على دين الله، والسلامة من الشبهات.. كما حرره ابن تيمية بقوله: «فإن الإنسان قد يؤتى إيماناً مع نقص علمه، فمثل هذا الإيمان قد يرفع من صدره، وأما من أوتي العلم مع الإيمان فهذا لا يرفع من صدره، ومثل هذا لا يرتد عن الإسلام قط، بخلاف مجرد القرآن أو مجرد الإيمان، فإن هذا قد يرتفع، فهذا هو الواقع»[2].

فعلى المحاضن التربوية أن ترسِّخ العلم الشرعي في الأجيال، وتحقق البُلغة من التفقه في دين الله، كما أن عليها أن تسعى إلى ترويض نفوس الناشئة بالتعبّد المشروع والسمت النبوي، وإعداد برامج علمية وعملية في تزكية النفوس.. فالقلوب الخاوية من روح الإيمان، ونور البصيرة، والعقول الفارغة من علوم الشريعة هي المرتع الفسيح للشهوات والشبهات.

■ علينا أن نشرع ابتداءً في تقرير المسائل الدينية بدلائلها النقلية والعقلية والفطرية، ويكون الردُّ على الشبهات تبعاً لتلك التقريرات، وهذا ما ألمح إليه ابن تيمية بقوله: «ونحن نذكر ما يُستفاد من كلام النبي ﷺ مع ما يستفاد من كلام الله، فَيصلُ المؤمن إلى ذلك [مسائل الإيمان والإسلام] من نفس كلام الله ورسوله ﷺ، فإن هذا هو المقصود، فلا نذكر اختلاف الناس ابتداءً، بل نذكر من ذلك في ضمن بيان ما يستفاد

(١) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص ٥٦٢.
(٢) مجموعة تفسير ابن تيمية ص ١٤٩.

من كلام الله ورسوله . . »[1].

وقال – في موطن آخر – : «وإنما يذكر [القرآنُ] الحقَ والأدلةَ الموصلةَ إليه لذوي الفطر السليمة، ثم إذا اتفق معاند أو جاهل كان من يخاطبه من المسلمين مخاطباً له بحسب ما تقتضيه المصلحة»[2].

■ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا بُّد من توصيف الواقع الحاضر بعلم وعدل، وما يكتنفه من الشبهات، ومدى ظهورها، بلا تهويل ولا تهوين . . ثم ينظر في الشبهات التي هي أكثر ظهوراً وتأثيراً، وأما تتبع جميع الشبهات، وملاحقة الاعتراضات فليس مشروعاً ولا مقدوراً . .

يبيّن ابن تيمية ذلك بقوله: «ومعلوم أن الباطل ليس له حدّ محدود، فلا يجب أن يخطر ببال أهل العقل والدين كل باطل، وأن يردّوه، فإن هذا لا نهاية له . . »[3].

■ ثم إن لزوم الشرع، والاعتصام بالسنة يحتاج إلى رؤية وتؤدة، بخلاف الشبهات فإنّ لها وثْبةٌ وخِفَّة، فلا يستخفنَّك الذين لا يوقنون.

وهذا ما أشار إليه ابن عقيل الحنبلي قائلاً: «الفقهاء والمحدِّثون يقصِّرون عن إزالة الشبه؛ لأنهم عن النقل يتكلمون، وللخوف على قلوب العوام من الشكوك يقصرون القول ويقلِّلون، فهم حال الأجوبة عنها ينظرون في العاقبة، والمبتدعة يتهجمون، فعلومهم فرح ساعة، ليس لعلومهم ثبات . . »[4].

---

(١) كتاب الإيمان ص ١.
(٢) تعارض العقل والنقل ٨/ ٨٨.
(٣) تعارض العقل والنقل ٧/ ٧٦، وانظر: الدرء ٣/ ١٦٢، ٥/ ٣٢٠.
(٤) تعارض العقل والنقل ٨/ ٦٤.

فما أكثرَ ركامَ الشبهات، وزخمَ الاعتراضات! ومع ذاك المكر الكُبَّار فالدين منصور، وحججه ظاهرة، والإقبال عليه يفوق الوصف، فالعاقبة للمتقين.

■ ينبغي أن تراعى أحوال النفس وكمائنها في الجواب عن الشبهات، فهناك نفوس تعزف عن الأجوبة الظاهرة الجلية، وتؤثر الأجوبة الدقيقة الخفية، لما فيها من حبّ التفرّد والتمايز على سائر النفوس..

وهذا ما اكتشفه ابن تيمية قائلاً: «الأدلة التي فيها دقة وخفاء، ينتفع بها من تعوّدت نفسه الفكرة في الأمور الدقيقة، أحبّ إليه من الطرق الواضحة التي يشركه فيها الجمهور.. لما في النفوس من حبّ الرياسة»[1].

وفي المقابل فإن لدد النقاش مع صاحب الشبهات، قد يدفعه إلى العناد ومزيد من الإصرار.. فأهواء النفوس لا حدّ لها.

وهذا ما أشار إليه أبو حامد الغزالي.. لما تحدّث عن آفات علم الكلام وما فيه من خصومة وجدال.. فقال: «فيه مضرّة من إثارة الشبهات، وتأكيد اعتقاد المبتدعة، وتثبيته في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الإصرار بواسطة التعصب الذي يثور عن الجدل»[2].

فاللهم إنَّا نسألك الثبات على الدين، وبرد اليقين، اللهم ارزقنا اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه.

---

(١) تعارض العقل والنقل ٨/ ٨٦ = باختصار يسير.
(٢) الإحياء ١/ ١٦٧.

أربـاب جِدٍّ في العمل

لا نزاعَ في أهمية التنظير، والتأصيل العلمي، وتحرير الأقوال، وتحقيق المسائل، وتوثيق الدلائل..

لكن هذا التنظير اعتراه الضعف، وهشاشة البحث، وهزال التحرير.. وليست هذه السطور في معالجة هذا الضعف والتهافت في التنظير، وإنما هي تذكير بالجانب العملي، ومعالجة التقصير في الأفعال، ومدافعة السلبية والتكاسل عن البدار إلى الباقيات الصالحات، إذ استحوذ على الساحة القيل والقال، وتشقيق الكلام، والإسهاب في جلسات «العصف الذهني»، والإطناب فيما يسمى «الحراك الثقافي»، وتفاقم النقاشات والمخاطبات، فاستُنزفت الأوقات، وأُهدرت الطاقات في الأقوال على حساب الأفعال، فتكاثر وتضاعف التنظير، وتناقص وتقلّص التطبيق.

لقد كان سلفنا الصالح «عبيد تسليم في العقائد، أرباب جدّ في العمل»[1]؛ فقد حرصوا على ما ينفع، واشتغلوا فيما تحته عمل، وجدّوا في طاعة الله والاتباع،

(١) قالها ابن عقيل الحنبلي كما في تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٤٢٣.

وجانبوا شكوك المتكلمين وشطحات المتصوفين. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه»[١].

«ودخل الحسن البصري - رحمه الله - المسجد، فقعد إلى جنب حلقة يتكلمون، فأنصتَ لحديثهم، ثم قال: هؤلاء قوم ملّوا العبادة، ووجدوا الكلام أهون عليهم، وقلّ ورعهم وتكلّموا»[٢].

«وقال الأوزاعي - رحمه الله -: إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً، وإن المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً»[٣].

«وكان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، ولا أحبّ الكلام إلا فيما تحته عمل؛ لأني رأيت أهل بلدنا [المدينة النبوية] ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل»[٤].

«وقال معروف: إذا أراد الله بعبده شراً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل»[٥].

ثم إن الشخص بطبيعته وجبلّته لا بد أن يعمل ويسعى، كما في قوله ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام»[٦].

فكل إنسان حارث، أي صاحب عمل وكسب وسعي، فإن أعرض عن العمل المشروع، اشتغل بالعمل الممنوع، وإن لم يفعل المطلوب، ارتكب العمل المحظور[٧].

(١) أخرجه البخاري.
(٢) الحلية لأبي نعيم ٢/ ١٥٧.
(٣) الحلية لأبي نعيم ٦/ ١٤٢.
(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/ ٩٥.
(٥) السير للذهبي ٩/ ٣٤٠.
(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٤٥؛ وأبو داود (٤٩٥٠)؛ وغيرهما.
(٧) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (كتاب الإيمان) ٧/ ١٧٣ - ١٧٤.

قال ابن القيم: «من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضرُّه ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتُلي بالعمل لمن لا يملك شيئاً من ذلك، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتُلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بدّ..»[1].

وكما ذمَّ سلفنا الصالح أهل الكلام في سلوبهم ونفيهم للصفات الإلهية، فقد ذمّوا الصوفية في سلوبهم في السلوك؛ إذ غلبت التروك على أرباب التعبّد المحدث، فالورع - عندهم - مجرد ترك، والتزكية مجرد تطهير فحسب.. يقول ابن تيمية: «وأما المعطلة من المتفلسفة ونحوهم فيغلب عليهم النفي والنهي، ففي العقائد: الغالب عليهم السلب[2]، وفي الأفعال: الغالب عليهم الذم والترك من الزهد الفاسد والورع الفاسد.. لا يفعل، لا يفعل.. من غير أن يأتوا بأعمال صالحة، ولهذا كان غالب من سلك طرائقهم بطّالاً متعطلاً..»[3].

فمن ترك الصالحات فهو بطّال على طريقة أهل التعبُّد الفاسد، وإلا فالورع فعل وعمل قبل أن يكون تركاً، وزكاة النفوس تجمع بين طهارتها من الذنوب وتنميتها بالأعمال الصالحات، فلا زكاة للنفوس إلا بحصول ما ينفعها من الأعمال النافعة، ودفع ما يضرّها من السيئات الواقعة[4].

وقد غَلَب على الخطاب السلفي في بعض الأحايين: الاشتغال بالتروك، وتتبّع المخالفات وتعدادها على سبيل التحذير، والانهماك في سرد أفراد البدع والمحدَثات، والنفوس إنما «خُلقت لتعمل لا لتترك، فالترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل

(١) مدارج السالكين ١/ ١٦٥.
(٢) السلب أي النفي المحض كقولهم: إن الله لا يوصف باسم ولا صفة ولا فعل.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٠/ ١٢٦ = باختصار.
(٤) ينظر: مجموع الفتاوى ١٠/ ٩٦.

صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ، أو الناقص»[1].

والحق أن الاشتغال بالسنن الفعلية والأعمال الشرعية وإظهارها آكدُ وأجلُّ، فلا يُنهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يُغني عنه[2].

وإظهار السنن يوهن البدع ويُؤْذِن بانطماسها، كما أن ظهور البدع يصحبه ارتفاع السنن واندراسها، كما في الحديث «ما أحدث قوم بدعة إلّا نزع الله عنهم من السنة مثلها»[3].

ثم إن البدع انفلات عن السنن، وتنصُّل عن الاتباع، ولزوم السنة: أعمال متحققة وأفعال واقعة.

وممَّا يؤكد ذلك أن جنس فعل المأمورات آكدُ من جنس ترك المنهيات، فالمأمورات مقصودة لذاتها، وترك المحظورات مقصود لغيره، كما حرره ابن تيمية وابن القيم وغيرهما[4].

والتعلُّق بالله والدار الآخرة يوجب العمل والبدار، والجدّ والاجتهاد، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج[5]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[6].

(١) الاقتضاء لابن تيمية ٢/ ٦١٧.
(٢) انظر: الاقتضاء ٢/ ٦١٧.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) ينظر: مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٨٥-١٠٩، والفوائد لابن القيم ص ١٣٣- ١٤٣.
(٥) أدْلج: معناه سار في أول الليل، والمراد: التشمير في الطاعة. . قاله النووي في رياض الصالحين (٤١١).
(٦) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

فالغفلة عن البعث والنشور، والجزاء والحساب؛ توقع في التثاقل إلى الدنيا، والتكاسل عن معالي الأمور، والتقاعس عن الجدّ في تحصيل القربات والصالحات، وكلما زاد اليقين بالآخرة لدى الشخص تضاعفت الطاعات، وتسارعت الأعمال الباقيات، كما كان عليه سلفنا الأوائل.

وصلاح القلب يستلزم صلاح الجوارح، فإذا تحرّك القلب بمحبة الله تعالى وخوفه ورجائه وإجلاله.. تحرّكت الجوارح بالأعمال الصالحات والحسنات الماحية.

وإذا حلّت الهداية قلباً
نشطت للعبادة الأعضاءُ

«فالقلب إذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يختلف البدن عمّا يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[1].. فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق..»[2].

فإذا صلح القلب صحت الأعمال، ونشطت الجوارح في إقامة الصالحات، وذاق العبد حلاوة الطاعات، ووجد الأُنس وقرة العين في أدائها.

ولذا يقول ابن تيمية: «إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك فاتهمه فإن الرب تعالى شكور»[3].

فاللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/ ١٨٧.
(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٩/ ٣٤.

الاهتداء والانتكاس

لا ينفك المرء عن جهل وظلم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فالأصل في الإنسان الجهل وعدم العلم، كما أن طبيعة الإنسان لا تفارق الظلم. لذا لا بد من رفع الجهل بالتفقه في دين الله، والتحلي بفضيلة العلم؛ ولا سيما إذا تكالب على المرء ركام الشبهات والشكوك والشهوات والحظوظ التي تحول دون الاهتداء والانتفاع؛ فالقلوب ضعيفة، والشبهات خطَّافة تجلب الحيرة، والشهوات مزالق تورث السكرة.

كما أن علينا المصابرة والإنابة إلى الله – تعالى – ومراقبته وخشيته؛ فهو الذي يدفع الظلم ويرفع البغي. فهما أمران: العلم بأحكام الله وشرائعه أمراً ونهياً، والعلم بالله وخشيته ومخافته، (وكفى بخشية الله علماً).

فأعظم سبيل للاهتداء هو التفقه في العلم الشرعي، وتحصيل المعارف الدينية، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين».

«ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد الله به خيراً»[١].

فالعلم الشرعي يقتضي الاهتداء، ويستلزم أثره من الاستقامة والسداد، وإن كان قد يتخلَّف مقتضاه لفوات شرط أوقيام مانع[٢].

فإذا تعلم الشخص وتفقَّه في دين الله لكن فاتته الهداية ولم يحقق الاستقامة؛ فإن ذلك لعدم رسوخ العلم وغياب التصور التام اليقيني لمسائل العلم؛ إذ التمكُّن في العلم يستلزم البصيرة والاهتداء.

يقرر ابن تيمية هذه المسألة قائلاً: «كل عاصٍ فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله؛ لأن تصوُّر المخوف يوجب الهرب منه، وتصوُّرالمحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا، ولم يطلب هذا، دلَّ على أنه لم يتصوَّره تصوراً تاماً»[٣].

وآكد أسباب الاهتداء: الدعاء والافتقار إلى الله - تعالى - فهو أقرب طريق إليه سبحانه؛ فاللجأ إلى الله - تعالى - بأن يسأله الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فالعبد مفتقر إلى أن يسأل الله الهداية، وبالسؤال والافتقار يهديه الله ويوفقه كما قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

وأنفع الدعاء وآكده دعاء الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ ولذا شُرِع أن نقوله في الصلاة سبع عشرة مرة في كل يوم (بأقل الأحوال).

«فلما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هداية التوفيق في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمورٌ هُدِي إلى أصلها

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٠/ ٢١٢.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٤٦، والإيمان لابن تيمية ص٢٢، ومفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/ ٣١٥ - ٣٣٤.
(٣) الإيمان، ص١٩.

دون تفصيلها، أو هُدِي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها[1]».

وقد يجد الشخص في نفسه تثاقلاً عن الدعاء وتباطؤاً عن المناجاة، وسبيل الخلاص من ذلك أن يحاسب نفسه، ويتفقد زلاَّته وعثراته، فهو طريق إلى الانكسار ودوام الافتقار.

قال ابن القيم: (زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها؛ فبمحاسبة النفس يطَّلع على عيوبها ونقائصها، فيمكن السعي في إصلاحها)[2].

وقال أيضاً: (وأضرُّ ما على المكلَّف: الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور؛ يغمض عينه عن العواقب، ويمشِّي الحال)[3].

والناظر في أخبار المنتكسين يلحظ أن من أسباب ذلك هو الاعتداد بنفوسهم، والعُجْب بقدراتهم ومواهبهم، والغرور بطاقاتهم. فقد أُوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأُعطُوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنه سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. فالاعتماد والركون إلى غير الله لا يخلِّف إلا الحرمان والخذلان.

ولابن تيمية تحرير بديع الشأن؛ حيث قال: (قد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدِّهم نظراً ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظراً،

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/ ٣٢٠، وانظر: جامع الرسائل: ١/ ٩٩، وشفاء العليل لابن القيم، ص١٧٥

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٥١٠.

(٣) إغاثة اللهفان: ١/ ١٣٦.

ويهديه الله لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به؛ فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته، خُذِل)[1].

ومن الموجع أن جملة من الثقافات المستجدَّة تقوم على تطبيع القدرات البشرية وتهويلها، وترسيخ الطاقات والاعتماد عليها والثقة بها.

ثم إن من أسباب الانتكاس والضلال: أن في النفوس أهواءً وشهواتٍ تأبى لزوم السُّنة والشرع، وتستروح الروغان والانفلات، فتُؤثِر هذه النفوس الجامحة المحدَثَ والجديدَ، بل تنشط وتندفع في المحدَثات والضلالات ما لم يكن قبل ذلك، ولكن كما قال ابن مسعود: (اقتصاد في سُنة خير من اجتهاد في بدعة).

ولما سئل سفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء يحبون أهوائهم محبة شديدة؟ قال أنسيت قوله - تعالى -: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]؟

فالتسليم للشرع يوجب الانقياد والاستجابة للهدى، ومجافاة الهوى. قال - تعالى -: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، وقد أشار ابن عقيل الحنبلي إلى هذه الآفة فقال: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم)[2].

وأخيراً فالانتكاس له مقدمة وبداية، ثم إن له خاتمة ونهاية؛ فمن كان حازماً مع نفسه صادقاً مع ربه فهو من الثابتين المفلحين ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، ومن كان متلوناً مضطرباً فيُخشى عليه من غوائل الانتكاس؛ فالنفوس ضعيفة، والبلاء شديد، والشيطان له مكائد وخطوات؛ فنسأل الله الثبات.

---

(١) الدرء: ٩/ ٣٤.

(٢) تلبيس إبليس، ص٤٥٥.

متصوفة اليوم بين الصحو والمحو(*)

لا جَرَمَ أن متصوفة هذا الزمان في حراك مستمر، وكدح متلاحق في سبيل إحياء التصوف، وبعث رميمه، وترميم متآكله، وإحياء «الغِناء» وإيقاظ «السُّكْر» و «الاصطلام» وأشباهه[1]!

فمؤتمرات القوم تتوالى، وندواتهم تترى، وتعاهد التصوف ورعايته تجاوز «الزوايا» إلى إشاعة التصوف عبر قنواتهم الفضائية، ومواقعهم الإلكترونية، فضلاً عن الإذاعات والمجلات. وسماع الصوفية اعتراه التحويل والتطوير فلم يعد قاصراً على الدفِّ والشبابة، بل أُقحمت آلات العزف وسائر أدوات الطرب في هذا الزمان، واتسع خرق هذا السماع المحدَث والفاجر واستطار ضرره وتفاقم شرّه.

(×) الصحو والمحو من مصطلحات الصوفية، فالصحوة عندهم هو الرجوع إلى الإحساس بعد الغيبة والسُّكْر، والمحو غيبة العقل وذهوله! (ينظر: معجم الصوفية، لممدوح الزوبي، ص ٢٤٢،٣٧٢). والمقصود به ها هنا: صحوة التصوف من الرقاد والزوايا، وما يتبعه من محو وانطماس بعون الله - تعالى - وتوفيقه، فالعاقبة للتقوى.

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب: التصوف بين التمكين والمواجهة، لمحمد بن عبد الله المقدي.

وعمد المتصوفة في السنين الأخيرة إلى إنشاء الجامعات والمراكز البحثية والمجلات المحكَّمة التي تهدف إلى إحيـاء ما اندرس من هذا التصوف البائد، وسعوا إلى تكوين محاضن تربوية في سبيل تنشئة الأجيال على الرهبانية المبتدعة والروحانية الشوهاء.

ويلحظ في هذا النشاط المريب مظاهر صارخة من العمالة المكشوفة للغرب، والتواطؤ مع الأنظمة العَلْمانية والتعاون على الإثم والعدوان (محاربة المدّ السلفي)، إضافة إلى ضروب من الزندقة الصلعاء والكفر البواح، كما في إحداثهم الحج إلى أضرحةٍ ومشاهد، والمجاهرة بذلك، ومضاهاة شعيرة الحجّ إلى بيت الله الحرام، والدعوة إلى الإبراهيمية (وحدة الأديان)، والتعبُّد بالرقص والفجور كما في الموالد والذكريات.

فصوفية «الأرزاق»[(١)] لهم علاقات حميمة مع أمريكا، ومن ذلك: اللقاءات المتكررة لشيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر مع السفير الأمريكي (دوني)، بل عرض السفيرُ فكرةَ دخول المتصوفة إلى الانتخابات بوصفهم تياراً دينياً «معتدلاً»[(٢)]! كما أن السفير المذكور حريص على حضور مولد البدوي في طنطا كل عام[(٣)].

(١) صوفية الأرزاق هم الذين يقتاتون من الأوقاف، والأسوأ من ذلك الذين يقتاتون من سفارات الغرب والأنظمة المستبدة، وقد حكى محمد رشيد رضا - رحمه الله - أن أحد النقشبندية سئل عن سبب اختلاف أصحاب هذه الطرائق في عمائمهم وأورادهم مع دعواهم أن الغرض من سلوك كل طريقة منها معرفة الله - تعالى - وعبادته، قال: (تغيير شكل لأجل الأكل)! (فتاوى محمد رشيد رضا: ٦/ ٢٤١٨).
وقد نقل الإعلام صورة مخزية من تكالب مشايخ الطرق على عضوية المجلس الأعلى للطرق الصوفية في مصر، وما وقع بينهم من تهارش ونزاع حاد آل إلى الطعن في تلك الانتخابات! ينظر: موقع إسلام أون لاين ٤/ ١/ ٢٠٠٨م. كما وقع صراع على مشيخة الطريقة القادرية في الجزائر، ينظر: موقع إسلام أون لاين ١٤/ أبريل/ ٢٠٠٨م.

(٢) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن جريدة اللواء ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٧م. ومجلة الصوفية، العدد الثامن، عن مجلة آخر ساعة ٢٣/ إبريل/ ٢٠٠٨م.

(٣) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن صحيفة دار الحياة ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

وفي مؤتمر تحت رعاية الطرق الصوفية في مصر طالبوا بجَعْل التصوف مقرراً دراسياً في التعليم العام، وإفساح المجال للمنهج الصوفي لعلاج «التطرف»[1]! وأقامتْ مؤسسة (داود الحمراء) في فلسطين ندوة عن الإنسانية والإبراهيمية تحت رعاية يهودية نصرانية ثم صوفية؛ إذ جمعتْ بين الحاخام والقسيس وشيخ الطريقة الخلوتية[2]! وطالب أحدهم الحكومة الجزائرية بإنشاء تجمُّع للطرق الصوفية لمحاصرة المدّ السلفي في الجزائر، خاصة أن الرئيس الجزائري بذل جهوده من أجل نفض الغبار عن الصوفية؛ على حدّ تعبير شيخ الطريقة[3]!

وعلَّل بعض الكُتَّاب سرَّ إحياء التصوف في المغرب بأنه إرادة الحكومة من أجل مواجهة التطرف[4].

ولم يقتصر المتصوفة على التمسُّح بأعتاب الأولياء والمجاذيب، بل ضمُّوا إلى ذلك التمسُّح بالغرب والركون إليه، كما أنهم تجاوزوا عبادة الشيوخ والغلو في المعتوهين، إلى التذلل والانطراح للأنظمة والحكومات. هذا الصحو والاستيقاظ عند المتصوفة لا ينفك عن تهافت وإفلاس؛ حيث يكشف عوار هؤلاء الطرقية وتعثُّرهم؛ إذ ركنوا إلى الكفار والأنظمة المستبدة، فوالوا أعداء الله تعالى، ولاذوا بهم، ولا يعقب ذلك إلا الصغار والخذلان.

قال - تعالى -: ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء: ٢٢].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «من أحبَّ في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله؛ فإنما تُنال وَلاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم

(١) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن موقع: إسلام أون لاين ٦/ ١/ ٢٠٠٨م.
(٢) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع.
(٣) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن موقع: إسلام أون لاين ٢/ ١٢/ ٢٠٠٧م.
(٤) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد الثامن، عن صحيفة هسبريس المغربية ٢٧/ مارس/ ٢٠٠٨م.

الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[1].

فكيف إذا كانت الصِّلات مع أعداء الله - تعالى - لأجل محاربة السنَّة وأهلها؟!

قال ابن تيمية: (والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً، وإن كانوا فعلوه بتراضيهم، قال طاووس: ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرّقا عن تَقَالٍ «بغضاء»..)[2].

وقال أيضاً: (وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين (زنكي) وصلاح الدين، ثم العادل، كيف مكّنهم الله وأيّدهم، وفتح لهم البلاد، وأذلَّ لهم الأعداء، لما قاموا من ذلك بما قاموا به، وليعتبر بسيرة من والى النصارى كيف أذلَّه الله - تعالى - وكبته)[3].

والمقصود أن التوكل على غير الله تعالى، والركون إلى أعداء الله - تعالى - لا يخلِّف إلا الفشل والاندحار؛ فما لم يكن بالله لا يكون، وما لم يكن لن ينفع ولا يدوم، والله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين.

وأحدث زنادقة المتصوفة الحج إلى ضريح أحمدو بامبا في السنغال، ويسمّون تلك البلدة «مكة الإفريقية»، ويقال: إن عدد الحجاج خلال العام المنصرم بلغ مليون حاج[4]!

كما أحدثوا الحج إلى كازاخستان، وسمّوه الحج الأصغر! وأطلقوا عليه: مكة الثانية، وعللوا الحج إلى تركستان لأجل مشقة الحج إلى مكة وكثرة النفقة[5]!

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣).
(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/ ١٢٨.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٤٣.
(٤) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن وكالة الأخبار الموريتانية، ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٧م.
(٥) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع.

هذه الزندقة البشعة امتداد لزندقة الحلّاج، إذ زعم أن من فاته الحج فإنه يبني في داره بيتاً ويطوف به كما يطوف ببيت الله الحرام، ويتصدَّق على ثلاثين يتيماً.. وقد أجزأه ذلك عن الحج، فاتفق العلماء على وجوب قتله، فقُتل بسيف الشرع سنة بضع وثلاثمائة من الهجرة[1].

كما أنها زندقة تضاهي زندقة الروافض في الحج إلى قبر الحسين، وتفضيل كربلاء على الكعبة، وأن زيارة كربلاء يوم عرفة أفضل من سائر الأيام[2].

إن المكر الكُبَّار من أجل حيلولة الأمة عن بيت الله الحرام، والسعي إلى تفريق اجتماعها، وصرف القلوب عن مهوى أفئدة المسلمين، وأفضل البقاع على الإطلاق:

لا يرجع الطرفُ عنها حين ينظرُها

حتى يعودَ إليها الطرفُ مشتاقا

واتباع الشهوات والاستمتاع بالقاذورات والانفلات من اتِّباع الشرائع؛ هو ضربة لازب لا تفارق موالد الصوفية واحتفالاتهم، فضريح (ابن حمدوش) في المغرب حافل بالدعارة والفواحش والشذوذ[3].. وضريح (أبي حصيرة) في مصر يشهده اليهود ويعمر بالرذائل والفجور[4]، والاحتفاء بالرقص والتعبد بالغناء والتمايل والقفز هو سبيلهم للتعريف بالإسلام في الغرب!

وقال أبو الوفاء ابن عقيل: (نص القرآن على النهي عن الرقص؛ فقال - عز وجل -: ﴿**وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا**﴾ [الإسراء: ٣٧]، وذمَّ المختال؛ فقال - تعالى -: ﴿**إِنَّ**

---

(١) انظر: جامع الرسائل، لابن تيمية: ١/ ١٨٩، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢/ ٤٨٠ - ٤٨٧، ٣٥/ ١٠٨ - ١١٩.

(٢) انظر: أصول الشيعة الإثني عشرية، لناصر القفاري: ٢/ ٤٥٣-٤٧٧.

(٣) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن موقع: إسلام أون لاين ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٧م.

(٤) مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السابع، عن المصري اليوم ٧/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

﴿اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، والرقص أشد المرح والبطر.. وهل شيء يزري بالعقل والوقار ويخرج عن سمت الحلم والأدب أقبح من ذي لحية يرقص، فكيف إذا كانت شيبة ترقص وتصفِّق على وقاع الألحان والقضبان؛ خصوصاً إذا كانت أصوات نسوان ومردان؟! وهل يحسن بمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط ثم هو إلى إحدى الدارين صائر أن يشمس[١] بالرقص كشمس البهائم ويصفق تصفيق النسوة؟!)[٢].

إن هذا الصحو العارض للمتصوفة سيعقبه - بإذن الله تعالى - محو واندراس، فإن الله - تعالى - إذا أراد قطع بدعة أظهرها[٣].

ومن أسباب ظهور الحق ظهور المعارضين له[٤]. وإن تربية الأمة على توحيد الله تعالى، والاعتصام بنصوص الوحيين، وتعظيم الشريعة واتِّباعها، وتحرير العقول من رقِّ الخرافة واستعباد شيوخ الطرقية، وهتك أستار التصوف، وكشف حمقه وسفهه، وبيان حكم الله - تعالى- في زنادقة المتصوفة.. كل ذلك ونحوه سبيل لمحوه وانقشاعه.

قال القاسم بن أحمد (ت ١٢١٧هـ):

فدع التصوفَ واثقاً بحقيقة
واحرصْ ولا يغررك لمعُ سرابهِ

---

(١) شَمَس: جَمَح ونفر.

(٢) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ٢٨٩.

(٣) قال سحنون - رحمه الله -: (أما علمت أن الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها)، ترتيب المدارك، لعياض: ٢/ ٦١١.

(٤) قال ابن تيمية: (من أسباب ظهور الإيمان: ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك)، الجواب الصحيح: ١/ ١٣.

للقوم تعبيرٌ به تسبى النُّهَى
طرباً وتثني الصّب عن أحبابهِ
فيرون حق الغير غيرَ محرم
بل يزعمون بأنهم أَوْلى بهِ
لبسوا المدارِعَ واستراحوا جرأة
عن أمر باريهم وعن إيجابهِ
خرجوا عن الإسلام ثم تمسكوا
بتصوف فتستَّروا بحجابهِ
فأولئك القوم الذين جهادُهم
فرضٌ فلا يعدوك نيل ثوابهِ[(١)]

(١) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد، للشوكاني، ص ٧٠ - ٧١.

هل التصوف سائغ محمود مقبول؟

كثيراً ما يقع الخلاف بسبب ألفاظ مشتركة، ومصطلحات مجملة تطلق على معان متعددة، ومن ذلك «التصوف» فهو لفظ مجمل، وحمّال وجوه؛ فقد يطلق على معان صحيحة: كالزهد، والورع، وصفاء السريرة، وقد يراد به أوراد بدعية وعبادات محدثة، كما يراد به الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، مما هو من مقالات أهل الزندقة والإلحاد.

ولما كان أهل السنة والجماعة يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فقد بيّنوا ما في هذا التصوف من إجمال يحتاج إلى تفصيل، وتحدّثوا بعلم وعدل عن مفهومه وإطلاقاته.

يقول ابن تيمية: «لفظ التصوف قد أُدخل فيه أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها، وإن سميت تصوفاً؛ لأن الكتاب والسنة إذا دلّ على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمى باسم آخر»، وقد أُدخل فيها أمور يكرهها الله ورسوله، كما يُدخِل فيه بعضهم نوعاً من الحلول والاتحاد، وآخرون نوعاً من الرهبانية المبتدعة في الإسلام.

والمؤمن الكيّس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة أو عصوا فيه الله ورسوله»[١].

وقال الشاطبي: «وأما الكلام في دقائق التصوف، فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو مما صحّ بالدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم.

ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولاً، حتى يقع الحكم على أمر مفهوم؛ لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين».

ثم ساق الشاطبي - رحمه الله - المعاني الصحيحة والفاسدة في التصوف[٢].

وإذا أردنا أن نحدد نوعية التصوف الحاضر الآن فلا بد أن نتعرّف على واقع طرق التصوف وأحوالها وأدبيّاتها، وأن نستبين مقالات أرباب التصوف المعاصرين؛ وبذلك نحدد نوعية التصوف السائد في كثير من الأمصار.

فلا يقتصر على إجابة مجملة وعائمة، لا تعالج واقعاً حاضراً، ولا تشفي عليلاً، بل ربما كانت تنصلاً عن تشخيص الواقع والحكم عليه.

وهذا ما ارتكبه بعض فضلاء هذا العصر؛ حيث قرروا «الصوفية الحقة» التي كان عليها الجنيد و الفضيل - رحمهما الله تعالى - ونحوهما؛ فأوقعوا بذلك التقرير لبساً وشكاً في انحراف الصوفية المعاصرة، وتهويناً لحالهم، واسترواحاً لبعض ممارساتهم في التزكية وأحوال القلوب.

مع أن زنادقة الصوفية القدامى مناقضون لمسلك الفضيل والجنيد، فضلاً عن متأخريهم ومعاصريهم؛ فابن عربي الطائي قد أنكر على الجنيد تقريره التوحيد؛

(١) الفتاوى، ١١/ ٢٨، ٢٩ = باختصار وتصرف.
(٢) انظر: الاعتصام، ١/ ٢٦٥ ٢٦٩.

فكان الجنيد - رحمه الله - داعيةً إلى توحيد العبادة، وأما ابن عربي فناعق بوحدة الوجود»[1].

فصوفية الجنيد والفضيل في ذاكرة التاريخ وبطون الكتب، فليس لها حضور أو ظهور عند الصوفية المعاصرة.

وأما التعويل على كلام شيخ الإسلام وما فيه من تقرير للتصوف الصحيح، فهذا ينطبق على العبّاد الأوائل من أمثال المذكورين - الجنيد والفضيل - ونحوهما.

وأما صوفية عصره، فقد حكى حالهم من خلال واقعهم وصنيعهم، فلم يكتف بمجرد التنظير، أو التقسيم لتصوف صحيح وفاسد، بل كشف شيخ الإسلام ابن تيمية عن مخالفة أولئك الصوفية لأصول ثلاثة كبار: (التوحيد، والاتباع، والجهاد) فقد تلبّسوا بالشرك الخفي والجلي، وأحدثوا بدعاً متعددة، «وأما الجهاد في سبيل الله، فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم»[2].

ويقول - رحمه الله -: «وهؤلاء يدّعون محبة الله في الابتداء، ويعظمون أمر محبته، ويستحبون السماع بالغناء والدفوف، ويرونه قربة؛ لأن ذلك بزعمهم يحرّك محبة الله في قلوبهم، وإذا حُقق أمرهم وجدتَ محبتهم تشبه محبة المشركين لا محبة الموحدين؛ فإن محبة الموحدين بمتابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله.

وهؤلاء لا يحققون متابعة الرسول، ولا الجهاد في سبيل الله، بل كثير منهم وأكثرهم يكرهون متابعة الرسول، وهم من أبعد الناس عن الجهاد في سبيل الله، بل يعاونون أعداءه، ويدّعون محبته»[3].

(١) انظر: بسط ذلك في الاستقامة، لابن تيمية، ١/ ٩٢، ٩٣، ومجموع الفتاوى، ١٠/ ٤٩٧، ومنهاج السنة، ٥/ ٤٠.
(٢) الاستقامة، ١/ ٢٦٨.
(٣) منهاج السنة النبوية، ٥/ ٣٢٨، ٣٢٩ = باختصار.

إن ترك الجهاد في سبيل الله هو النتاج الطبيعي لمذهب يقول بالجبر وتعطيل الشرائع، كما أن إلغاء الجهاد عندهم هو محصلة ما يقررونه في السلوك من تربية المريدين على الاستعباد وعدم الاعتراض على الأشياخ.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: «إن الدّجالين من رجال الطرق الصوفية كانوا يربون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة، فإذا رأوا أنفة في مسلك أحدهم، أو دلائل عزة وترفع، جعلوا عليه مهمة حمل أحذية الجماعة، والمحافظة عليها، حتى تنكسر نفسه، وينخفض رأسه؛ وبذلك يكون مرشحاً لعبادة الله كما يجب.

ولم يَدْر المغفلون أنهم يرشحونه أيضاً ليكون عبداً للناس جميعاً، وأن مثل هذا الكائن الممسوخ هو أمل المستعمرين الذين يقيمون وجودهم على إذلال الأمم، وقتل الشعور بالكرامة في نفوس بنيها»(١).

وأما كون بعض الحركات الجهادية لا تخلو من تصوف كالحركة السنوسية، فهذه الحركات إنما تُحمد بقدر اتباعها لنصوص الوحيين، وجهاد تلك الحركات باعثه تحقيق التوحيد واتباع سنة نبينا محمد ﷺ، فما كان التصوف باعثاً للجهاد.

فالسنوسية مثلاً تؤكد على تصحيح العقيدة وفق منهج أهل السنة، وكان أتباعها يتدارسون مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، بل إن السنوسي انتقد ممارسات الصوفية في عصره.. كما هو مبسوط في موضعه»(٢).

إن الطرق الصوفية المعاصرة إجمالاً تترنح بين ابتداع ما لم يشرعه الله، وبين شرك ما أنزل الله به من سلطان، وهم في ذلك ما بين مستقلّ ومستكثر؛ ومن ذلك

(١) تأملات في الدين والحياة، ص ١٧٣.
(٢) انظر: الحركة السنوسية في ليبيا، للدكتور علي الصلابي، ١/ ١٤٧ - ١٧٤.

أن واحداً من المتصوفة المعاصرين والجاثمين على أكثر من قناة فضائية، يظهر للعامة والدهماء بصورة الواعظ المشفق، وربما بكى أو تباكى، وقد يدعو مخالفين إلى نقاش هادئ من خلال الكتاب والسنة.

وإذا خلا مع خاصته، تحدّث بلغة «الحقيقة» و«الباطن» فقلب ظهر وظاهر المجن، واستبدل بالنقاش الهادئ إقذاعاً في سبّ مخالفيه (أهل السنة) ووصفهم بالبلادة والجهل وانطماس البصيرة، وتجلى كشفه عن فجور في الخصومة مع جهل كثيف بأحاديث المصطفى ﷺ، فقد يحتج بأحاديث لا تثبت، وقد يردّ الأحاديث الصحيحة، مع تعويل على غرائب حكايات منكرة لا خطام لها ولا زمام.

ثم مع هذا كله فهو داعية إلى الوثنية؛ فقد جوّز دعاء الأموات، وزعم أن من استغاث بعبد القادر الجيلاني فإن عبد القادر يأتي إليه بروحه، أو بروحه وجسده.

ثم تراه ساخراً ومتهكماً بتوحيد العبادة واصفاً إياه بالتوحيد الإبليسي؛ فعلى دعاة الإسلام أن يحذِّروا من أفراخ عمرو بن لحي، وأن يكشفوا عن تلوّنهم وتقلّب آرائهم بين المجلات والقنوات، وبين الزاويا والخلوات، فهذا هو العدل الذي يستحقونه، فالعدل هو أن توضع الأمور في مواضعها، والنقاط على حروفها.

ولعل قارئاً يقول: إن كان التصوف المعاصر ينقض أصلَي الإسلام: عبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، واتباع سنة المصطفى ﷺ، فما سِر انتشاره؟ فلا شك أن غلبة الجهل بدين الله - تعالى - من أبرز أسباب ذاك الانتشار؛ ولذا فإن أعظم أسباب وأد التصوف بذل الجهود، وتقديم البرامج في تقرير إفراد الله - تعالى - بالعبادة، وإظهار سنة سيد المرسلين ﷺ.

كما أن النفوس المتفلتة من الشرع المنزّل، والمسترسلة مع أهوائها وملذاتها، تجد في التصوف بغيتها، وتلوذ بأقوام يتدينون بالغناء والرقص وصحبة المردان ويجعلون ذلك قربة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولقد حدّثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس لقي شيخاً (أي المتصوفة) وقد جمع الناس على اجتماع (وأحضر فيه من الصور الجميلة والأصوات المطربة ما أحضر)، فقال له: يا شيخ! إن كان هذا هو طريق الجنة؛ فأين طريق النار؟»[1].

وقال ابن القيم: «وحكى لي شخص آخر أن مغنياً عزم على التوبة، فقيل له: عليك بصحبة الفقراء (أي الصوفية) فإنهم يعملون على حصول الأجر، والزهد في الدنيا، فصحبهم، فصاروا يستعملونه في السماع، ولا تكاد التوبة تنتهي إليه، لتزاحمهم عليه فترك صحبتهم، وقال: أنا كنت عمري تائباً ولا أدري»[2].

وانظر ما يسمى بـ (طبقات الأولياء) للشعراني، وما سوّده من كرامات السيد وحيش الذي كان يقارف الفواحش والقاذورات.. ومع الحمير!! وما قام به ولي آخر من خطبة الجمعة وهو عريان؛ أفليس هؤلاء أولياء الشيطان؟

وانظر ما كتبه الجبرتي عما يحصل في مولد العفيفي (ت ١١٧٢هـ) من أنواع الخنا والفجور[3].

ويصف الشيخ عبد الرحمن الوكيل - رحمه الله - موالد الصوفية قائلاً: «وسل الأمين تلك الموالد عن عربدة الشيطان في باحاتها، وعن الإثم المهتوك في حاناتها، وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها؛ فما ينقضي في مصر أسبوع إلا وتحشد الصوفية أساطير شركها، وعبّاد أوثانها عند مقبرة يسبِّحون بحمد جيفتها، ويقترفون خطايا المجوسية في حمأتها، ويحتسون آثام الخمر و «الحشيش» والأجساد التي طرحها الليل على الإثم فجوراً ومعصية»[4].

(١) الاستقامة، ١/ ٣١٧ = بتصرف يسير، وانظر: السماع، لابن القيم، ص ٣٤٢.
(٢) السماع، لابن القيم، ص ٣٤٢.
(٣) تاريخ الجبرتي، ١/ ٣٠٤.
(٤) هذه هي الصوفية، ص ١٦٠، ١٦١ = باختصار.

إن التصوف الآن أفيون لمتعاطيه؛ فالتصوف غارق في مصطلحات الغناء والسكر والاصطلاح ونحو ذلك مما يحصل به غيبة العقل وزواله، وأرباب التصوف سادرون في الصعق والوجد و «العشق الإلهي»!

ومن أسباب انتشار التصوف ما يتحلى به المتصوفة من خيانة وعمالة للمستعمر، ومسارعة في الخنوع والانبطاح للأنظمة والحكومات.

ومن ذلك أن (ليون روش) الفرنسي قام برحلة إلى مصر سنة ١٨٤٢م متنكراً في زي حاج مسلم، من أجل الحصول على موافقة من العلماء على نص فتوى جاء بها من الجزائر تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، ومن ثم ضرورة الرضا بحكم الفرنسيين في الجزائر، وعدم شرعية المقاومة التي يقودها الأمير عبد القادر الجزائري، وقد شارك (روش) في هذه الرحلة وصياغة مجموعة من شيوخ الصوفية[١].

لذا لا غرابة أن يختار الغربُ التصوف سلاحاً في سبيل مواجهة المدّ السني السلفي.

وإن تفريط أهل السنة وتقصيرهم من أسباب انتشار التصوف، فقد فرّط بعض أهل السنة في تقرير وتحقيق أعمال القلوب، وما يتعلق بمسائل السلوك، وتزكية النفوس، والرقائق مع جلالة هذه الموضوعات، ومسيس الحاجة إلى الاشتغال.

وكذا تفريط بعض إخواننا في دعوة المتصوفة، ومناظرتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن، والردّ على انحرافاتهم بعلم وعدل. فنسأل الله - تعالى - أن يهدي ضال المسلمين، وأن يثبت مطيعهم وبالله التوفيق.

---

(١) انظر: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية (من إصدار دارة الملك عبد العزيز بالرياض، ١/ ٢٤٩، وتاريخ الجزيرة، لمسعود الجزائري، ص ٢٨٤).

تشيُّع لا «قادرَ» له!

استفحل في آخر القرن الرابع الهجري التشيُّع، فانتشرت دعوة العُبَيْدِيين المنافقين انتشارَ النار في الهشيم، ونشط دُعاتهم في «تصدير» المذهب الباطني، واستجاب أمراء وأقوام لهذه الزندقة، وآلَ الواقع المهين إلى أن يَخْطب بعضُ الأمراء للحاكم العبيدي، ويُظهروا الطاعة له، بل أفضى الأمر إلى الخطبة لهذا الزنديق في الحرمين سنة ٣٩٦ هـ، وأُمِرَ الناس بالقيام عند ذكره.

قال الحافظ الذهبي معلِّقاً على تلك الحادثة: «فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلقد كان هؤلاء العبيديون شرّاً على الإسلام وأهله من الشر»[١].

وفي حمأة هذه الأحوال المتردية قام أهل الإسلام بمدافعة هذا النفاق، والتصدي لذلك الضلال، فصنَّف القاضي أبو بكر الباقلاني كتاباً في الردِّ على الباطنية، سمَّاه «كشف الأسرار وهتك الأستار»، بيَّن فيه قباحتهم، ووضح أمرهم لكل أحد، وكان

(١) تاريخ الإسلام: ٢٧/ ٢٣٤.

يقول فيهم: «هم قوم يظهرون الرفض، ويبطنون الكفر المحض»[1]. ولما راسل الحاكم العبيدي بعض الأمراء داعياً إلى مذهبه؛ كتب أحدهم على ظهر كتابه إليه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾ إلى آخر السورة [الكافرون][2].

وسخر آخر من دعوة الحاكم العبيدي قائلاً: إني لا أذكرك إلا على المستراح (المرحاض)[3].

وجاهد السلطان محمود سبكتكين - رحمه الله - أولئك الشيعةَ الغلاةَ، فأبلى بلاءً حسناً، ومن ذلك: ما سطره عبد القاهر البغدادي قائلاً: «وكان أهل مولتان من أرض الهند داخلين في دعوة الباطنية، فقصدهم محمود - رحمه الله - في عسكره، وقتل منهم الألوف، وقطع أيدي ألف منهم، وباد بذلك نُصَراء الباطنية من تلك الناحية، ومن هذا بَانَ شؤم الباطنية على منتحليها، فليعتبر بذلك المعتبرون»[4].

ومع الاحتفاء بتلك الجهود السالفة؛ إلا أن للخليفة العباسي القادر بالله - رحمه الله - النصيب الأكبر في هذا الجهاد؛ إذ تعددتْ سُبُل مدافعته لهذا الوباء، واستوعبت آكد سبل المواجهة والاحتساب، فمن ذلك أنه استتاب من خرج من السنة من الرافضة ونحوهم[5].

ولما أحضرت الشيعة سنة ٣٩٨ هـ مصحفاً يدَّعون أنه مصحف عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وهو يخالف المصاحف كلها، جمع القادرُ الأشرافَ والقضاة والفقهاء، وعرض المصحف عليهم، فأشار أبو حامد الأسفراييني بتحريقه، ففعل ذلك بمحضر

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير: ١١/ ٣٤٦.
(٢) انظر: الفرق بين الفرق، ص ٢٩٢.
(٣) المرجع السابق.
(٤) الفرق بين الفرق، ص ٢٩٣.
(٥) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم: ٤/ ١٢٨٦.

منهم، فغضب الشيعة، وأوقعوا شغباً وفتنة، فغضب القادر، وأرسل أعوانه لنصرة أهل السنة، وعوقب من كانت له يد في الفتنة، فهدأت البلاد، واستقرت الأحوال(١).

ومن أجل إخماد دجل الإعلام الشيعي آنذاك؛ عزل الخليفة القادر خطباء الشيعة، واستبدل بهم خطباء من أهل السنة(٢).

وفي سنة ٤٠٢ هـ اتخذ الخليفة القادر بالله محضراً يتضمن الطعن في أنساب العبيديين فليسوا «فاطميين»! بل هم أدعياء، فلا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولا يتعلقون منه بسبب، وأنهم زنادقة كفار، يسفكون الدماء، ويستحلون الخمور، ويستبيحون الفروج والأموال(٣).

لقد كشف هذا المحضر حقيقة العبيديين نسباً وديناً، حتى اضطُر الحاكم العبيدي في سنة ٤٠٣ هـ - وهي السنة التي كان فيها كتابة المحضر - إلى إظهار منع الناس من سبِّ الصحابة؛ رضي الله عنهم(٤).

وعمد الخليفة القادر إلى إظهار معتقد السلف الصالح، فصنَّف «الاعتقاد القادري» المعروف سنة ٤٢٠هـ، وأقرَّه العلماء، وذلك من أجل إظهار الإسلام والسنة، وقرئ هذا الاعتقاد في الجوامع، وحمله الحجيج إلى أطراف الأرض(٥)، ففي الاعتقاد القادري تثبيت وتأكيد لعقائد السلف، كما يتضمن ما ينقض مذهب الباطنية الملاحدة، والروافض وسائر أهل البدع(٦).

---

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ١٥/ ٥٩.
(٢) انظر: البداية لابن كثير: ١٢/ ٢٦.
(٣) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ١٥/ ٨٢، والبداية لابن كثير: ١١/ ٣٤٥.
(٤) انظر: النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٣٦.
(٥) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ١٦/ ١٠٦، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٢١.
(٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي: ٢٨/ ٢٦٨.

وها هو الكيد الباطني الشيعي يعود مرة أخرى، ويسعى حثيثاً إلى تصدير الثورة الإيرانية إلى مختلف الأصقاع، وَفْق محاور عسكرية وعلمية واجتماعية وإعلامية... وجاهر رافضة اليوم - وبكل نزق وحمق - بضلالهم، فأظهروا سبَّ الصحابة رضي الله عنهم، ودعوا إلى الشرك الصراح، ونقض توحيد العبادة، وسائر عقائدهم المتهافتة. ومع أن مذهب الرافضة عاهات مستديمة، وتناقضات مكشوفة، وحماقات مكرورة، وكذبات صلعاء... إلا أن بعض متسنِّنة هذا الزمان عاكفون على نبش دعوة التقريب بين السنة والبدعة! وإحياء رميمها، والتعامي عن التجارب المتعثرة، والوقائع الظاهرة، والبراهين الساطعة التي تنقض هذه الدعوة الكاسدة؛ ومن المتسننة عشَّاق الملاينة والمداهنة مع الروافض، والسادرون في لجج إقامة جسور المواطنة والإنسانية مع هؤلاء المتلونين!

وأولئك «الرَّخَم»[1] الروافض لا يقرون بتلك الروابط والجسور الموهومة، وإنما يقرون بأنهم خُلقوا من طينة خاصة تغاير الطينة التي خُلق منها السني..[2]، كما أنهم يطعنون في خلافة النبوة للصدّيق وعمر الفاروق وعثمان رضي الله عنهم؛ فلا يعترفون بشرعية خلافة الثلاثة، فضلاً عمن جاء بعدهم - كما هو مبسوط في مصنفاتهم - أَفيُظَنُّ بعد هذا أن يسلموا لحكومات وطنية أو ملكية؟!

---

(١) قال الشعبي - رحمه الله -: ما رأيت أحمق من الخشبية (الرافضة) لو كانوا من البهائم لكانوا حُمُراً، ولو كانوا من الطير لكانوا رَخَماً، انظر: منهاج السنة: ١/ ٢٢ - ٢٨. والرخم: نوع من الطير يوصف بالغدر والقذر، وهو من لئام البط.

(٢) واستكمالاً لهذا الدجل والنزق فإن القوم يزعمون أنه جرى مزج بين الطينتين، فما في الشيعي من معاص هو من تأثره بطينة السني، وما في السني من صلاح هو بسبب تأثره بطينة الشيعي، فإذا كان يوم القيامة فإن سيئات الشيعي توضع على أهل السنة، وحسنات أهل السنة تعطى للشيعي! انظر: أصول الشيعة الإثني عشرية للقفاري: ٢/ ٩٥٥-٩٦٢.

إن المتعيّن أن يكون محور اهتمامنا هو اتخاذ خطط علمية وبرامج قوية في سبيل مواجهة هذا المد الرافضي الزاحف، مثل: ترسيخ عقائد السلف الصالح؛ لا سيما في توحيد العبادة، وحقوق الصحابة رضي الله عنهم، ووجوب الاتِّباع، والتحذير من الابتداع، وكذا نشر العلم الشرعي، وإظهار السنن، فما كان لهذا المذهب المهترئ أن يبرز إلا بسبب ضعف العلم الشرعي وغلبة الجهل. وقد حذَّر أسلاف الرافضة من أهل العلم والبصائر! فقالوا: لا تتكلم بمكان فيه سراج يزهر!

كما يتعيّن كشف هذا المذهب الخبيث، وإظهار فضائحه وإبطال أصوله عبر قنوات فضائية ومجلات وإذاعات، وأن يعنى بهتك تلوّن وتناقض الرافضة في عقائدهم، ومواقفهم السياسية والعملية... وعلى أهل السنة أن يبادروا إلى إعداد برامج دعوية تعليمية إعلامية تستهدف أهل إيران في عقر دارهم؛ سواء كانوا سنة أم رافضة.

قال ابن تيمية: «الرافضة لا يُتصور قط أن مذهبهم يَرُوج على أهل مدينة كبيرة من مدائن المسلمين فيها أهل علم ودين، وإنما يَرُوج على جهّال سكنوا البوادي والجبال، أو على محلة في مدينة، أو بُلَيْدة؛ حتى إن القاهرة لما كانت مع العبيديين، وكانوا يظهرون التشيع لم يتمكنوا من ذلك حتى منعوا من فيها من أهل العلم والدين من إظهار علمهم، ومع هذا كانوا خائفين من سائر مدائن المسلمين، ويقدم عليهم الغريب من البلدان البعيدة فيكتمون عنه قولهم، ويداهنونه ويتقونه، كما يُخاف الملك المطاع، وهذا لأنهم أهل فِرْية وكذب.

وقد قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال أبو قلابة: هي لكل مفترٍ من هذه الأمة إلى يوم القيامة»(١).

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية: ٦/ ١٧٩.

ومن المسالك النافعة في هذا الشأن أن تُبرز مواقف الأعلام الذين تركوا الرفض مثل: البرقعي والياسري وإسماعيل الخوئيني والكسروي وأحمد الكاتب، وكذا علماء الشيعة الذين انتقدوا المذهب الرافضي ودعوا إلى إصلاحه وتصحيحه كالخالصي وموسى الموسوي ونحوهما[١].

ومن الخطوات النافعة تأهيل جملة من أهل التخصص - في مذهب الرافضة - والمناظرين للروافض، وإنشاء مؤسسات علمية قوية تقدِّم برامج ودورات علمية وعملية في المناظرات والجدل والحوار، وإبراز مناظرات أهل السنة للروافض قديماً وحديثاً، مثل: مناظرات وردود ابن تيمية في المنهاج، ومناظرة السويدي (ت ١١٧٤هـ) للرافضة في نجف العراق سنة ١١٥٦هـ[٢]، وبيان عجزهم وكشف عوارهم وحَيْدَتهم وتنصُّلهم في هذا المجال. يقول د. ناصر القفاري: «حدثني سماحة الشيخ عبد الله بن حميد أن الرافضة في عهد الملك فيصل آل سعود قد أرسلوا إلى علماء السعودية يطلبون جلسة حوار معهم، فكان من إجابة علماء السعودية أنه لا مانع لدينا من ذلك ولكن لا بدَّ من الاتفاق على أصل يُرجَع إليه عند الخلاف وهو كتاب الله عز وجل، وصحيح السنة، وعلى رأسها صحيح البخاري، وأرسلوا بذلك إليهم، وانتظروا منهم الجواب، ولم يصل لهم جواب»[٣].

ومن المبشرات أن تبرز مواقف المهتدين من تلك الطائفة، والذين أنقذهم الله من زندقة الرفض، فذاقوا برد الإيمان ونور السنَّة.

وأخيراً: فإن دعوى المعتدلين الشيعة لا تعدو أن تكون سراباً يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فتسخيري (العاقل) قلب ظهر المجن - وبكل صَلَف -

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: كتاب أعلام التصحيح والاعتدال، لخالد البديوي.
(٢) انظر: مسألة التقريب للقفاري، ومنهج الجدل والمناظرة لعثمان علي حسن.
(٣) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة: ٢/ ٢٦٧.

تجاه د. يوسف القرضاوي، ومحمد حسين فضل الله (المعتدل) يطعن في صحيحي البخاري ومسلم[1]، وخاتمي (الإصلاحي) يدّعي أن السعودية تضايق حجاج إيران، ويدعو لإلغاء الحج والعمرة[2].

قال الشوكاني: «وقد جربنا وجرّب مَنْ قبلَنا فلم يجدوا رجلاً رافضياً يتنزّه عن محرمات الدين كائناً ما كــان، ولا تغتر بالظواهر..»[3].

---

(١) انظر: حزب الله لأحمد فهمي، ص ٣٧٩.

(٢) انظر: مجلة البيان، عدد ٢٦٠، ص ٨٢.

(٣) طلب العلم ص ٧٣، بواسطة أصول مذهب الشيعة ٣/ ١١٢٨.

هل التمشعر سُنَّة؟

لا نزاع أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والحديث عن المذهب الأشعري بعلم وعدل كافٍ في تحقيق الجواب، وزوال الإشكال، ومن طوامِّ هذا العصر أن يتصدَّر أقوام للخوض في هذه المسألة، فيبعثوا أحكاماً جزافاً وفق ظنون كاذبة أو أهواء جامحة؛ فإطلاق القول بأن الأشاعرة هم أهل السُّنة والجماعة، قد يكون ناشئاً عن قصورٍ بمعرفة السُّنة النبوية وسبيلِ الاعتصام بها، وربما كان باعثه الجهل بحقيقة مذهب الأشاعرة؛ وأسوأ من ذلك كله إن كان جهلاً بسبيل السُّنة والاتباع وسبيل التمشعر والابتداع!

وقد ينفر بعضهم من تلك القضايا، ويبدي امتعاضه وأسفه، ويتعلل بأنّ في ذلك إذكاءً للطائفية المذهبية، وتوهيناً من وحدة المسلمين، واجتراراً للخلافات القديمة!

وما عَلِمَ هؤلاء المتدثرون بوحدة المسلمين أن الاجتماع الصحيح لا يتحقق بقلب الحقائق ومجانبة الصراط المستقيم، وتهوين المحْدَثات في الدين، ومصانعة أرباب البدع ومداهنتهم، ولـمَّا قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لأبي بكر الصديق

– رضي الله عنه –: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس! أجابه الصديّق الأكبر: علامَ أتألَّفهم: أعلى حديث مفترى أم على شعر مفتعل[1]؟

بل إن ترك السُّنة وتنكُّب الصراط المستقيم في العقائد والشرائع يوقع تفرقاً وتشرذماً، ومتى آمنوا بالكتاب كله واعتصموا بالسُّنة تحقق الاجتماع والوئام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة: علمائها ومشائخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، كما قال – تعالى –: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ١٤] فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرّق القوم هلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب، وجِماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..»[2].

وقال أيضاً: «متى تركوا الاعتصام بالكتاب والسُّنة فلا بد أن يختلفوا؛ فإن الناس لا يفصل بينهم إلا كتاب منزَّل من السماء، كما قال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢ – ١٠٣]»[3].

وقال في موضع ثالث: «أَتْبَعُ الناس للرسول أقلُّ اختلافاً من جميع الطوائف المنتسبة للسُّنة، وكل من قَرُبَ للسنة كان أقل اختلافاً ممن بَعُد عنها، كالمعتزلة

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/ ٢٤.
(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٤٢١.
(٣) الدرء ٥/ ٢٤٨.

والرافضة، فنجدهم أكثر الطوائف اختلافاً»[١].

والمقصود أن موجبِ الاجتماع هو الاعتصام بالكتاب والسُّنة ولزوم الشرع المنزَّل، وأما الاجتماع على إهدار أصول مذهب السلف في المسائل والدلائل، فليس مشروعاً، بل هو إجماع هش على جرفٍ هار سرعان ما يعتريه التعثر والسقوط.

ومع تأكيد أهل السُّنة على لزوم السُّنة النبوية واتِّباعها، إلا أنهم يرحمون الخلق، كما يعلمون الحق، حتى إن أهل السُّنة لكل طائفة ومن أهل البدع خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض[٢].

وكان ابن تيمية يقول: «والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفاً لقلوب المسلمين، وطلباً لاتفاق كلمتهم، واتباعاً لما أُمرنا به من الاعتصام بحبل الله، وأزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة..»[٣].

وإذا انتقلنا إلى مفارقة الأشاعرة للسُّنة، ومجانبتهم سبيل الشرع والعقل والفطرة، فإن هذه المفارقة في قضايا رئيسة وعديدة، ومبسوطة في مواضعها، وقد أجاد الشيخ سفر الحوالي - شفاه الله وعافاه - في تحرير ذلك، بأسلوب بليغ، وتقرير متين، كما في رسالته الوجيزة والموسومة بـ«منهج الأشاعرة في العقيدة»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢٣٠، وانظر مجموع الفتاوى ١٣/ ٢٢٧.
(٢) انظر منهاج السُّنة ٤/ ١٢١، ٥/ ١٥٧.
(٣) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٧.
(٤) هذه الرسالة المختصرة طُبعت قبل أكثر من عشرين سنة، ثم حرر الشيخ الحوالي كتاباً آخر عن الأشاعرة بالعنوان السابق يحوي مسائل جليلة وتحقيقات نفيسة، في أكثر من مائتي صفحة، وهي من مطبوعات دار الحجاز للنشر بالقاهرة.

ومن هذه المفارقات أن السُّنة تُقرر أن أول واجب هو توحيد الله - عز وجل - وعبادته وحده كما في حديث معاذ مرفوعاً «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» أخرجه البخاري ومسلم، وأما أول واجب عند الأشاعرة؛ فهو النظر أو القصد إلى النظر[1].

ودلالة القرآن لا تفيد اليقين، كذا وخبر الآحاد لا يفيد العلم عند جمهور الأشاعرة[2]!

فإن كان القرآن - وهو الهدى والنور والرحمة والشفاء - لا يُحقق بَرْدَ اليقين، ولا يحصل بالسُّنة العلم والرسوخ.. أفيظن أن العلم واليقين متحقق بفلسفة اليونان الوثنية أو زندقة المعتزلة الكلامية؟

ولذا حلّ بالقوم الوحشة والقلق، والحَيرة والشكوك؛ فالآمدي حائر واقف في المسائل الكبار، والرازي يستوحش من روحه التي بين جنبيه! وتلميذه الخسروشاهي يبكي قائلاً: والله ما أدري ما أعتقد.. (قالها ثلاثاً!)[3].

وافتعل الأشاعرة تعارضاً بين النقل والعقل، كما في «القانون الكلي» للرازي وسَلفه، فقدموا ما ظنوه معقولاً - وهو في الحقيقة وهمٌ ومجهول - على نصوص الوحيين، وأعملوا التأويل الفاسد في المنقولات[4]، أو سلكوا سبيل التجهيل والتفويض والتضليل! بدعوى التوفيق والتلفيق بين النقل والعقل!

(١) انظر: الانصاف للباقلاني الأشعري ص ٢٢، وإرشاد الجويني ص ٣.
(٢) انظر: نقض المنطق لابن تيمية ص ٨٨، والمواقف للإيجي الأشعري ص ٢٧٢.
(٣) انظر: الدرء ١/ ١٥٩، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ١/ ٢٤٣.
(٤) جملة من تأويلات الأشاعرة كابن فورك والفخر الرازي وأشباههما هي عين تأويلات بشر المريسي «اليهودي»! انظر: مقدمة الحموية لابن تيمية.

والحق أن النقل الصحيح يتفق تماماً مع العقل الصريح، كما بسطه ابن تيمية في كتابه النفيس «درء تعارض النقل والعقل».. ولا عجب أن يجعل ابن القيم هذا القانون الكلي طاغوتاً يتعيّن كسره وإبطاله، كما فعل - رحمه الله - في كتابه (الصواعق المرسلة).

ومن نماذج المفارقات أن القوم يثبتون سبعاً من الصفات الإلهية، وينفون سائرها، مع أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، والقول في الصفات كالقول في الذات.

وفارقَ الأشاعرة السُّنَة في القَدَر، فمالوا إلى الجبر، ونفوا الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، وأنكروا الصفات الاختيارية، ونفوا التحسين والتقبيح العقليين. وأما في الإيمان فقد نصروا قول الجهم بن صفوان، فجعلوا الإيمان مجرد تصديق، فأخرجوا أعمال القلوب والجوارح وقول اللسان من تعريف الإيمان! وحجَّروا دلائل النبوة - والتي هي أكثر من أن تُذكر وأشهر من أن تحصر - وضيقوا ما وسَّع الله، فزعموا أن النبوة لا تثبت إلا بالمعجزة..

والمقصود أن مفارقات الأشاعرة للسُّنة كثيرة وشنيعة، حتى قال بعضهم: إن الأشاعرة خالفوا أهل السُّنة في جُلّ مسائل الاعتقاد إلا الصحابة والإمامة..

والحقيقة أن الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - لم يسْلَموا من لمزٍ وتعريض.. إذ زعم الأشاعرة أن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم «فيصفون إخوانهم بالفضيلة في العلم والبيان والتحقيق، والسلفَ بالنقص في ذلك والتقصير فيه، ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض»[1].

---

(١) التسعينية لابن تيمية (ضمن الفتاوى الكبرى) ٥/ ٣٠٥.

أفبعد هذه المفارقات والضلالات يقال: إن الاشاعرة أرباب سُّنة واتباع؟! إن بين هذا التمشعر المتهافت وبين السُّنة النبوية مفاوز بعيدة وشاسعة تنقطع فيها أعناق المطي!

إن من دواعي الانخداع بالمذهب الأشعري أن التمشعر مذهب تلفيقي توفيقي بين الوحي والعقل – على حدّ زعمهم – فهو يختار التلوّن والمصانعة للفريقين (أهل السُّنة والجماعة وأهل الاعتزال)، وعند التحقيق وتجلية الأمور، فهو إلى المعتزلة أقرب وألصق، لكنهم يكتمون ذلك! حتى قال ابن قدامة: «ولا نعرف في أهل البدع طائفة يكتمون مقالتهم ولا يتجاسرون على إظهارها إلا الزنادقة والأشعرية»[1]، وقال الإمام السجزي (ت ٤٤٤هـ): «والمعتزلة مع سوء مذهبهم أقل ضرراً على عوام أهل السُّنة من هؤلاء؛ لأن المعتزلة قد أظهرت مذهبها ولم تموِّه.. وكثير من مذهب الأشعري يقول في الظاهر بقول أهل السُّنة مجملاً، ثم عند التفسير والتفصيل يرجع إلى قول المعتزلة، فالجاهل يقبله بما يظهره، والعالِم يكشفه لما منه يخبره، والضرر بهم أكثر منه بالمعتزلة لإظهار أولئك ومجانبتهم أهل السُّنة، وإخفاء هؤلاء ومخالطتهم أهل الحق. نسأل الله السلامة من كلٍّ برحمته»[2].

والمذهب الأشعري لا يزيده تصرّم الأيام إلا انحرافاً وانحداراً، حتى أفضوا للتسول باليهود في إنكار الصفات، وكما يقال: طافوا بأخس المذاهب ونالوا أخبث المطالب والمكاسب، ومن ذلك أن موسى بن ميمون (ت ٦٠١هـ) من ملاحدة اليهود وفلاسفتهم[3]، ألّف «دلالةَ الحائرين» وهو طافح بتعطيل الصفات الإلهية وإنكارها، وقام التبريزي – أحد تلاميذ الفخر الرازي – بشرحه والتعليق عليه، ثم نشره محمد

(١) رسالة المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدع.
(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٧٧ – ١٨١ = بتصرف يسير.
(٣) انظر: الدرر ١/ ١٣١ – ٧/ ٩٤.

زاهد الكوثري - أشهر دعاة البدع والضلال في هذا العصر - سنة ١٣٦٩هـ[١]، واحتفى به! وفي الوقت نفسه كان الكوثري المأبون في دينه ونقله يدَّعي أن أهل الحديث في الهند أضر على الإسلام من اليهود[٢]!

وأخيراً: فمع شناعات المذهب الأشعري وكثرة عواره وتناقضاته، إلا أننا نستصحب في نفس الوقت مراتب الشرور، وأن في أهل الأهواء من هو شر منهم كالرافضة والخوارج ونحوهم، كما أن الحديث ها هنا عن التمشعر مذهباً ومعتقداً، وأما أربابه فقد يعتريهم ويلحقهم من عوارض الأهلية كالجهل والتأوّل ما قد يُعذَرون به عند الله تعالى، والله - تعالى - يغفر لنا ولهم، والواجب أن نكون أكثر شجاعة وبذلاً في سبيل إظهار السُّنة ونشرها، ومدافعة البدعة وإزهاقها. فاللهم أحينا على الإسلام والسُّنة حتى نلقاك.

(١) قال د. سفر الحوالي: «نشره سنة ١٣٦٩هـ وهي السُّنة التي قامت فيها دولة إسرائيل بفلسطين ولسان حال الكوثري يقول: إذا لم تكن هذه الدولة على مذهب الحشوية فلتكن ما تكون» منهج الأشاعرة في العقيدة ص ١٧٩.

(٢) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة ص ١٨٣.

التفويض.. الجهل والجفاء

قرر السلف الصالح أن صفات الله - تعالى - معلومة المعنى ومجهولة الكيفية، كما قال الإمام مالك بن أنس - وكذا شيخه ربيعة الرأي -: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

وبيَّن ذلك شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني (ت ٤٤٩هـ) قائلاً: «وقد أعاذ الله - تعالى - أهل السُّنة من التحريف والتشبيه والتكييف، ومَنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه...»[2].

فأفصح في هذه العبارة عن مجانبة السلف طرائق التحريف والتمثيل والتكييف، ولزوم سبيل التعريف والتفهيم خلافاً لأرباب التجهيل والتفويض.

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول السُّنة: ٢/ ٣٩٨، والصابوني في عقيدة السلف: ص ١٨١، والذهبي في العلوم: ص ٩٨ وغيرهم.
(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث: ص ٦٣.

وقال قِوام السُّنة الأصفهاني (ت ٥٣٥هـ): «ينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها؛ فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلاً طلب أن يعرف اسمه وكُنْيَتَه، واسم أبيه وجدِّه، وسأل عن صغير أمره وكبيره؛ فالله الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أَوْلَى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها»(١).

فمعاني الصفات الإلهية معلومة؛ إذ إن الله أمر بتدبُّر القرآن كله في عدَّة آيات، فقال - سبحانه -: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وقال - تعالى -: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبُّر هو: أن يفهم آيات القرآن ويعقِلها ويعلم معانيها، وأشرَفُ ذلك آيات الصفات. . . «وإذا كان الله قد حَضَّ الكفار والمنافقين على تدبُّره، عُلِمَ أن معانيه مما يمكن للكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها؛ فكيف لا يكون ذلك ممكناً للمؤمنين؟ وهذا يبيِّن أن معانيه كانت معروفة بيِّنةً لهم»(٢).

وأما أهل التفويض(٣) والتجهيل؛ فهم القائلون بأن نصوص الصفات ألفاظ لا تُعْقَل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها، ولكن نقرؤها ألفاظاً لا معاني لها؛ فجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يُفهم(٤)!

ومذهب التجهيل والتضليل وإن كان مقابلاً لمذهب أهل التحريف والتأويل المذموم، إلاَّ أن منشأ الاشتباه واحد؛ إذ إن طائفتَيِّ التفويض والتحريف قد انقدح

(١) الحجة في بيان المحجة: ١/ ٢٢.

(٢) القاعدة المراكشية لابن تيمية: ص ٣٠.

(٣) كتب د. أحمد القاضي رسالة علمية متينة بعنوان: «مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات عرض ونقد» تزيد على ستمائة صفحة، وهي مطبوعة متداولة؛ بيَّن حقيقة هذا المذهب مع الرد على شبهاتهم، وقد انتفعتُ بها.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٣/ ٢٩٥، والصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/ ٤٢٢.

في أذهانهم أن في إثبات نصوص الصفات تمثيلاً وتشبيهاً[1]؛ فنفوا الصفات الإلهية التي دلَّت عليها نصوص الوحيين، واستروحوا إلى التفويض تارةً، والتحريف تارةً أخرى[2]، كما في جوهرة (الأشاعرة):

وكل نصٍّ أوْهَمَ التشبيها ... أوِّلْه أو فوِّض ورُمْ تنزيها

ومن ذلك أن أبا المعالي الجويني سلك التعطيل والتحريف، كما في كتابه (الإرشاد) ثم أعقب ذلك بالتفويض والتجهيل في (الرسالة النظامية)[3].

ولئن كان الأشاعرة والماتريدية ونحوهم يترنَّحون بين تأويل مذموم وتفويض مجهول؛ فيسوِّغون المذهبَيْن بدعوى: «أن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم!»

والمصيبة أن متسنِّنَةً في هذا العصر قد غشيتهم هذه اللوثة؛ فتوثبوا على عقيدة السلف الصالح، وتنكَّبُوا الهدى والنور، والعلم والبصيرة، ولَحِقهم الولع والهوس بمذهب التجهيل والتفويض، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور[4].

ولئن كان التفويض ناشئاً عن جهل بمذهب السلف، أو ضلال بتصويب طريقة الخلف، فربما كان باعث ذلك الشهوة وحظوظ النفس، والتفلُّت من لزوم الصراط المستقيم: «إن النفوس فيها نوع من الكِبر؛ فتحبُّ أن تخرج من العبودية والاتباع بحسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري - رحمه الله -: ما ترك أحد شيئاً من السُّنة إلا لِكِبْر في نفسه، ثم هذا مظنَّة لغيره؛ فينسلخ القلب عن حقيقة اتباع

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٥/ ٤٧٦.
(٢) الحموية لابن تيمية: ص ٢٠٥، ٢٠٦.
(٣) انظر: الدرء: ٣/ ٣٨١.
(٤) مثل يُضرب لمن أصابه نقصٌ بعد زيادة.

الرسول ﷺ ويصير فيه من الكِبْر وضعف الإيمان بالله ما يفسد عليه دينه»[1].

ويقال لهؤلاء المفوِّضة: ها أنتم تثبتون أن الله - تعالى - ذاتاً - تليق به سبحانه - تعقلونها وتعْلَمونها، فكذا أسماؤه وصفاته - عز وجل - تُعلم وتُعْقَل؛ فالقول في الصفات كالقول في الذات[2].

«ويقال أيضاً: أتقولون بهذا التجهيل في جميع أسماء الله - تعالى - وصفاته؟ فإن قالوا: هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام، بل كُفْر صريح؛ فإنا نفهم من قوله - تعالى -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] معنىً، ونفهم من قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧] معنىً، وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا.

ويقال لهذا المعاند: فهل هذه الأسماء دالة على الإله المعبود أم لا؟ فإن قال: لا، كان معطِّلاً محضاً، وما أعلم مسلماً يقول: هذا، وإن قال: نعم، قيل له: فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب، ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم، وكلاهما في الدلالة سواء؟»[3].

ومن أَوْجُه فساد مذهب التفويض: «أن هذا قدح في القرآن والأنبياء؛ إذ كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله هدىً وبياناً للناس، وأمر الرسول ﷺ أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، وأمر بتدبُّر القرآن وعَقْلِه، ومع هذا؛ فأشرف

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦١٢.

(٢) هذا الأصل الكبير «القول في الصفات كالقول في الذات» قرره جمع من المحققين: كالخطابي، والخطيب البغدادي، وابن الزاغوني، وأبي عثمان الصابوني، وابن عبد البر، وابن تيمية رحمهم الله.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٩٧، ٢٩٨ (بتصرف يسير).

ما فيه - وهو ما أخبر الربُّ عن صفاته - لا يعلم أحد معناه؛ فلا يُعْقَل ولا يُتَدبَّر! ولا يكون الرسول بلَّغ البلاغ المبين... فتبيَّن أن قول أهل التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.[1]

«إن من أعظم أبواب الصدِّ عن سبيل الله وإطفاء نور الله، والإلحاد في آيات الله وإبطال رسالة الله، دعوى أن القرآن لا يُفهم معناه، ولا طريق لنا إلى العلم بمعناه... فمن كان يرى أن الذي أمر الله به، أن تكون الأمة كلها لا تعقل معاني الكتاب، فهو ممن يدعو إلى الإعراض عن معاني كتاب الله ونسيانها، ولهذا صار هؤلاء ينسون معانيه حقيقة؛ فلا يخطر بقلوبهم المعنى الذي أراده الله ولا يتفكرونه...»[2].

ومن الأجوبة العقلية والضرورية في ردِّ هذا التجهيل؛ أن من قرأ مصنَّفات الناس في الطب والنحو والفقه والأصول... لكان من أحرص الناس على فَهْم معنى ذلك، ولكان من أثقل الأمور عليه قراءة كلام لا يفهمه، فإذا كان السابقون - رضي الله عنهم - يعلمون أن هذا كلام الله وكتابه الذي أنزله إليهم وهداهم به، أفلا يكونون أحرص الناس على فهمه ومعرفة معناه؟ بل ومن المعلوم أن رغبة رسول الله ﷺ في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته من تعريفهم حروفه[3]...

وها هنا ضرورة فطرية، وأمر وَجْديٌّ لا انفكاك عنه؛ وهو أن التعرف على الله بأسمائه وصفاته وما يستلزم ذلك من محبته وعبادته لهو أكبر المقاصد وأجلُّ المطالب؛ فمعرفة هذا، أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل ما اكتسبته القلوب، وأدركته العقول؛ فلا يُتَصوَّر أن يكون السلف الصالح كلهم كانوا مُعْرِضين عن هذا؛ لا يسألون عنه، ولا يشتاقون إلى معرفته، ولا تطلب قلوبهم الحق فيه، وهم - ليلاً

---

(١) البدء: ١/ ٢٠٤، ٢٠٥ (باختصار).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية: ص ٢٤، ٢٥ (باختصار).

(٣) انظر: جواب الاعتراضات المصرية: ص ١٤، والقاعدة المراكشية: ص ٢٩.

ونهاراً – يتوجهون بقلوبهم إليه – سبحانه – ويدعونه تضرعاً وخفية، ورغبةً ورهباً. والقلوب مجبولة مفطورة على طلب العلم بهذا، ومعرفة الحق فيه، وهي مشتاقة إليه أكثر من شوقها إلى كثير الأمور[1].

ويتعذر على هؤلاء المفوِّضة أن ينكروا ما يجدونه في قلوبهم من محبة الله – تعالى – لما له – سبحانه وتعالى – من صفات الكمال والجلال والجمال، ولعظيم نِعَمِه وكثرة آلائه...

وكذا استصحاب الخوف من ملك الملوك، ومالك يوم الدين، هو ناشئ عن ظهور آثار أسمائه وصفاته الدالة على بطشه، وقهره، وعدله، وانتقامه... كما يمتنع أن يجحدوا ما في أنفسهم من الطمع برحمة الله ورأفته؛ إذ يرجون رحمته ويرغبون إليه.

إن التعرُّف على الله – تعالى – والعلم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا والتفقه في فهم معانيها يحقق عبادة الله – تعالى – ومحبته وخشيته ورجاءه؛ فكلما ازداد العبد معرفة بربِّه ازداد إيماناً وتوحيداً[2].

قال ابن القيِّم: «لا يستقر للعبد قَدَم في المعرفة – بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الربِّ – جل جلاله – ويعرفها معرفة تخرج عن حدِّ الجهل بربِّه؛ فالإيمان بالصفات وتعرُّفُها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان»[3].

والمقصود أن مذهب التفويض بلوازمه الفاسدة وما يؤول إليه، من شر المذاهب؛ لِمَا فيه من الطعن في حكمة الله – تعالى – ورحمته وعلمه... ونفي صفاته،

---

(١) انظر: الحَمَوية: ص ١٩٦، والقاعدة المراكشية: ص ٤٧، ٤٨.
(٢) انظر: تفسير السعدي: ١/ ٢٤.
(٣) مدارج السالكين: ٣/ ٣٤٧.

وانتقاص القرآن في هدايته وبيانه وشفائه، والقدح في سيد المرسلين ﷺ من جهة عِلْمِه وبيانه ونُصْحه؛ إذ هو ﷺ أعلم الناس بربه - سبحانه وتعالى - وأفصح الناس وأنصح الناس. . . واستجهالِ السابقين الأولين، ولَمْزِ الصحابة - رضي الله عنهم - بقلَّة العلم وضعف الحكمة. .

وما كان لمذهب التجهيل والتضليل أن يروج على فئام من المسلمين، لولا تقصير علماء ودعاة أهل السُّنة والجماعة عن تبليغ رسالات الله ومدافعة شبهات المبطلين، لا سيما وأن مذهب التفويض قد ينشأ عن ضعفٍ وقعودٍ عن مجالدة أرباب التأويل الفاسد؛ فقد يعلم بعضهم فساد تأويلات المحرِّفين لآيات الصفات، لكنه يضعف عن تحقيق الإيمان بمعاني القرآن؛ فيركن إلى الجهل، ويخلد إلى التفويض، ويُعْرِض عن معاني القرآن ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

(١) انظر: تفصيل ذلك في: جواب الاعتراضات المصرية لابن تيمية: ص ٢٦-٣١.

«قلب الأدلة على الطوائف المخالفة» للقاضي

قد لا يعاني البحث العلمي في هذا الوقت مِنْ تعذُّر الوصول إلى المعلومة أو تعسُّرها، بل المعلومة يمكن العثور عليها بأيسر طريق، وأكبر قَدْر؛ لا سيما مع التقنيات الحديثة: من الحاسب وشبكات المعلومات ومحرِّكات البحث. . . ونحوها.

كما أن الباحث لا يَلقى عَنَتاً ولا شحّاً في تعدُّد القضايا، وتنوُّع النوازل، وتتابُع المستجدات التي يجدر بحثها ومعالجتها؛ إذ لا تزال هذه الإشكالات والوقائع ميداناً رحباً لمن عزم على بحثها، وجدَّ في تحريرها وتحقيقها.

لكنْ على الرغم من وفرة المعلومات وضخامتها، والسهولة المُفْرطة في مطالعتها، وأيضاً تكاثر المستجدات والحوادث؛ إلا أن الفاحص والناظر في جملة من البحوث العلمية - سواء كانت رسائل علمية أو بحوث مجلات محكَّمة أو مؤتمرات - ليجدُ الهشاشة والهزال فيها، والرتابة المُمِلَّة، والتكرار والاجترار، ولسان الحال يقول:

ما أرانا نقولُ إلا مُعاراً
أو مُعاداً من قولنا مكرورا

إضافة إلى الإغراق في النواحي الشكلية والفنية، والاستطراد في المقدمات المعروفة، وأما القضايا العلمية المشْكِلة والمعْنيَّة بالبحث، فإن الباحث قد يختزلها أو يسوق كلاماً عائماً، أو يتنصَّل منها... دعك من حال البحوث التي يتشبَّع أصحابها بما لم يُعطَوْا، أو الذين يحمدون بما لم يفعلوا.

ولمَّا سئل الخريشي (ت ١٠٠١ هـ) أن يؤلف كتاباً، فقال: (التأليف في زماننا هذا هو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق)[١].

ومهما كان الواقع قاتماً ومتردياً جرَّاء تلك البحوث، إلا أن ثمة بحوثاً على النقيض من ذلك؛ إذ تجد في هذه البحوث الجادة عمقاً علمياً، وتحريراً متيناً، وسَعة في الاطلاع، وابتكاراً في التصنيف، وجزالة في الأسلوب، ورسوخاً في التحقيق، ودراية فائقة في التخصص.

ومن خير النماذج وأروع الأمثلة على ذلك رسالة: «قلب الأدلة على الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات» للشيخ تميم بن عبد العزيز القاضي[٢].

ومع أن كثرة الصفحات، ووفرة المراجع ليست أهم المعايير - في نظري - لإضافة تزكية على البحث، وتحقيق إيجابيته؛ إلا أن الباحث سطَّر ما يزيد على ستمائة وألف صفحة، ورجع إلى أكثر من ثماني مئة مرجع، ولم تكن هذه الصفحات المئات حشواً

---

(١) السحب الوابلة لابن حميد: ٢/ ٨٨٤.

(٢) رسالة تقدَّم بها الباحث إلى قسم العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ونال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز سنة ١٤٣٠هـ. ولا تزال الرسالة حبيسة الأدراج و(الأقراص).

ولا استطراداً، كما لم تكن مراجعه تكثُّراً وتعسفاً؛ فالباحث قد رجع إليها فعلاً، وتحرَّى المراجع الأصلية، والمصادر العميقة، وجانب ما كان هشّاً وما ليس مرجعاً معتبراً.

ويستوقفك في البحث ابتداءً حُسْن اختيار الموضوع وجدَّته وبكارته، ومفارقته للبحوث المكرورة الرتيبة.

وأحسب أن هذا البحث النفيس من واجبات الوقت، ويسدُّ حاجة ملحَّة في الآونة الأخيرة؛ إذ يسهم البحث في مدافعة انهزاميةٍ واضطرابٍ قد عرضا لبعض المتسنِّنة؛ فقَلْبُ الأدلة على أهل البدع يبعث تمام الثقة بالمنهج السلفي، والاعتزاز والاعتصام بطريقة أهل السُّنة والجماعة، بل هذا سبيل المرسلين وأتباعهم؛ فإبراهيم - عليه السلام - حين عارضه قومه، وخوَّفوه من أصنامهم، قال قالباً عليهم حجتهم وتخويفهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

قال ابن القيم: «وهذا من أحسن قلب الحجة، وجَعْل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه»[١].

فما يشغب به أهل البدع من أدلة يحتجون بها على أهل السُّنة، فإننا معشرَ أهل السُّنة نوقن أن كل دليل (نقلي أو عقلي) يتشبث به أهل الأهواء ضد أهل السُّنة، هو حُجَّة لنا ودليل على أهل الزيغ والبدعة، وهذا القَلْب من دلائل صِدْق المرسلين - عليهم السلام - وبراهين أهل السُّنة في صحة معتقدهم وسلامة منهجهم طوال القرون الماضية وما يُستَقبَل من أيام حتى يأتي أمر الله.

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٥٤.

يقول ابن تيمية: «... فهؤلاء كل ما احتجوا به من دليل صحيح؛ فإنه لا يدل على مطلوبهم، بل إنما يدل على مذهب السلف المتبعين للرسل؛ فتبيَّن أن الأدلة العقلية الصحيحة من جميع الطوائف إنما تدلُّ على تصديق الرسول، وتحقيق ما أخبر به، لا على خلاف قوله، وهي من آيات الله الدالة على تصديق الرسول التي قال الله فيها: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهي من الميزان الذي أنزله الله، تعالى»[1].

لا عجب أن يعكف الباحث في هذه الرسالة سبع سنين؛ فهو قد اشتغل بمسائل عميقة ومباحث شائكة، هي من مَحَارات العقول، ودقائق المطالب، وخاصة أن الرسالة تجمع بين تخصصين مهمين وعميقين، وهما: أصول الفقه ومسائل الاعتقاد، وهذه مزية أخرى للرسالة؛ فإن من آفات التخصص الدقيق أن يفوِّت دراسة موضوعات مهمة تشتمل على أكثر من فن؛ إذ إن الموضوعات المشتركة والمشتملة على أكثر من تخصص قد تتقاذفها الأقسام بدعوى «عدم التخصص»، وخاصة أن هذا النوع من الموضوعات لا ينفك عن تبعات وأعباء على الباحث... وصاحبنا قد أحكم موضوع قلب الأدلة من خلال مطالعة كتب أصول الفقه، ومدارسة أهل هذا الفن، وأعدَّ باباً مستقلاً عن قلب الأدلة، وحقيقة الاعتراض بالقلب وأقسامه، وحجية الاعتراض بالقلب وضوابطه.

عقد الباحث باباً بعنوان: «قلب الأدلة الإجمالية التي استدلَّت بها الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات»:

ففي الفصل الأول: قَلَب الباحثُ أدلة المخالفين في توحيد الربوبية، سواء التي استدل بها أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، أو أدلة مسألة حلول الحوادث.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٩٢.

وفي الفصل الثاني: قَلَب الباحثُ أدلة المخالفين في مبحث أسماء الله الحسنى.

ثم في الفصل الثالث: ساق الباحث أدلة المخالفين من نفاة الصفات الإلهية وتعقَّبَها بالقلب عليهم، مثل: استدلالهم بالتنزيه، وتقديمهم العقل عند توهُّم تعارض العقل بالنقل، ومسألة دليل التركيب والتجسيم...

ومثال ذلك أن المتكلمين استدلوا بحلول الحوادث ونفيها عن الله - تعالى - على إثبات أن الله هو الصانع، وهو في الحقيقة نفي للصانع؛ فإن الذي يصح أن تنفى عنه الصفات، أو يقال: إنه لا داخل العالم ولا خارجه؛ فمن كان كذلك فهو ممتنع الوجود؛ ولذا قال بعض السلف: المعطِّل يعبد عدماً[1].

وأما الباب الثالث: فعنوانه: «قلب الأدلة التفصيلية التي استدلَّت بها الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات»: استوعب الباحثُ فيه القلب والاعتراض على المخالفين في مسألة: أول واجب على المكلَّف، ودليل التمانع، ومقالة قِدَم العالم عند الفلاسفة، كما قلب الأدلة على نفاة صفات الله - تعالى - الذاتية والفعلية، وساق أمثلة تفصيلية في هذا الشأن، ومثال ذلك: دعوى المتكلمين بوجوب النظر، وعدم صحة إيمان العوام، احتجاجاً بعدم التقليد. يقول الباحث تميم: «وحين ننظر إلى حال ومقال المتكلمين وأهل النظر، فإننا نجد أنهم قد نالوا من التقليد المذموم أوفر الحظ وأجزل النصيب؛ فالذم بالتقليد ينقلب عليهم؛ ذلك أن القواعد النظرية التي أوجبوها لم تدل عليها حجة معتبرة... وإنما تلقَّوها عن أسلافهم الفلاسفة والمعتزلة؛ فحين يأتي الكلام عن الاستدلال بنصوص الوحي المعصوم في أبواب الإلهيات تجد الردَّ والتزهيد وأنها تحتمل التأويل، لكن حينما يكون الكلام على القواعد الكلامية والفلسفية، فإنك ترى التمجيد تجاهها والتقديس وأنها قد صقلتها الأذهان على تطاول الأزمان!»[2].

---

(١) قلب الأدلة: ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) قلب الأدلة: ٢/ ٩٣٤.

أما الباب الرابع: فهو في قلب الألقاب التي أطلقها المبتدعة على أنفسهم، أو على أهل السُّنة:

ففي الفصل الأول من هذا الباب: قَلْبُ ألقاب الذم التي أطلقها المبتدعة على أهل السُّنة، وبيانُ أنهم هم الأحق بها، مثل تسميتهم أهل السُّنة بالمشبهة والمجسمة، ونَبْزِهم أهل السُّنة بالحشوية والنابتة والجهلة . . .

وأما الفصل الثاني: فهو قلب ألقاب المدح التي أطلقها المبتدعة على أنفسهم، مثل دعواهم أنهم أهل العدل والتوحيد، وأهل الحق والبرهان، وأهل السُّنة . . .

ومن ذلك: إطلاق لقب المشبِّهة على أهل السُّنة، والحقيقة أن لقب التشبيه والتمثيل ينقلب على طوائف المعطلة؛ إذ إنهم شبَّهوا أولاً ثم دفعوا ذلك بالتعطيل ونفي الصفات، وكذا شبهوا الخالق - عز وجل - بالناقصات والمعدومات؛ «ولهذا قال بعض أهل العلم: إن كل معطِّل مشبِّه، ولا يستقيم له التعطيل إلا بعد التشبيه»[1].

«كما أن لقب المشبهة ينقلب على كثير من متأخري الأشاعرة والماتريدية ممن وقع في تشبيه المخلوق بالخالق، وذلك من جهة ما دخل عليهم من التصوف الغالي، والذي لم يُعهد مثله عن أسلافهم؛ حيث أضافوا إلى أوليائهم وأقطابهم كثيراً من خصائص الربوبية: كعلم الغيب أو التصرُّف في الكون، كما أضافوا إليهم بعض مقامات العبودية التي تفرَّد الله - سبحانه - باستحقاقها: كالاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله . . . ونحو ذلك، فكانوا أحق بلقب المشبهة؛ إذ شبَّهوا المخلوق بالخالق في ألوهيته»[2].

---

(١) الصواعق المرسلة: ١/ ٢٤٤.

(٢) قلب الأدلة = باختصار: ٣/ ١٣١١ - ١٣١٢.

وكذا دعوى الأشاعرة والماتريدية أنهم أهل السُّنة والجماعة؛ فقد قلَبَها الباحث عليهم من عدة وجوه؛ حيث لم يحققوا ضابط أهل السُّنة فيهم، بل تحقق نقيضه؛ فقد فرَّطوا في مصادر التلقي (الكتاب والسُّنة والإجماع)، فسلَّطوا على القرآن طاغوت التأويل، وطاغوت المجاز، وطاغوت تقديم العقل على النقل... وأن نصوص الكتاب والسُّنة ظنية الدلالة.. وعدم الاحتجاج بأحاديث الأحاد، كما أن الأشاعرة خالفوا إجماعات السلف في غالب أبواب الاعتقاد؛ فخالفوا أهل السُّنة في قواعد الشريعة وأصول الدين؛ ثم ساق الباحث شهادة أئمة السُّنة بخروج الأشاعرة من أهل السُّنة، ومن ذلك ما أخرجه ابن عبد البر عن ابن خويز منداد (ت ٣٩٠هـ): «أهل الأهواء عند مالك وأصحابنا هم أهل الكلام؛ فكل متكلِّم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تُقْبَل له شهادة في الإسلام أبداً ويُهجَر ويؤدَّب على بدعته...»(١).

وبعد أن خاض الباحث غمار مسائل عويصة، وحرر مباحث معضلة، واستوعب وأحكم كتب السلف، وغاص في أعماق مراجع أهل البدع (الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة) والفلاسفة، وأجاد فهمها وأحكم نقضها، عندئذٍ ختم بحثه بهذه الكلمات: «وبعدُ: فهذا ما اقتضاه الخاطر المكدود، على عُجَرِه وبُجَرِه، وعَلاَّته وهنَّاته، وعجزه وضعفه، فما كان فيه من صواب، فمِنَ الكريم الوهاب، وما فيه من زلل ونقصان، فمِنَ النفس الأمارة والشيطان، وأسأل الله منه الصفح والغفران»(٢).

وهكذا فالبحث الجاد والعلم النافع يورث تواضعاً وإخباتاً، وعلى هذا جرت مناقشة هذه «الموسوعة» بهدوء وخمول، وفي قاعة صغيرة، لم يحضرها إلا أربعة: الباحث ولجنة المناقشة.

(١) جامع بيان العلم: ٢/ ١٩٥.
(٢) قلب الأدلة: ٣/ ١٤٧٠.

عنيف القول ولطيفه تجاه السلف

لا يُنْتَظر من الغرب إلا مزيداً من العداء الجلي، أو المكر الخفي لدين الإسلام وأهله، لا سيما مذهب أهل السُّنة والجماعة؛ فقد جاهر ساركوزي فرنسا بأن الحجاب ناشئ عن السلفية، وأما أهل البدع المغلَّظة: كالرافضة وغلاة الصوفية؛ فلا يزالون في كيدٍ دائمٍ، وعداء متلاحق لمذهب السلف الصالح.

لكن البلية أن ينساق بعض متسنِّنة هذا العصر إلى نقد السلفية، وتقويم أهل السُّنة عبر قنوات مأبونة، ومحافل مشبوهة، وربما تدثَّروا بالموضوعية وروح النقد والصدع بالحق. وأما أهل الأهواء والزندقة فهم في عافية من نقد أولئك «الشجعان»، بل صار الطعن في السلفية حِمَىً مستباحاً، واهتماماً راتباً، وقضية مكرورة مألوفة.

ومع ذلك فإن التطاول على مذهب أهل السُّنة هو علامة الإرث الصحيح، والاتباع التام لسيِّد الأنام ﷺ؛ فإن قريشاً كانت تسمي نبينا محمداً ﷺ تارة مجنوناً، وتارةً شاعراً، وتارةً كاهناً، والروافض يلقِّبون أهل السُّنة بالنواصب، وأهلُ الكلام

يسمونهم حشوية ونوابت، وأهل التعطيل ينبزونهم بالمشبهة والمجسمة. . . إلخ[1].
وهذا الطعن والهجوم على مذهب السلف قد يكون في غاية النزق والبغي؛ فيكون حافلاً بالكذب الرخيص، والإفك المبين.

ولئن كان هذا البغي والفجور في الخصومة مُوجِعاً لأوَّل وهلة؛ إلا أنه سرعان ما يعتريه الزوال والانحسار؛ فهو أشبه بقعقعة الصبيان، وهذيان نزلاء المارستان. إضافة إلى أن العداء الصارخ، والحرب المكشوفة قد تبعث يقظة وتحفُّزاً، وتهيُّؤاً للمنازلة والمجالدة؛ فسبحان من قدَّر المقادير وأحكمها؛ فجعل في المحن مِنَحاً وألطافاً! فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد يسلك الخصوم مسلكاً هادئاً في مكايدة مذهب السلف، فيحرصون على التلطف والمراوغة من أجل تطويع مذهب السلف للتبديل والتحريف، والعصرنة والتنوير؛ فهو مسلك خفيٌّ يكمن مَكْرُه الخفي بإثارة الأغلوطات، وتكلُّف التأويلات، واتباع المتشابهات ابتغاء الفتنة، وقد يتظاهرون بمدح السلفية والاحتفاء بها، فَتَعْظُم الرزية بهؤلاء أشد ممن قبلهم.

وقد يستغرب القارئ الكريم إذا علم أن هذا الكيد الخفي هو سبيل قديم لأهل البدع الذين مردوا على النفاق؛ كما كشفه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٠هـ) - رحمه الله - قائلاً: «بلغنا أن بعض أصحاب بشر المريسي قال: كيف تصنعون بهذه الأسانيد التي يحتجون بها علينا في ردِّ مذهبنا مما لا يمكن التكذيب بها؟ قال: لا تردُّوه فتفضحوا، ولكن غالطوهم بالتأويل، فتكونوا قد رددتم بلطف؛ إذ لم يمكنكم ردُّ بعنف»[2].

(١) انظر: الحموية لابن تيمية، ص٥٣٢، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية: ١/ ٣٨٦، ٣/ ٦٤٣.
(٢) الرد على بشر، ص ٥٥٦.

وأظهر مثال على ذاك الهجوم بشقَّيه (العنيف واللطيف) هو الهجوم على شيخ الإسلام ابن تيمية وتراثه النفيس؛ فقد شَرِق الخصوم قديماً وحديثاً بهذا الإمام الرباني ومؤلفاته، وتكالبوا عليه، وأجلبوا بخيلهم ورَجِلِهم، فما زاده ذلك إلا رِفعة وقَبولاً، وأضحت مؤلفاته ملء السمع والبصر، وفي شتى الأصقاع والبلدان.

«فأقرأ تصانيفَ الإمامِ حقيقةً
شيخِ الوجودِ العالمِ الرباني
أعني أبا العباس أحمدَ ذلك الـ
ـبحرُ المحيطُ بسائرِ الخُلْجَانِ
هي في الورى مبثوثةٌ معلومةٌ
تُبْتَاعُ بالغالي من الأثمانِ»[1]

فمن الكذبات الصلعاء أن ابن تيمية رجع إلى عقيدة الأشاعرة، وآخر يزعم أن ابن تيمية ليس سلفياً. ومن ركام ذاك الإفك الرخيص ما سوَّده أحد المعتوهين المتكسين من أن ابن تيمية «المتشدد» يعاني أزمة روحية، ثم يغالط ذاك المأفون هذيانه السابق فيزعم أن ابن تيمية يقرر أن جميع البشر إلى الجنة[2]. وكذا ما ادَّعاه أحد المتعثرين المتقهقرين من أن ابن تيمية ليس له أي دراسة لكتب المنطق والفلسفة[3].

والحال المذكور آنفاً وإن كان يحكي سفهاً وحمقاً، وجهلاً كثيفاً، إلا أنه يكشف نوعاً من عوارض «الإسقاط»، أو كما في المثل السائر: «رمتني بدائها وانسلَّتِ».

---

(١) قالها ابن القيم في «النونية»، ص ١٦٣.

(٢) ينظَر: منصور النقيدان، موقع إيلاف: ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٣) ينظَر الدراسة الرائعة التي سطرها عبد الله الهدلق بعنوان: «الهادي والهاذي» في الرد على شغب «السرحان».

ومن المغالطات الخفية ما تفوَّه به أحد المشايخ «العصريين» قائلاً: «شيخ الإسلام متسامح جداً؛ يقول بتهنئة أهل الكتاب وتعزيتهم، وعيادتهم إذا كانوا مرضىً، وهذا اختيار شيخ الإسلام، كما قال البعلي»[(١)].

وادَّعى أيضاً أن الجهاد عند ابن تيمية لأجل العدوان وليس لأجل الكفر[(٢)].

إن العبارة الأُولَى لا تنفك عن إيهام ومغالطة، وبالرجوع إلى الاختيارات الفقهية للبعلي، نجد أن المقام بشأن أهل الذمة خصوصاً، الذين تجري عليهم الشروط العُمَرِية وما تحويه من الذل والصغار و «الغيار» على أهل الذمة، وليس جميع أهل الكتاب مطلقاً؛ فالكافر قد يكون ذمياً، أو معاهَداً، أو مستَأمَناً، أو محارِباً، كما أن عيادتهم وتعزيتهم جائزة إن كان يُرجى إسلامهم، ثم إن البعلي حكى اختلاف كلام ابن تيمية في ردِّ تحية الذمي، وهاك العبارة بتمامها «واختلف كلام أبي العباس (ابن تيمية) في ردِّ تحية الذمي، هل تُردُّ بمثلها أو: وعليكم فقط؟ ويجوز أن يقول: أهلاً وسهلاً. ويجوز عيادة أهل الذمة، وتهنئتهم وتعزيتهم، ودخولهم المسجد للمصلحة الراجحة؛ كرجاء الإسلام. قال العلماء: يعادُ الذمي، ويُعرَض عليه الإسلام»[(٣)].

والشيخ المذكور يقول: (مشكلة الناس أنهم يقرؤون «اقتضاء الصراط المستقيم» ولا يقرؤون «الاختيارات الفقهية»).

ولا موجب لهذا الامتعاض، وافتعال هذه الإشكال؛ فالجميع كلام ابن تيمية، والمتعيَّن أن يُنظَر في جميع تقريراته، بل إن تقريراته في «الاقتضاء» أوثق وآكد من تقريرات واختيارات يكتنفها فَهْمُ من جَمَعَها وصنَّفها، كالبعلي.

(١) انظر: مقابلة مع الشيخ عبد الله بن بية في مجلة الإسلام اليوم، عدد ٦٧.
(٢) انظر: مقابلة مع الشيخ عبد الله بن بية في مجلة الإسلام اليوم، عدد ٦٧.
(٣) الاختيارات الفقهية، ص ٣١٩.

وبالجملة فإن بتر النصوص، وإهمال بعضها ليس «ترشيداً» - كما يقصد الشيخ المذكور - بل هو «تشريد»، وبعثرة للنصوص، وتفريق لها.

ومجاراةً للشيخ ومريديه في الاحتفاء بالبعلي؛ فإن البعلي اختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، واختصر اقتضاء الصراط المستقيم، وأسوق بعض ما جاء في مختصر الفتاوى المصرية: «وليس لأهل الذمة إظهار شيء من شعار دينهم في ديار المسلمين، وليس للمسلمين أن يُعِينُوهم على أعيادهم، لا ببيع ما يستعينون به على عيدهم، ولا بإجارة دوابهم ليركبوها في عيدهم؛ لأن أعيادهم مما حرَّمه الرسول #. وأما إذا فعل المسلمون معهم أعيادهم مثل صبغ البيض، وبخور، وتوسيع النفقات، فهذا أظهر من أن يحتاج إلى سؤال، بل قد نصَّ طائفة من العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك على كفر من يفعل ذلك، ولو تشبَّه المسلم باليهود أو النصارى في شيء من الأمور المختصة بهم، لَنُهِي عن ذلك باتفاق العلماء، بل ليس لأحد من المسلمين أن يخصَّ مواسمهم بشيء مما يخصونها به؛ ومن فعل ذلك على وجه العبادة والتقرُّب به، فإنه يُعرَّف دين الإسلام، وأن هذا ليس منه، بل هو ضده، ويستتاب منه، فإن تاب وإلا قُتِل. وليس لأحد أن يجيب دعوة مسلم يعمل في أعيادهم مثل هذه الأطعمة، ولا يحل له أن يأكل من ذلك»[١].

وأمر آخر فيما يخص التهنئة - التي هي محل خلاف - فيما ليس متعلقاً بأعيادهم وشعائرهم المختصة بهم؛ فتهنئة الكفار بأعيادهم حرام بالاتفاق، بل قد لا يسلم صاحبها من الكفر كما قرره ابن القيم تلميذ ابن تيمية[٢]، بل قال العلاَّمة ابن عثيمين: «التهنئة

(١) مختصر الفتاوى المصرية، ص٥١٧، ٥١٨ = باختصار، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٥١٥، وجامع المسائل: ٣/ ٣٧٤، والمستدرك على الفتاوى: ٣/ ٢٥٥، ومجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣٢٥ - ٣٣١.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: ١/ ٢٠٥، ٢٠٦.

بالأعياد؛ فهذا حرام بلا شك، وربما لا يَسْلَم الإنسان من الكفر؛ لأن تهنئتهم بأعياد الكفر رضاً بها، والرضا بالكفر كفرٌ، ومن ذلك تهنئتهم بما يسمى عيد «الكريسمس» أو عيد «الفصح» أو ما أشبه ذلك»[1].

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء بالسعودية: «لا يجوز للمسلم تهنئة النصارى بأعيادهم؛ لأن في ذلك تعاوناً على الإثم، وقد نهينا عنه، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، كما أن فيه تودداً إليهم، وطلباً لمحبتهم.. وهذا لا يجوز، بل الواجب إظهار عداوتهم»[2].

ودعوى أن الجهاد عند ابن تيمية لأجل المحاربة والعداون، وليس لمجرد الكفر، فهذه دعوى مردودة مكذوبة، والرسالة المنحولة لابن تيمية في ذلك لا تصح ولا تثبت، كما حرره جملة من العلماء والمحققين كابن قاسم[3]، وابن مانع في رسالة خطية بعثها إلى الشيخ ابن سحمان سنة ١٣٤٠هـ[4]، بل صنَّف الشيخ سليمان بن حمدان سنة ١٣٨٢هـ كتاباً مستقلاً يزيد على مائة صفحة في الردِّ على هذه الرسالة المزعومة، وسمى كتابه بـ: «دلالة النصوص والإجماع على فرض القتال للكفر والدفاع»، كما أن الذين سردوا مؤلفات ابن تيمية: كابن رشيق وابن عبد الهادي ونحوهما، لم يذكروا تلك الرسالة، بل إن هذه الدعوى منقوضة بتقريرات ابن تيمية في كتبه المعتمدة، ورسائله الشهيرة، كما في «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين

(١) الشرح الممتع: ٨/ ٧٥، وانظر: فتاوى العقيدة لابن عثيمين، ص ٢٤٦، وكتاب الأعياد المحدثة وموقف الإسلام منها لعبد الله المهنا.

(٢) ٣/ ٤٣٥.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٨/ ٥.

(٤) هذه الرسالة الخطية محفوظة في دارة الملك عبد العزيز بالرياض، رقم (٢٦٣).

المسيح»[١]، و «الصارم المسلول»[٢]، والصفدية[٣]، ومجوع الفتاوى ونحوها[٤].

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «كل من بلغته دعوة رسول الله # إلى دين الله الذي بعثه فلم يستجب له، فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...»[٥].

وأخيراً: فإن على القارئ أن يستصحب أن تراث ابن تيمية يحوي مجاميع متنوعة، ومجلدات كثيرة، بل هو أشبه بالموسوعات المتعددة؛ فلا غرو أن يقع اشتباه وإشكال في مواطن من هذه المؤلفات، أو تَرِدَ عبارات محتملة أو موهمة؛ ومسلك العلم والعدل يقتضي أن يؤخذ بكلام المؤلِّف كله، ويردَّ ما كان مشتبهاً ومجملاً إلى ما كان واضحاً مفصَّلاً؛ فلا يُحتَجُّ بالأغرب منها على الأغلب، ولا يُشغَب بالمغمور على كلامه المشهور[٦].

كما يتعيَّن على أهل السُّنة أن يحققوا الرسوخ في العلم الشرعي، وإحكام منهج السلف، وتحرير مسائل الاعتقاد، والتهيؤ التام لمدافعة الشغب على مذهب السلف، وإبراز القواعد الكلية والأجوبة المتينة تجاه شبهات وأغاليط المخالفين؛ فإن هذا الحِجاج والجدال من أعظم القربات وآكد الحاجات. «قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زيد بن أسلم وغيره: بالعلم؛ فالعلم بحُسْنِ المحاجَّة مما يرفع الله - تعالى - به الدرجات»[٧].

---

(١) ١/ ٧٥، (ط المدني).
(٢) ٢/ ٥١٤.
(٣) ٢/ ٣٢١.
(٤) انظر: ٤/ ٢٠٥، ٢٨/ ٣٤٩، ٣٥٨.
(٥) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٤٩.
(٦) انظر المدخل إلى آثار ابن تيمية، ص ٧٦ - ٧٨.
(٧) بيان تلبيس الجهمية: ١/ ٤٩٣.

«فقصة إبراهيم في العلم بالحجة، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين، والمقصِّرون عن علم الحُجَجِ والدلالات مقهورون مع هذا الصنف، تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شرِّ بعضٍ في الدين، وتارة يعيشون في ظلِّهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم، وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٩٣، ٤٩٤ باختصار.

لِمَ كان القول بخلق القرآن كفراً؟

حكى الإمام اللالكائي (ت ٤١٨هـ) مقالة السلف الصالح: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلقه فهو كافر، وأسندها إلى خمس مائة وخمسين إماماً، سوى الصحابة الأخيار - رضي الله عنهم[١] - ثم قال:

«ولو اشتغلتُ بنقل قول المحدِّثين لبلغتْ أسماؤهم ألوفاً كثيرة، لكني اختصرت وحذفت الأسانيد للاختصار، ونُقلَتْ عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكِر عليهم مُنكِر، ومن أنكر قولهم استتابوه، أو أمروا بقتله، أو نفيه، أو صلبه»[٢].

والأدلة على كون القرآن كلام الله غير مخلوق أكثر من أن تُحصَر، ومن ذلك أن الله - تعالى - فرق بين الخلق والأمر في قوله - تعالى -: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [**الأعراف**: ٥٤]؛ فالخلق خلق الله، والأمر: القرآن.

---

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٢/ ٣١٢، ٢/ ٢١٦ - ٣١٢.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣١٢.

كما فرَّق - سبحانه - بين عِلْمه وخَلْقه، فقال - عز وجل -: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٣]؛ فالقرآن عِلمُه، والإنسان خَلْقُه؛ فعلمه - تعالى - غير مخلوق. قال - سبحانه -: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فالعلم هاهنا هو القرآن.

وفي حديث خولة بيت حكيم - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق، لم يضرَّه شيء حتى يرحل من منزله ذلك»(١).

فلكمات الله غير مخلوقة؛ إذ لا يُشرَع الاستعاذة بمخلوق، وإنما يستعاذ بالله - تعالى - وبأسمائه وصفاته.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «فَضْل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»(٢)؛ فلو كان كلام الله مخلوقاً لم يكن فضل ما بينه وبين سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وليس شيء من المخلوقين من التفاوت في فضل ما بينهما كما بين الله وبين خَلْقِه»(٣).

فالقول بخلق القرآن كفر ظاهر؛ إذ هو تكذيب لنصوص الوحيين، وإلحاد في أسماء الله وصفاته، وتعطيل لما يحب الله - عز وجل - من الكمال، أفيقال بعد هذا: إن هذه المسألة ليست من أصول الدين(٤)؟

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٩٠، وأبو داود: (٤٧٣٤)، والترمذي: (٢٩٢٥) وصححه.
(٣) انظر: الرد على الجهمية لعثمان الدارمي: ص ١٦٢.
(٤) قالها بعض الذين أُشربوا البدعة كالمقبلي في العلم الشامخ، وأبي غدة في مسألة خلق القرآن، وتبعهم بعض متسننة هذا العصر، أرباب الترنح والتلفيق.
انظر في الرد عليهم: رسالة تنبيه الإخوان، لحمود التويجري، والمحنة وأثرها في منهج الإمام أحمد، لعبد الله الفوزان.

أيُظَن أن السلف الصالح يكفِّرون ويغلِّظون على من خالفهم في مسألة فروعية؟

أيُظَن أن الإمام أحمد بن حنبل يُعرِّض نفسه للتلف لأجل مسألة يسوغ فيها الخلاف؟

فلقد كابد الإمام أحمد السجن أكثر من عامين، وتخلَّى عنه الناس، وتوالت عليه السياط، وعانى الضرب الشديد حتى تخلَّعت يداه، وتفاقمت جروحه، ومُنع من صلاة الجمعة والجماعة... أفيكون ذلك كله لأجل أمر اجتهادي؟ رحم الله الإمام علياً بنَ المدني؛ إذ يقول: «أعز الله الدين بالصدِّيق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة»[1]، بل قال بِشْر الحافي بشأن الذين أجابوا في المحنة: «وددت أن رؤوسهم خُضِّبت بدمائهم، وأنهم لم يجيبوا».

والمقصود أن القول بخلق القرآن من أشنع الزندقة وأخبثها، وقد أدرك سلفنا الصالح فداحة هذه الزندقة ومآلاتها، وبيَّنوا مناقضتها لأصول الإسلام؛ سواء في الدلائل أو المسائل:

فأما الدلائل: فإن القول بخلق القرآن باعثُه القياس الفاسد والعقل المريح؛ فهو تحاكم وتسليم لعلم الكلام والابتداع، وإعراض واعتراض على نصوص الوحيين (أصدق الكلام وخير الهدي)[2].

لقد أكمل الله - تعالى - لأمة الإسلام الدين وأتم عليهم النعمة: «فنحن نعلم أن كل حق يحتاج الناس إليه في أصول دينهم لا بد أن يكون مما بيَّنه الرسول ﷺ؛ فكيف يجوز أن يترك الرسول أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها لا يبينها للناس؟

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى: ١/ ٢٨.

(٢) انظر: الأشاعرة عرض ونقد لسفر الحوالي: ص ٦٤ - ٦٦.

وهذا مما احتج به علماء السُّنة على من دعاهم إلى قول الجهمية القائلين بخلق القرآن، وقالوا: إن هذا لو كان من الدين الذي يجب الدعاء إليه لعرَّفه الرسول ﷺ، ودعا أمته إليه... فكل من دعا إلى شيء من الدين بلا أصل من كتاب الله وسُنة رسوله لقد دعا إلى بدعته وضلالته»[1].

وأما مناقضتها لأصول الإسلام في مسائله: فهي تنقض أصلَي شهادة لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ؛ فالقول بخلق القرآن تعطيل لرب العالمين - عز وجل - وطعن في الرسالة وإبطال للشرائع... وهذا قد جاء مبيَّناً في آثار السلف الصالح؛ فقد قال الإمام عبد الله بن إدريس: من قال القرآن مخلوق فقد أمات من الله شيئاً[2].

«وقال الإمام أحمد بن حنبل: إذا زعموا أن القرآن مخلوق فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة.

فأجاب أحمد بأنهم وإن لم يقولوا بخلق أسمائه فقولهم يتضمن ذلك، ونحن لا نشك في ذلك حتى نقف فيه»[3].

وقال عبد الله بن أيوب المخرمي: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: إنه مخلوق، فقد أبطل الصوم والحج والجهاد وفرائض الله»[4].

وقد أوجز ابن تيمية هذا الطعن في الشهادتين لدى القائلين بخلق القرآن؛ فقال: «وكان أهل العلم والإيمان قد عرفوا باطن زندقتهم ونفاقَهم، وأن المقصود بقولهم: إن القرآن مخلوق أن الله لا يكلم ولا يتكلَّم، ولا قال ولا يقول، وبهذا تتعطل سائر

(١) الدرء لابن تيمية: ١/ ٢٣٣ - ٢٣٤ = باختصار.
(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (الرد على الجهمية): ٢/ ٤٤.
(٣) التسعينية: ٢/ ٥٧٧ - ٥٨١.
(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة (الرد على الجهمية): ١/ ٣٥٢.

الصفات: من العلم والسمع والبصر وسائر ما جاءتْ به الكتب الإلهية، وفيه أيضاً قدح في نفس الرسالة؛ فإن الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قُدِح في أن الله يتكلم كان ذلك قدحاً في رسالة المرسلين، فعلموا أن في باطن ما جاؤوا به قدحاً عظيماً في كثير من أصلَي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله»[(١)].

لقد كانت مقالة الأشاعرة في القرآن أقلَّ انحرافاً من مقالة المعتزلة؛ فإن المعتزلة يزعمون أن القرآن مخلوق لفظاً ومعنىً، وأما الأشاعرة فيجعلون القرآن هو المعنى القائم بذات الله، وأما الحروف والأصوات فهي دالة عليه، وهي مخلوقة. ومع ذلك فإن مقالة الأشاعرة قد آلت بالمتأخرين منهم إلى القول بأن المصحف ليس فيه إلا المداد والورق، فامتهنوا القرآن وداسوه بأرجلهم[(٢)].

وأخيراً فإن المتعين الرسوخ في فقه هذه المسألة الجليلة، وإظهارها بين الخلائق، وبيان عمق علم السلف، وحِدَّة أفهامهم، ودرايتهم بمآلات الأقوال ولوازمها، خلافاً لمن تنكَّب سبيلهم فهوَّن من شأن هذه المسألة، وخاض فيها بالباطل، وانتقص أهل السُّنة، فجمع بين الجهل والظلم، فلا عِلْم مصدَّق ولا عدل محقَّق. وبالله التوفيق.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية: ٣/٥١٨ – ٥١٩، وانظر: شرح الأصفهانية (ت: مخلوف): ص ٦٠، ومجموع الفتاوى: ١٢/٧.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٨/ ٤٢٥.

«رفض» الخرافة «وشيعة» الدجال

ساق آية الله البرقعي حكايةً واقعيةً فقال: (ذهبتْ ناقةٌ داخل صحن الإمام الرضا في مشهد خرسان فأحاطها الناس، وأحدثوا صخباً، وقالوا: إن الناقة أتت لزيارة الإمام، وبدؤوا يجزُّون شعرها تبرُّكاً بها، وآذوها بذلك حتى ماتت.

وبعد ذلك جاء أحد علماء الشيعة ومجتهديهم إلى بيتي وسألني: ماذا تقول في هذه المعجزة وأن الناقة أتت إلى الزيارة؛ هل تنكر ذلك؟ فسألتُه: لماذا تراها أتت تلك الناقة بالذات ولم تأتِ غيرُها؟ هنا أجابني ذلك المجتهد: إن هذه الناقة كانت شيعية، وبقيَّة النوق سنِّية)[١].

ولئن كانت هذه الواقعة تكشف عن خَواء الوجدان والإيمان عند الرافضة؛ إذ جانبوا الإيمان والتقوى، فحُرمُوا ولاية الله - تعالى - وأجدبوا من كرامات الأولياء والصالحين؛ ولذا هوَّلوا من شأن هذه الناقة (المنكوبة بغلوهم وتبرُّكهم)، وقد أبان

(١) كسر الصنم: ص ٢٥٠.

ابن تيمية – رحمه الله – عن ذلك بقوله: (لكن الرافضة لجهلهم وظلمهم وبُعدهم عن طريق أولياء الله، ليس لهم من كرامات الأولياء المتقين ما يُعتدُّ به؛ فهم لإفلاسهم منها إذا سمعوا شيئاً من خوارق العادات عظَّموه تعظيم المفلس للقليل من النقد، والجائع للكسرة من الخبز)[1].

لئن كان الأمر كذلك، فإن الأشنع من ذلك كله، هو أن مذهب الرافضة لا يروج إلا بالأساطير والأوهام، والخرافات والأكاذيب؛ فهم مولعون بالأفك والبهتان، وإنكار الضروريات والقطعيات؛ فيكذِّبون النقول الصحيحة، ويصادمون العقول الصريحة، ويناقضون الفطر السويَّة؛ (فالقوم من أكذب الناس في النقليات، ومن أجهل الناس في العقليات، ويصدقون من المنقول بما يعلم العلماء بالاضطرار أنه من الأباطيل، ويكذِّبون بالمعلوم من الاضطرار المتواتر أعظم تواتر في الأمة جيلاً بعد جيل)[2].

وشغب الرافضة لا ينقضي، ونزقهم وفجورهم في الخصومة فوق الحسبان؛ لا سيما في هذه الأزمان، ولا ريب أن مدافعتهم ومجالدتهم من أجلِّ القربات وأنفع الطاعات؛ إلا أن آكد أوجه المدافعة وأنكاها: كشف عوار أصل الإمامة وبيان تناقضه وتهافته؛ فالإمامة أهم أصول الرافضة؛ (فهي الأصل الذي تدور عليه أحاديثهم، وترجع إليه عقائدهم، وتلمس أثره في فقههم وأصولهم، وتفاسيرهم وسائر علومهم)[3].

فسراب الإمام الغائب المعدوم هو دين القوم المتهافت، وسعيهم الكادح، وهو الذي أفسد دينهم، وطمس عقولهم، واستنزف أموالهم.

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٨/٢٠٣.
(٢) منهاج السنة النبوية: ٨/١.
(٣) أصول مذهب الشيعة للقفاري: ٢/٦٥٣.

وإذا تبيَّن أهمية نقض هذا الأصل، فلا يصلح أن تُبَعثَر جهود أهل السُّنة تجاه الرافضة في الانهماك في مدافعة جزئيات متفرقة أو مسائل متعددة.

وقد فطن علماؤنا إلى نقض هذا الأصل ونسفه، وتنوَّعت أساليبهم في هذا الشأن.

فمما حرره القاضي أبو يعلى في بطلان (الإمامة) قوله: (الإمام منصوب للذبِّ عن حريم المسلمين، ولينصر الحق، ويدفع الباطل، وينتصف المظلوم من الظالم، ويبيِّن الحلال من الحرام، ويقاتل عن دين الله، ويقيم الناس على الطريقة المستقيمة، وهذه المعاني معدومة في المعدوم الذي لا يوجد في برٍّ ولا بحر، ولا سهل ولا جبل. ولأن هذه الطائفة تقول: إنَّ أحداً لا يعرف حقيقة دينه إلا بأن يأخذه من إمامه، ولو كان كذلك لم يُحجَب عنهم؛ لأن في ذلك تكليف ما لا يطاق؛ لأنه كلَّفهم الاقتداء بمن قد أحال بينهم وبينه من غير دليل.

وما هم في دعواهم (إمامة الغائب المعدوم) إلا كقول بعض الصبيان:

زعم الزاعم في بلدتنا
جمل في كوَّة البيت دخلْ
قلت: لا أعلم ما بلدتكم
هذه الكوَّة فادخل يا جملْ»[1]

وأورد ابن حزم اضطراب الرافضة في شأن الإمام المعدوم، ثم قال: (وكل هذا هَوَس، ولم يُعقِب الحسن[2] المذكور لا ذكراً ولا أنثى، فهذا أول نَوْك (حمق) الشيعة، ومفتاح عظيماتهم، وأخفُّها، وإن كانت مهلكة)[3].

(١) المعتمد في أصول الدين: ص ٢٥٩ = باختصار.
(٢) أي: الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر عند الرافضة).
(٣) الفِصَل في الملل والنحل: ٤/١٨١.

وناظر ابنُ تيمية أحد شيوخ الرافضة بشأن الإمامة، فكان مما سطَّره ما يلي: (قلتُ له: فأنا وأنت طالبان للعلم والحق، وهم يقولون: من لم يؤمن بالمنتظر فهو كافر؛ فهذا المنتظر: هل رأيته؟ أو رأيتَ من رآه؟ أو تعرف شيئاً من كلامه الذي قاله هو؟ أو ما أمر به أو ما نهى عنه مأخوذاً كما يؤخذ عن الأئمة؟ قال: لا.

قلت: فأي فائدة في إيماننا هذا؟ وأي لطف يحصل لنا بهذا؟ ثم كيف يجوز أن يكلِّفنا الله بطاعة شخص، ونحن لا نعلم ما يأمرنا به، ولا ما ينهانا عنه، ولا طريق لنا إلى معرفة ذلك بوجه من الوجوه؟ وهم من أشد الناس إنكاراً لتكليف ما لا يطاق؛ فهل يكون في تكليف ما لا يطاق أبلغ من هذا؟)[1].

وحدِّث ابن القيم عن خرافة المنتظر فقال: (إنه الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار، دخل سرداب سامِرَّاء طفلاً صغيراً، فلم ترَه بعد ذلك عين، ولم يُحَسَّ فيه بخبر، ولا أمر، وهم ينتظرونه كل يوم... ثم يرجعون بالخيبة والحرامان، فهذا دأبهم ودأبه... لقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كلُّ عاقل)[2].

وقد أطال عبد العزيز الدهلوي في الرد على أصل الإمامة وشبهاتهم، وكشف عن اضطرابهم واختلافهم في ذلك؛ فدعواهم أن الإمام الغائب اختفى خوفاً من القتل، منقوض بقولهم: إن موت الأئمة باختيارهم[3].

وأما قولهم عدم تصرف الإمام لأجل كثرة الفساد وقلة الأنصار، فأجاب عنه الدهلوي قائلاً: (قد كثر محبُّوه وناصروه في زمن الدولة الصفوية أكثر من رمل الصحاري والحصى، والاختفاء منافٍ لمنصب الإمامة الذي مبناه على الشجاعة والجرأة؛ فهلاَّ خرج وصبر واستقام إلى أن ظفر؟)[4].

---

(١) منهاج السنة: ١/١٠٢ - ١٠٣.
(٢) المنار المنيف: ص ١٥٢.
(٣) مختصر التحفة الإثني عشرية: ص ١١٨.
(٤) مختصر التحفة الإثني عشرية: ص ١١٩.

وقال الدهلوي في موضع آخر: (والحق من تأمَّل في هذا المذهب تأمُّلاً صادقاً، فقد علم باليقين أن سبيل النجاة في هذا المذهب مسدود، وطريق الخلاص من مضيق التعارض فيه مفقود؛ فبالضرورة يتركه... وذلك أن الشيعة لهم روايات كثيرة متعارضة عن أئمتهم؛ بحيث يروون عن كل إمام كلاماً مخالفاً للإمام الآخر، ومخالفاً لكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ)[1].

ومن غلوِّ الرافضة في الأئمة: مقالتهم بالحلول والاتحاد؛ فإن عقيدة الحلول ووحدة الوجود قد عَلِقت بعقولهم؛ فزعموا أن الله - تعالى - والأئمة قد اختلطوا وامتزجوا - تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً - فنسب الكليني في الكافي إلى جعفر الصادق أنه قال: (ثم مَسَحَنا بيمينه، فأفضى نوره فينا... ولكن الله خلطنا بنفسه)[2].

وإذا كان الرافضة أرباب وَلَه وغرام بأنماط الدجل والخرافات، ثم هم يقررون اتحاد الخالق بالمخلوق، ويدَّعون الإلهية والتدبير المطلق لأئمتهم؛ فكيف إذا خرج الدجال الأكبر الأعور بخوارقه الهائلة، ودعواه العريضة بأنه الله؟

ولما ذكر ابن تيمية طَرَفاً من الأحاديث الصحيحة في الاستعاذة من فتنة الدجال، أشار إلى أتباع الدجال وشيعته فقال: (وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر أصحابه بهذا التعوُّذ خارج الصلاة أيضاً، وقد جاء مطلقاً ومقيَّداً في الصلاة. ومعلوم أن ما ذُكِر معه من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، أُمر به كل مصلٍّ؛ إذ هذه الفتن مجرية على كل أحد، ولا نجاة إلا بالنجاة منها، فدلَّ على أن فتنة الدجال كذلك، ولو لم تصب فتنته إلا مجرد الذين يدركونه لم يؤمر بذلك كلُ الخلق، مع العلم بأن جماهير العباد لا يدركونه، ولا يدركه إلا أقلُّ القليل من الناس المأمورين

(١) المرجع السابق: ص ١٩٠.
(٢) انظر: أصول مذهب الشيعة للقفاري: ٢/ ٥١٨ - ٥٢٠.

بهذا الدعاء، وهكذا إنذار الأنبياء إياه أممَهم - حتى أنذر نوح قومه - يقتضي تخويف عموم فتنته، وإن تأخَّر وجود شخصه حتى يقتلَه المسيح بن مريم، عليه السلام. وكثيراً ما كان يقع في قلبي أن هؤلاء الطائفة ونحوهم أحق الناس باتباع الدجال؛ فإن القائلين بالاتحاد والحلول - كقول النصارى في المسيح، والغالية الهالكة في عليٍّ أو فيه وفي غيره؛ كما ذهب إلى ذلك طوائف من غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة - لا يمتنع على قولهم أن يكون الدجال ونحوه هو الله)[1].

وأخيراً فلا بد من تبديد هذه الظلمات ودحضها، وإظهار نور الوحي والسُّنة، وتبليغ رسالات الله - تعالى - ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ثم دعوة الرافضة والنظر إليهم بعين الرحمة والإشفاق، وحثِّهم على إعمال عقولهم، وتحريرها من رِقِّ استبداد الملالي والآيات؛ فإن البحث والتحقيق، والنظر والتفكير يعقبه الإيمان الصحيح وبرد اليقين، وكما قال أحد عقلاء الشيعة (آية الله الخوئيني): (بعد خمسين سنة من البحث والمطالعة ومعرفة الإسلام والبحث في مختلف المذاهب الفلسفية والعرفانية وأفكار الغلاة ومختلف المذاهب، وصلتُ إلى النتيجة: أن حقيقة الدين هو القرآن الكريم؛ فإن القرآن يدعونا مراراً إلى قراءته والتدبُّر والتفكر فيه. وسبب كل هذا الضلال والحيرة هو عدم قراءة القرآن والتدبر في القرآن)[2].

وكان يقول: (تركتُ منصباً بعدما كنتُ مرجعاً للمذهب كالآخرين ابتغاء وجه الله. لو لم أترك لكنت خائناً، لن أكون من أهل التزوير، ولن آخذ أموالاً من الناس، ولن أكون إلى ترويج المذهب، بل سأكون موحداً ومتبعاً للإسلام)[3].

---

(١) السبعينية (بغية المرتاد): ص ٥١٤.

(٢) أعلام التصحيح والاعتدال لخالد البديوي: ص ٢٢٩.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٣٠.

هل يُستعان بالجن؟

ساق القاضي عياض ترجمة لأبي خارجة عنبسة الغافقي (ت ٢١٠هـ)، وحكى عجائبه وأخباره، ومنها أنه قيل عن عنبسة: «كان عنده عِلْم الزجر[١]، وبعضهم يقول: بل من خدمة الجن، ومنهم من يزعم أنه كان صالحاً يُجري الله الحق على لسانه؛ فينطق به»[٢] ثم تعقَّب ذلك القاضي قائلاً: «وأنا بريء من عُهدة هذه التأويلات إلا الأخيرة؛ فالحديث الصريح يحتج لها»[٣]؛ فالقاضي عياض يبرأ من عِلْم بخدمة الجان، كما يبرأ من زَجْر الطير على سبيل التشاؤم.

ولما ترجم الحافظ ابن رجب لأحمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت ٦٩٧هـ) وما لديه من غرائب، فقال: «برع في معرفة تعبير الرؤيا، وانفرد بذلك؛ بحيث لم يشارَك فيه، وكان الناس يتحيَّرون منه إذا عَبَرَ الرؤيا، وله في ذلك حكايات كثيرة

(١) الزجر: هو ضرب من التطير والتشاؤم.
(٢) ترتيب المدارك: ١/ ٢٨٢.
(٣) ترتيب المدارك: ١/ ٢٨٢.

غريبة مشهورة، وهي من أعجب العجب، وكان جماعة من العلماء يقولون: إن له رئيّاً من الجن، وكان مع ذلك كثير العبادة، لكن يقال: إنه كان يتعبَّد على وجوه غير مشروعة، كالصلاة في وقت النهي! وذكر عنه بعض أقاربه أنه رأى عنده شيئاً من آثار الجن»(١).

وأورد الشوكاني عجائب العباس المغربي الذي قَدِم صنعاء اليمن سنة ١٢٠٠هـ؛ فكان إذا احتاج إلى دراهم، أخذ بياضاً، وقطَّعه على حجم تلك الدراهم، ثم يجعلها في وعاء، ويتلو عليها (!) فتنقلب دراهم! وذلك بواسطة «خادم من الجن»(٢).

هذه الغرائب لو علم بها بعض الرقاة لتشبثوا بها في هذا التوسع المريب في الاستعانة بالجن في التداوي وحَلِّ السحر والعين وأشباهه، إضافة إلى تعويلهم على بعض فتاوى للمعاصرين، وما قد يفهمونه من كلام لابن تيمية في كتابه: «النبوات» وغيره.

إن هذه النازلة تستدعي جملة من الوقفات، منها:

- أن الاستعانة بالجن لم تكن من هدي النبي ﷺ، ولا سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم.

قال ابن تيمية: «لم يستخدم (النبي ﷺ) الجن أصلًا، لكن دعاهم إلى الإيمان بالله، وقرأ عليهم القرآن، وبلَّغهم الرسالة، وبايعهم، كما فعل بالإنس»(٣).

كما أنه لم يُنقل عن جمهور الصحابة (الاستعانة بالجن في التداوي وحَلِّ السحر والعين) وهم أدرى الناس وأعمق هذه الأمة علماً وأتمِّها إيماناً؛ ولو أنهم فعلوا ذلك

(١) ذيل طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧ = باختصار.
(٢) انظر البدر الطالع: ١/ ٣١٤.
(٣) الفرقان بين الحق والباطل، (مجموع الفتاوى: ١٣/ ٨٩).

أو قالوه لنُقِل عنهم؛ إذ إن ذلك مما تتوفر الدواعي لنقله؛ فدلَّ ذلك على أن مجانبة الاستعانة بالجن هو السُّنة والصراط المستقيم.

- أن نبينا محمداً ﷺ كان يتصرف في الجن كتصرفه في الإنس، تصرُّف عبدٍ رسولٍ، والواجب على المسلم أن يستعمل في الجن ما يستعمله في الإنس: من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله كما شرع الله ورسوله... ولم يتصرَّف فيهم كتصرف سليمان بن داود - عليهما السلام - إذ تصرُّف سليمان بالجن هو تصرف ملكي؛ إذ كان رسولاً مَلِكاً، وكان نبينا محمد ﷺ عبداً رسولاً؛ والعبد الرسول أفضل من الملِك الرسول[1]

والجن لا تخضع بإطلاق لأحد من الناس، ولو خدمتْ أحداً؛ فلا يكون إلا بمعاوضة واستمتاع، كما بيَّنه ابن تيمية بقوله: «وليس أحد من الناس تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان بتسخير من الله وأَمْرٍ منه من غير معاوضة. قال - تعالى -: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢ - ١٣].

والذي أعطاه الله لسليمان - عليه السلام - خارج عن قدرة الجن والإنس؛ فإنه لا يستطيع أحد أن يُسخِّر الجن مطلقاً لطاعته، ولا يستخدم أحداً منهم؛ إلا بمعاوضة: إما عمل مذموم تحبُّه الجن، وإما قول تخضع له الشياطين، كالعزائم[2]؛ فإن كل جني فوقه من هو أعلى منه؛ فقد يخدمون بعض الناس طاعة لمن فوقهم»[3].

(١) انظر إيضاح الدلالة لابن تيمية، (مجموع الفتاوى: ١٩/ ٣٩، ٥١).
(٢) العزائم: من أنواع السحر.
(٣) النبوات: ٢/ ١٠١٤.

والمقصود أن الاستعانة بالجن واستخدامهم مطلقاً ليست من الشرع المحمدي، ولا من التصرف القدري الذي كان آية لسليمان، عليه السلام؛ فلا هي مشروعة ولا مقدورة.

- إذا كان الأصل في سؤال الناس التحريم، والأحاديث في النهي عن ذلك متواترة عن رسول الله ﷺ؛ لما فيه من التفات إلى غير الله - تعالى - وافتقار إلى البشر، وهذا نوع شرك[1]؛ فكيف بسؤال الجن الذي لا ينفك عن مفاسد متحققة ومتوقَّعة؟ ولا سيما أن للجن من القدرات والتصرفات ما ليس للبشر، وهو ما يزيد البلاء، ويُعظِم الفتنة، «والجن أعظم شيطنة، وأقل عقلاً، وأكثر جهلاً»[2] و «والإنس أعقل وأصدق وأعدل وأوفى بالعهد، والجن أجهل وأكذب وأظلم وأغدر»[3].

- أن الاستعانة بالجن ليست سبباً ظاهراً في حصول المطلوب؛ ولذا أمر الإمام أحمد بن حنبل بترك ذلك، كما جاء في آخر كتاب الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي: «وقد قال أحمد في رواية الفرج بن علي الصباح البرزاطي: في الرجل يزعم أنه يعالج المجنون من الصراع بالرقى والعزائم، ويزعم أنه يخاطب الجن ويكلِّمهم، ومنهم من يخدمه ويحدِّثه، فقال أحمد: «ما أحبُّ لأحد أن يفعله، وتَرْكه أحبُّ إليَّ»[4].

ولو كان سبباً، فإن مفاسده تربو على مصالحه، ومضرته أعظم من نفعه.

---

(١) انظر: قاعدة جليلة لابن تيمية، ص ٥١، ٦٦، ومجموع الفتاوى: ٨/ ٥٣٨، ١٠/ ١٨٢، والرد على البكري لابن تيمية، ص ٣٤١.

(٢) إيضاح الدلالة، (مجموع الفتاوى: ١٩/ ٤٦).

(٣) النبوات: ٢/ ١٠١٥.

(٤) الأحكام السلطانية، ص ٣٠٨

والاستعانة بهم هي التفات إلى من لا تُعرَف أحوالهم، ولا تُعرف أشخاصهم ولا عدالتهم؛ فهم مجهولو العين والحال، كما أن الاستعانة بالجن تفتح أبواباً من الشرور والبلايا، والشريعة قد جاءت بسدِّ الذرائع وحماية جَنَاب التوحيد، ومَنْع كل طريق يوصل إلى الشرك.

وقد جاءت فتوى اللجنة الدائمة بالسعودية بمنع الاستعانة بالجن مطلقاً[1]، وكذا منعه الشيخ ابن باز - رحمه الله - والشيخ صالح الفوزان، وغيرهما.

كما أن الاستعانة بالجن هي استعانة بالغائبين، والاستعانة الجائزة إنما تكون بحاضر حي قادر، بل إن هذه الاستعانة تحاكي الاستعاذة بالجن، وخاصة أن الاستعاذة والاستعانة متقاربة المعنى.

أورد الحافظ ابن كثير حكاية كروم الأنصار - رضي الله عنه - وفيها: أنه خرج مع أبيه من المدينة في حاجةٍ، وذلك أول ما ذُكِر رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حَمَلاً من الغنم، فوثب الراعي، فقال: يا عامر الوادي جارك! فنادى منادٍ لا نراه يقول: يا سِرْحان[2] أرسله! فأتى الحَمَلُ يشتد[3] حتى دخل في الغنم لم تُصبه كدمة؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ بمكة: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ [**الجن**: ٦].

قال ابن كثير: «وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحَمَلَ (وهو ولد الشاة) كان جنيّاً حتى يُرْهب الإنسي ويخاف منه، ثم ردَّه عليه لما استجار به؛ ليضلَّه ويهينه ويخرجه عن دينه، والله أعلم»[4].

---

(١) انظر مجلة البيان، عدد (١٤١).

(٢) السِرْحان: الذئب.

(٣) يشتد: يُسرِع.

(٤) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٦٧، (ط دار الشعب).

ونخلص إلى أن الاستعانة بالجن ليست سُنة مأثورة، ولا سبيل سلف الأمة الأوائل؛ فهي لا تنفك عن تعلُّق والتفاتٍ ينافي تحقيق التوحيد، بل ربما أفضى إلى الشرك الصراح، إضافة إلى أن الاستعانة بالجن ليست سبباً ظاهراً معقولاً، وإنما هي تعويل على مجهول، وتشبث بمن لا يدري عن عدالته وصدقه؛ فهل بعد هذا يسوغ تقرير الاستعانة بالجن؟

الاستعمار والاحتفاء بالمـــولد!

حكى المؤرِّخ الجبرتي أن الفرنسيين في مصر أحيوا الاحتفال بالمولد النبوي سنة ١٢١٣هـ ودفعو تكالفيه، واجتمعوا في يوم المولد ولعبوا وضربوا طبولهم(١).

وأورد الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٤هـ أن (الفرنساوية) أذِنوا بإقامة الموالد «لِـمَا رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفِعْل المحرَّمات»(٢).

وأشار الجبرتي إلى أن طبيعة (الفرنساوية) المجون والخلاعة(٣). وهذا متحقق في المولد كما شوهد وجُرِّب.

ومن شواهد هذه الأيام أن السفير الأمريكي بالقاهرة لا يفوته مولد البدوي(٤).

---

(١) تاريخ الجبرتي: ٢/ ٢٠١.
(٢) تاريخ الجبرتي: ٢/ ٣٠٦.
(٣) تاريخ الجبرتي: ٢/ ٢٤٤.
(٤) التصوف لمحمد المقدي، ص٣١.

فالبدوي يحمي الوحوش في البر، والأسماك في البحر؛ فكيف يعجز عن حماية من يحضر مولده؟ كما جاء في هذيان الشعراني في طبقاته(١).

وعندما يحتفي المستعمر النصراني بالمولد فَلأجل ما في هذه الموالد من الغلو والإطراء للأنبياء والأولياء، ودين النصارى قائم على ذلك الغلو والإفراط، وقد قال ﷺ: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم»(٢)، إضافة إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي فيه تشبُّه بالكافرين في الاحتفال بميلاد عيسى، عليه السلام.

والمقصود أن النصارى يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهل من المسلمين مما يوافق دينهم، ويشابهونهم فيه(٣).

ومن المعلوم أن الاحتفال بالمولد النبوي وجَعْلَه عيداً: من البدع الحادثة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ ولا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ حتى قال الفاكهاني (ت ٧٣٤هـ): «لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا يُنقَل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطَّالون، وشهوة نَفْس اغتنى بها الأكَّالون»(٤).

وقال ابن الحاج (ت ٧٣٧هـ): «. . . ومن جملة ما أحدثوه من البدع مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات وإظهار الشعائر، ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد، وقد احتوى على بدع ومحرَّمات»(٥).

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني: ١/ ١٦٢.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧/ ٤٦٢.
(٤) المورد في عمل المولد ص ٨ - ٩.
(٥) المدخل: ٢/ ٢٢٩.

وقد حرر ابن تيمية حكم المولد، وبيَّن وجه كونه بدعة، وما في الاحتفال بالمولد من عزوف عن السنن وفتور عن لزوم الشرع، فقال: «وكذلك ما يحدثه بعض الناس: إما مضاهاة للنصارى في ميلاد المسيح عيسى - عليه السلام - وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيماً، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد، لا على البدع (من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً، مع اختلاف الناس في مولده)؛ فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع فيه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف - رضي الله عنهم - أحقُّ به منا؛ فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منَّا. وأكثر هؤلاء الذين تجدهم حرصاء على أمثال هذه البدع مع ما لهم فيه من حُسْن القصد والاجتهاد الذي يُرجى لهم به المثوبة، تجدهم فاترين في أمر الرسول عمَّا أُمِروا بالنشاط فيه»[1].

والحاصل أن الاحتفال بالمولد بدعة محدَثة؛ لأن السلف الصالح من القرون المفضَّلة لم يفعلوه مع قيام المقتضي وانتفاء المانع، ولو فعلوا ذلك لنُقِل، فلما لم يُنقل مع توفر الدواعي والهمم على نقله، دلَّ على أن هذا الترك الراتب هو السُّنة التي لا محيد عنها.

ثم إن ابن تيمية - وهو على جادَّة أئمة أهل السُّنة الذين يرحمون الخلق ويعلمون الحق - بيَّن أن بعض الذين يحضرون المولد قد يُثابون على محبة الرسول ﷺ وحُسْن النية، ولكن لا يثاب الشخص على البدعة والإحداث في دين الله، تعالى. فالبدعة لا تنفك عن الإثم والعقوبة والذلِّ والصغار؛ فلا يُحكَم بتأثيم كل من حضر المولد، كما لا يقال بحصول الثواب لمن حضره. وكعادة ابن تيمية في قوة حجته وتنويع أدلَّته في الردِّ على المبتدعة؛ سواء من الشرع المنزَّل أو العقل الصريح أو الفطرة الضرورية،

---

(١) الاقتضاء: ٢/ ٦١٥.

فقد أكَّد - رحمه الله - أن الاشتغال بالبدع يزهِّد في السنن، وحضورَ الأعيادة المبتدَعة ينقص قدر الأعياد المشروعة (الفطر والأضحى)، وأن هذا أمر يجده الإنسان في نفسه ضرورةً، فقال - رحمه الله -: «من شأن الجسد إذا كان جائعاً فأخذ من طعام حاجته استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل فيه إلا بكراهة وتجشُّم، وربما ضرَّه أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه؛ فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلَّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض عن غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمَّته إلى المشروع؛ فإنه تعظُم محبته له ومنفعته به»[1]. إلى أن قال: «وأقل الدرجات أنك لو فرضت رجلين أحدهما قد اجتمع اهتمامه بأمر العيد على المشروع، والآخر مهتم بهذا وهذا، فإنك بالضرورة تجد المتجرِّد للمشروع أعظم اهتماماً به من المشرك بينه وبين غيره، ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه، وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشرائع. وأما الإحساس بفتور الرغبة فيجده كل أحد، فإنا نجد الرجل إذا كسا أولاده، أو وسَّع عليهم في بعض الأعياد المسخوطة؛ فلا بد أن تنقص حرمة العيد المرضي من قلوبهم»[2].

ولا بد أن نشير إلى أن أجدى وأبقى وسيلة في مدافعة الأعياد البدعية ونحوها هي إظهار السنن النبوية ولزومُها والدعوةُ إليها؛ فالنفوس خُلقَت لتعمل لا لتُتْرك، والإنسان بطبيعته حارث عامل. فالاعتصام بالمشروع يمنع من السقوط في الممنوع، ولزوم السنن يحفظ المرءَ من الولوغ في البدع.

ولئن كان المتكلمة قد اختاروا السلب والنفي في الصفات الإلهية، ولحقهم المتصوفة فأصابهم الولع بالنفي والتروك في السلوك، فقد تأثر بعض المتسنِّنة بذلك؛

(١) الاقتضاء: ١/ ٤٨٣.

(٢) الاقتضاء: ١/ ٤٨٥.

فاستحوذ على فريق منهم تتبُّعُ المحدَثات المغمورة والمشهورة والظاهرة والمطمورة بدعوى التحذير والتنبيه، وغلب على خطابهم الترك والمنع، والمتعيِّن إظهار سنن سيد المرسلين ﷺ، وتبليغ رسالات الله في جميع الأصقاع؛ فهذا مقدور ومشروع.

ومهما يكن فإن بعض الآراء الرخوة التي قالها بعض المنتسبين لأهل السُّنة من أسباب تسلُّط «عشاق» المولد وشغبهم على عموم أهل السُّنة المحضة؛ حيث سوَّغ بعض المتسنِّنة احتفالَ الشخص بميلاده أو زواجه، وجوَّز آخرون الذكريات الوطنية.

فقال عشاق المولد النبوي لعشاق مولد الصبيان والأوطان والزواج بالنسوان: أنتم تنكرون علينا الاحتفال بمولد سيِّد الثقلين ﷺ، ثم أنتم هؤلاء تسوِّغون ما دون ذلك بمراحل ومراحل؛ فلئن جاز فِعْلكم فإن فعلنا أَوْلَى وأحرى بالجواز والاتباع.

إن المواقف الواضحة والحازمة تجاه هذه الأعياد المحدَثة هو المسلك السديد في براهينه واطِّراده واتساقه؛ فالعيد يومٌ يُعتَاد مجيئه كلَّ عام أو شهر. ويتحقق فيه اجتماع وأعمال؛ كما في عيديِّ الفطر والأضحى، وما عدا ذلك فهو من البدع والمحدثات، ومن التشبُّه بالكفرة والمشركين، وأما أن يتحذلق بعضهم ويسوِّغ هذه الأعياد بدعوى أنه لا يُتعبَّد بها، فليس كذلك؛ فالأعياد من جملة العبادات: كالقِبلَة والصلاة والصيام. أو يتكلف بعضهم جواز الاحتفال بميلاد ولده أو وطنه على أن لا يسمى عيداً؛ وإنما هي ذكرى أو مناسبة. فهذا تأويل بارد؛ إذ العبرة بالحقائق والمعاني لا بمجرد الألفاظ والمباني، إضافة إلى ما فيها من مضاهاة الأعياد الشرعية ومزاحمتها.

وأخيراً فهذه الدنيا مظلمة إلا ما أشرقت عليه رسالة السراج المنير ﷺ. قال - تعالى -: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ

أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [الطلاق: ١٠ – ١١]، وأحوال الموالد لا تنفك عن ظلمات بعضها فوق بعض؛ فظلمة الشراك الصراح، والركون إلى ظلمة القبور، «وحمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليالي الموالد»[١]، إضافة إلى سيل من الحماقات والخرافات. فيستحيل أن يجتمع هذا النور المبين مع ذلك الحندس والظلام.

(١) هذه هي الصوفية، للوكيل، ص١٦١.

هدم الأبنية على القبور.. سنةٌ مأثورة

عن أبي الهيَّاج الأسدي - رحمه الله - قال: قال لي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؛ ألاَّ تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته»[1].

ولمَّا ذكر ابن القيم هدم مسجد الضرار وتحريقه قال: «ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه، كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها أن تُهدَّم كلَّها حتى تسوَّى بالأرض، وهي أَوْلى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب أن تُهدَّم كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور. فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم»[2].

(١) أخرجه مسلم.
(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ٣٢٧، وانظر: زاد المعاد: ٣/ ٥٠٦.

وإذا كان تعظيم الله – تعالى – وشعائره وحرماته آكد الواجبات والفرائض، فكذا إهانة مظاهر الشرك والوثنية. فهذه الأبنية على القبور يتعيَّن إهانتها كما حرره ابن تيمية بقوله: «كما ما عُظِّم بالباطل: من مكان، أو زمان، أو حجر، أو شجر، أو بِنيَّة، يجب قصد إهانته، كما تهان الأوثان المعبودة»[1].

وذكر – رحمه الله – طرفاً من مفاسد هذه المشاهد فقال: «وهذه المشاهد الباطلة، إنما وُضعَت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيماً لما لم يعظمه الله، وعكوفاً على أشياء لا تنفع ولا تضر، وصدّاً للخلق عن سبيل الله، و هي عبادته وحدَه لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله ﷺ»[2].

وتعظيم المشاهد سبيل النصارى الضالين: «والنصارى يفرحون بما يفعله أهل البدع والجهلة من المسلمين مما يوافق دينهم، ويشابهونهم فيه»[3].

«والذين يعظمون المشاهد لهم شَبَه شديد بالنصارى، ويفرحون بما يفعله أهل البدع مما يوافق دينهم»[4].

وظهور المشاهد متلازم مع ضعف الدول وانحطاطها، فالمشاهد ظهرت بعد القرون المفضلة.. لا سيما بعد ضعف الدولة العباسية وظهور دولة بني بويه الشيعية والقرامطة الباطنية[5].

والمقصود أن هدم المشاهد هو سبيل المؤمنين، وطريق الراسخين في العلم، وجادَّة سلكها ولاة الأمور من العلماء والحكام كما في الأمثلة التالية:

(١) الاقتضاء: ١/ ٤٧٧، وانظر: مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣٢١.
(٢) الاقتضاء: ٢/ ٦٥١.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٧/ ٤٦٢.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٧/ ٤٦١.
(٥) انظر: قاعدة عظيمة لابن تيمية، ص١٥١، ومجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٦٧.

• فالحارث بن مسكين - رحمه الله - (ت ٢٥٠هـ) هدم مسجداً بُني بين القبور[١].

• وأمر الخليفةُ العباسي المتوكل سنة ٢٣٦هـ بهدم قبر الحسين بن علي، ونودي في الناس: من وُجِد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبنا به إلى المطبق (السجن)[٢].

• وقال أبو شامة (ت ٦٦٥هـ): «ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبنياني أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المائة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس المؤدِّب أنه كان إلى جانبه عين العافية كانت العامة قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، من تعذَّر من نكاح أو ولد قالت: امضو بي إلى العافية، فتُعرف بها الفتنة. قال أبو عبد الله: فإنا في السحَر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً. قال: فما رُفع لها رأس إلى الآن»[٣].

• وأما ابن تيمية فله جهود مشهورة في إزالة هذه الأوثان، أوردها الغياني في رسالة مستقلة بعنوان: «فصل في ما قام به ابن تيمية وتفرَّد به؛ وذلك في تكسير الأحجار»[٤] ومن ذلك أنه أزال العمود المخلَّق، وكسر بلاطةً سوداء زعموا أن عليها كفَّ النبي ﷺ، كما حطم صخرةً كبيرةً كان الناس ينذرون لها، ويتبركون بها.

• وهدم الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - قبة زيد بن الخطاب بيده[٥].

---

(١) ترتيب المدارك لعياض: ١/ ٣٣٢، والديباج المذهب لابن فرحون: ١/ ٣٣٩.
(٢) انظر: تاريخ ابن كثير: ١/ ٣١٥.
(٣) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص١٠٣، ١٠٤.
(٤) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية ص٧٨ - ٩٦، والبداية لابن كثير: ١٤/ ٣٤.
(٥) انظر: تاريخ ابن غنام: ١/ ٧٨.

• وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب لما دخلوا مكة - حرسها الله - سنة ١٢١٨هـ: «فبعد ذلك أزلنا جميع ما يُعبد بالتعظيم والاعتقاد فيه. حتى لم يبقَ في البقعة المطهرة طاغوت يُعبَد، فالحمد لله على ذلك»[١].

• وتوجَّه الأمير سعود بن عبد العزيز إلى كربلاء سنة ١٢١٦هـ وهدم القبة الموضوعة على قبر الحسين،[٢] وكان - رحمه الله - يقول: «أرهوا بالعوامل الفواريع (الفؤوس) نهدم بها الأوثان»[٣].

• وقام الشيخ حافظ الحكمي في جنوب جزيرة العرب بهدم قبة في الساحل بمشاركة بعض زملائه، وبقايا قبة على قبر حمود المكرمي في سامطة[٤].

• وساق الشيخ أحمد المعلم في كتابه الماتع النافع «القبورية» نماذج كثيرة لجهود الأئمة والعلماء وغيرهم في إزالة المشاهد في اليمن وتسوية القبور المعظَّمة عند العوام. ومن ذلك أن بعض القضاة والدعاة أزالوا مشهد «علوية» بمدينة المكلا، كما هدم بعضُ طلاب العلم مشهد «الصوفرة» سنة ١٣٩٤هـ، وقام نخبة من الشباب سنة ١٤١٥هـ بهدم كمٍّ هائل من القباب[٥].

والمقصود أن هدم الأبنية على القبور من الأمور الدينية الظاهرة، وعلى هذا كان عمل السلف الصالح قديماً وحديثاً، فلا نزاع في مشروعية هذا الهدم والإزالة والتسوية لهذه القبور والمشاهد، لكن يبقى إنفاذ هذا الحكم في الواقع وَفْق قواعد المصالح والمفاسد، وحسب درجات تغيير المنكر، وإذا تعسَّر إزالتها في موطن مَّا

---

(١) الهدية السنية، ص٣٧.
(٢) عنوان المجد لابن بشر: ١/ ٢٥٧.
(٣) الدرر السنية: ١٤/ ٣٤.
(٤) انظر: الشيخ حافظ الحكمي ومنهجه في العقيدة لأحمد علوشي، ص٣٥٧.
(٥) انظر: القبورية لأحمد المعلم، ص٦٣٩ - ٦٤٧.

لأجل ملابسات غالبة أو مفاسد راجحة، فإن ذلك لا يسوِّغ السكوت عن تبليغ شرع الله وبيان حكم الله - تعالى - ورسوله في البناء على القبور. وأسوأ من ذلك أن يتفوَّه بعض المتسننة بما يوهم تجويز أو تهوين اتخاذ القبور مساجد وبناء المشاهد!

ومثل هذه النوازل لا ينبغي أن يسارع لها الشباب، بل يجب الرجوع إلى أهل العلم الربانيين، فهم أقدر من غيرهم على تحديد المصالح والمفاسد.

ويبدو أن بعض إخواننا - عفا الله عنهم - تغيب عنهم هذه الحقائق الشرعية إثر تراكم الحوادث، ويعتريهم الذهول عقب تكالب الوقائع والنوازل، وأشنع من هذا أن تكون سطوة أهل النفوذ قد أَنْسَت هؤلاء المتسننة مبادئهم!

لقد كان موقف بعض المتسننة تجاه الوثنية السياسية في غاية الهشاشة والمداهنة والاضطراب. فوقع بعضهم في تقديس الحكام بلسان الحال؛ فالحاكم عندهم يختص بالاحتساب والتكفير ورفع الخلاف وخفضه و. . . (لايشرك فيه غيره!)، فكان لهؤلاء المتسننة نصيب من التشبه بالرافضة في أصلهم «الإمامة»، ولو أنهم جعلوا ذلك محل اجتهاد لهان الأمر إلى حدٍّ مَّا، لكنهم يقطعون بأن ما يرونه هو الحق القاطع، و البرهان الساطع، وسبيل أهل السنَّة والجماعة!

ثم إن فريقاً منهم قد هوَّن وثنية المشاهد والقبور، وجامل أفراخ عمرو بن لُحَي، فكان لهم نصيب من محاكاة الصوفية الغلاة!

وقد حكى الشيخ محمد الغزالي صوراً مهينة لبعض المحسوبين على أهل العلم ممن يقارنون وثنيةً سياسيةً أو وثنية الأضرحة والقبور، فقال - رحمه الله -: «وقد تذاكر الناسُ أن شيخاً كبيراً من جلَّة العلماء - كما يقولون - كان في المرض الذي يُسقِط عنه الصلاة لا ينسى أداء مراسم الوثنية السياسية، على حين كان الدكتور طه

حسين – وموقفه من الدين معروف – يتكلم بحذر ويرسل مدائحه بقَدَر!»[1].

وقال في كتاب آخر: «والمعروف أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أصدر فتوى بأن بناء الأضرحة حرام، ومع ذلك ما إن تولى المشيخة حتى سارع إلى زيارة ضريح الملك فؤاد؛ لأنه طبعاً أبو الصنم الحاكم (يعني فاروق)!»[2].

والحاصل أن هذه مواقف رخوة ومتهافتة من طرائق الصدِّ عن سبيل الله – تعالى – وازدراء سبيل أهل السُّنة وامتهانهم؛ فكم نحتاج إلى رجالات يبلغون رسالات الله ولا يخشون في الله لومة لائم؟ فليس التديُّن مجرد محفوظات تقال وقت الدعة والرخاء؛ وإنما هو مواقف شجاعة تصدع بالحق حسب ما يوجبه الشرع المنزَّل.

ورحم الله ابن القيم القائل: «إن نبينا محمداً ﷺ قاوم العالم كله، وتجرَّد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله – تعالى – وآثر رضى الله الخالق من كل وجه... فإن المحنة تعظم أولاً، ليتأخر من ليس أهلاً، فإذا احتملها وتقدَّم انقلبت تلك المحن منحاً، وصارت تلك المؤن عوناً، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة؛ فإنه ما آثر عبد مرضاة الله على الخلق، إلا أنشأ الله من تلك المحنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمَّل من مرضاته. فيا خيبة المتخلفين ويا ذِلَّة المتهيبين»[3].

---

(١) تأمُّلات في الدين والحياة، ص٣١.

(٢) في موكب الدعوة، ص١٢١.

(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٣٠٠ = باختصار.

البناء على القبور.. الهــدم والوهــم

«مِن أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا إلا من لم يرد الله فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبِد أربابها من دون الله، وعُبِدت قبورهم، واتخذت أوثاناً..»[1].

والحديث عن مفاسد اتخاذ القبور مساجد، وشرور وثنية الأضرحة؛ لا يكاد يحصى[2]، فهو فوق ما يخطر بالبال، أو يدور بالخيال.

والذي يهمّنا في هذه السطور أن نذكّر بمشروعية هدم الأبنية على الأضرحة، وإزالة المساجد المبنية على القبور، كما ثبت في السنة النبوية، وجرى عليه عمل السلف الصالح.

فعن أبي الهيّاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ألا تدع تمثالاً إلا

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم، ١/ ٤٨٦.
(٢) ينظر: كتاب الأم للشافعي، ١/ ٢٧٧.

طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته»(١). وقرر الإمام الشافعي مشروعية هدم البناء على القبور، وأنه رأى الولاء في مكة يهدمون ما بُني في المقابر(٢).

وقال ابن القيم: «إن حكم الإسلام في المساجد المبنية على القبور أن تهدم كلّها، حتى تسوّى بالأرض، وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب أن تهدم كلها؛ لأنها أسِّست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور، فبناءٌ أسس على معصيته ومخالفته بناءٌ غير محترم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً»(٣).

وقال ابن حجر الهيتمي: «وتجب المبادرة لهدم القباب التي هي على القبور، إذ هي أضرّ من مسجد الضرار، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر»(٤).

وقد هدم الحارثُ بن مسكين (ت ٢٥٠هـ) مسجداً كان بني بين القبور(٥). وهدم أبو إسحاق الجبيناني عيناً تسمى «عين العافية» قد فُتِن الناسُ بها، فمن تعذّر عليه نكاح أو ولد مضى إليها..!

فهدمها وقت السحر، ثم قال: اللهم إني هدمتها لك، فلا ترفع لها رأساً، فما رُفع لها رأس إلى الآن(٦).

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم، والقبورية لأحمد المعلم، ومعارج الألباب لحسين النعمي (ت ١١٨٧هـ)، كما أن له كتاباً بعنوان: «مدارج العبور على مفاسد القبور».
(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم، ١/ ٣٢٧.
(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٤٩، ويجزم محمود الألوسي (ت ١٣٤٢هـ) بأن كتاب الزواجر مأخوذ من كتاب الكبائر (المفقود) لابن القيم.
(٥) انظر: ترتيب المدارج لعياض ١/ ٣٣٢، والديباج المذهب لابن فرحون ١/ ٣٣٩.
(٦) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة، ص ١٠٣ – ١٠٤.

ومن جهود المتأخرين أن الأمير سعود بن عبد العزيز هدم القبة الموضوعة على قبر الحسين في كربلاء سنة ١٢١٦هـ، كما هدم القباب التي بنيت على القبور في مكة - حرسها الله[١].

كما هُدِمت القباب في صنعاء في اليمن سنة ١٢١٦هـ، وكذا أزيلت بعض الأبنية على القبور في مدينة بيت الفقيه باليمن سنة ١٣٤٨هـ، كما هدمت مشاهد وثنية في محافظة حجّة سنة ١٣٩٤هـ، وأزيلت قباب ومشاهد في مدينة عدن سنة ١٤١٥هـ[٢].

فالقدرة والاستطاعة هي منوط إزالة هذه الأبنية على القبور، وموجب هدمها، كما حرّره ابن القيم قائلاً: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً؛ فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة، وهذا حكم المشاهد التي بُنيت على القبور»[٣].

ومثال ذلك: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في أول أمره إذا سمع الناس يستغيثون بالشرك عند قبة قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة بنجد، فإنه يقول لهم: الله خيرٌ من زيد، تمريناً لهم على نفي الشرك بلين الكلام[٤].

فلما صار له قوة ومنعة، أزال هذه القبة بنفسه ومعه عثمان بن معمر أمير العيينة[٥].

وكما ينبغي توخي الحكمة ومراعاة قواعد المصالح والمفاسد في الاحتساب وإزالة الأوثان وهدم الأبنية على القبور؛ ينبغي الحذر من تهويل عشاق الأضرحة، والمولعين بالمشاهد، فطالما علا ضجيجهم بأن هذا الهدم يعدّ إخلالاً بالأمن! وتحريكاً للقلاقل!

(١) انظر: عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٢٥٧ - ٢٦٣.
(٢) انظر: القبورية لأحمد المعلم، ص ٦٣٤ - ٦٤٦.
(٣) زاد المعاد، ٣/ ٥٦.
(٤) انظر: مجموعة التوحيد، ص ٣٣٩.
(٥) انظر: عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٣٩.

وإثارة لشغب العوام! وإيقاعاً للفتن. . . إلخ، والبلية أن فئاماً من المتسنّنة تغشاهم هذا التهويل، فصاروا سمّاعين مستجيبين لذلك الإرجاف.

لا سيما أن إرجاف القبوريين وأشياعهم لا ينفك عن تقديس وتعظيم للأضرحة، وتخويف من المساس بتلك الوثنيات، ولذا فهم يبالغون في تزويق القبور، وتشييد القباب، وإرخاء الستور الغالية، والقناديل الساطعة. . . لأجل أن تُعمّر قلوب الجهال بالتعظيم والإجلال لتلك الجيف والأوثان.

ومن ثم، فإن هدمها وإهانتها مطلوب شرعاً وديناً، «فإن كل ما عُظِّم بالباطل من مكان، أو زمان، أو حجر، أو شجر، أو بنْية؛ يجب قصد إهانته كما تهان الأوثان المعبودة، وإن كانت لولا عبادتها كسائر الأحجار»[(١)].

ثم إن العزم على هدمها قد يواجَه بتخويف وإرجاف من شياطين الإنس والجن، وأن في ذلك انتهاكاً لحرمة الأولياء، ومجلبة للعقوبات والمثلات. .

لكن الاستعانة بالله، والإقدام على هدمها؛ يُبْطِل هذه الأراجيف والتخذيلات، ويزيل الرواسب العالقة والأوهام الجاثمة في أذهان العوام، فإن الذين هدموا الأوثان والأبنية على القبور قد صاروا عقب هدمها في أحسن حال وأطيب بال.

ومثال ذلك: العمود المخلّق في دمشق، فقد ذكر أبو شامة في كتابه «الحوادث والبدع» أن الكثير من الناس فُتنوا بهذا العمود، فعظّموه، ونذروا له. .[(٢)].

وكان الإمام النووي يدعو أن يهيّأ الله رجلاً ليكسر هذا العمود الوثني[(٣)].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ١/ ٤٧٧.
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، ١/ ٣٢٨.
(٣) الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٢٨.

فعزم ابن تيمية على كسره، وخرج معه أخوه عبد الله وخلق كثير، فصاح الشيطان بالبلد، وصدح الناس بالأراجيف وقالوا: ما بقي ابن تيمية يفلح بعد أن تعرّض لهذا! وتخلّى أكثر الناس عن ابن تيمية وأخيه، فلما وصلا إلى العمود أَمَرا الحجّارين بتكسير العمود، فجبنوا وأحجموا! فأخذ ابن تيمية وأخوه المعاول وشرعا في تكسيره، ثم تابعهما الناس، وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير[1].

وهدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب قبة زيد بن الخطاب - رضي الله عنه - بيده، لما تهيّب هدمها الذين معه، وانتظر الجهال ما يصيب الشيخ بسبب هدمها، فأصبح في أحسن حال[2].

والحاصل أن هناك وهماً جاثماً، وتعظيماً فاسداً لتلك الوثنيات، لا سبيل إلى إزالته وطمسه إلا بمحو هذه القباب والأبنية التي على القبور، كما قد شُوهد وجرّب، فهدم الأبنية التي على القبور يستلزم محوها من القلوب، ومن توخي الحكمة التواصل مع العلماء الربانيين، والتنسيق مع أهل الرأي والعقلاء لدرء أكبر قدر ممكن من المفاسد، والله المستعان.

---

(١) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٨٠ - ٨١.
(٢) عنوان المجد لابن بشر، ١/ ٣٩.

السلفية... رحابة وسعة فهم

مذهب السلف الصالح هو الإسلام المحض الخالص، وكما قال ربعي بن عامر - رضي الله عنه - لرستم فارس: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها...»[1].

والسلف الصالح يعلمون الحق ويرحمون الخلق، وهذه الرحمة والإشفاق توجب انشراح الصدر، كما في حال الرحمة بالصدقة وسائر الإحسان. يقول ابن القيم: «المتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره... فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح، وقوي فرحه، وعظم سروره»[2].

وإيمان أهل السُّنة بجميع النصوص الشرعية، ورسوخهم في العلم أورثهم رحابة وسعة في الفهم؛ إذ يقبلون الحق من كل أحد؛ فهم أسعد الطوائف باتباع الدليل، فيأخذون بنصوص التنزيه والإثبات معاً في صفات الله - تعالى - وكما يثبتون القضاء

(١) البداية لابن كثير: ٧/ ٣٩.
(٢) الوابل الصيب، ص٣١.

والقدر، فإنهم يثبتون أن العباد فاعلون حقيقة، ويقررون أن مطلق الذنوب تُنْقص الإيمان لكنها لا تُخرِج من الملة، ويفرِّقون بين موارد الإجماع ومسائل الاجتهاد، ويراعون عوارض الأهلية كالجهل والتأوُّل ونحوهما.

وكما تُلحَظ هذه السعة والشمول في المسائل، فإنها تُلحَظ في الدلائل أيضاً؛ فإن السلف يستدلُّون بالوحي ويعتصمون به، ويُعنَون بفقه نصوص الكتاب والسُّنة، كما يحتجون بالبراهين العقلية، ويستدلون بالأمور الفطرية الضرورية.

وسعة الفهم ورحابة الأفق كالوسطية التي تميَّز بها أهل السُّنة عن سائر الطوائف؛ فليست الوسطية تعني التذبذب والتلون، أو الترخُّص والتفلُّت؛ وإنما هي الوسطية التي اعتبرها الشرع المنزَّل؛ وهي الإيمان بجميع النصوص الشرعية، وأخذ الدين كلِّه وبقوة، مع مجانبة الترخص الجافي، والتشدد الغالي. وأيضاً: فإن سعة الفهم وشموله لا يكون إلا بالاعتصام بدين الله - تعالى - في الدلائل والمسائل، والقيام بالحنيفية السمحة (علماً وعملاً)، ومفارقة الإفراط، ومجانبة التفريط وتتبُّع الرخص؛ إذ اتباع الرخص هو من أهواء النفوس، وقد نهى الشارع عن اتباع الهوى وأمر بلزوم الهدى. قال - تعالى -: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠].

وقد بيَّن الشاطبي عواقب تتبُّع الرخص؛ وأنها تفضي إلى «الانسلاخ من الدين بترك اتباع الدليل إلى اتباع الخلاف، وكالاستهانة بالدين؛ إذ يصير بهذا الاعتبار سيّالاً لا ينضبط...»[1].

(١) الموافقات: ٤/ ١٤٧.

وصدق - رحمه الله - فهذا واقع مشاهَد، إذا صار الدين في غاية الرقة والهشاشة، وأضحى الدين يشفُّ عما تحته فهو أرقُّ من ثوب السابريِّ[(١)].

والحاصل أن سلفنا الصالح أظهروا هذه الرحابة وسعة المفهوم كما هو مبيَّن في المسائل التالية:

• فذِكْر الله - تعالى - هو من أفضل الأعمال في حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: « ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب الورِق، ومن أن تَلقَوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله»[(٢)].

لكنَّ ذكر الله - تعالى - ليس محصوراً في الأوراد المأثورة كأذكار الصباح والمساء ونحوها، بل إن ذكر الله - تعالى - يشمل كل ما يقرِّب إلى الله - تعالى -: من علم نافع وعمل صالح وتواصٍ بالحق؛ كما حرره ابن تيمية بقوله: «كل ما تكلم به اللسان وتصوَّره القلب مما يقرِّب إلى الله: من تعلُّم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو ذكر الله؛ ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقه أو يُفقِّه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهاً، فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله»[(٣)].

• وذِكْرُ الله - تعالى - يعدُّ دعاءً، كما في دعاء الكرب «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريم»[(٤)].

---

(١) الثوب السابريُّ: الرقيق الشفاف.

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٦٦١.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

• كما أن ذكر الله - تعالى - يعدُّ صلاة كما ورد عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: (ما دُمتَ تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق، وقال معاذ: مدارسة العلم تسبيح)[1].

ونظير ذلك العبادات فلا تقتصر على العبادات المعهودة، بل تشمل كلَّ ما يحبه الله ويرضاه، فيدخل في ذلك صلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم وابن السبيل والبهائم[2].

ومسألة أخرى: أن من التوسل المشروع: التوسل إلى الله - تعالى - بالعمل الصالح، وقد يَقْصِر بعضُهم هذا التوسلَ بأن يقول الداعي: اللهم! إني أتوسل إليك بعملي الصالح... وليس الأمر كذلك، بل التوسل أعم وأوسع من ذلك كلِّه، كما بيَّنه ابن تيمية بقوله: «التوسل بالإيمان به ﷺ وطاعته فرض على كل أحد في كل حال (باطناً وظاهراً) في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته، في مشهده ومغيبه، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال»[3].

ومسألة ثالثة، وهي: مفهوم الجهاد في سبيل الله - تعالى -: فإنه مفهوم واسع يستوعب الجهاد باليد والسنان، والجهاد بالحجَّة والبرهان، والجهاد بالأموال، ثم إن جهاد النفس هو أصل ذلك جميعاً. وكل ذلك داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذا قال الشاطبي: «والجهاد الذي شرع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مقرَّر بمكة، لقوله - تعالى -: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ١/ ٩٤، ومنهاج السنة النبوية: ٨/ ٢١٠، ومجموع الفتاوى: ١٤/ ٢١٥، والإيمان، ص٤٠ - ٤١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ١٤٩. (العبودية).

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص٣.

وساق ابن تيمية – رحمه الله – أوجهاً متعددة تكشف عن سعة مفهوم الجهاد في سبيل الله، فقال: «وأما مجاهد الكفار باللسان فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره؛ فإنه إذا شرع جهادهم باليد، فباللسان أُوْلى، وقد قال النبي ﷺ: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم...» ومعلوم أنه يُحتاج كلَّ وقت إلى السيف، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان، وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف»[1].

وقال ابن القيم: «إن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفَّار فليس بدونه. قال رجل للحسن البصري – رحمه الله تعالى –: يا أبا سعيد! أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك، وسمعت شيخنا (ابن تيمية) يقول: جهاد النفس أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم»[2].

والحاصل أن في نصوص القرآن والسُّنة من الحِكَم والمعاني ما لا ينقضي؛ فآيات القرآن قواعد كلية عامة، وأحاديث المصطفى ﷺ هي جوامع الكلم؛ ولذا فإن الاعتصام بالكتاب والسنة يحقق سعة في الفهوم، وثراء في العلوم، وانتفاعاً بالعقول، وزكاة للقلوب. وتراث السلف الصالح شاهد على ذلك في القديم والحديث.

هذا وبالله التوفيق.

(١) الجواب الصحيح: ١/ ٧٤ – ٧٥.

(٢) روضة المحبين، ص ٤٧٨.

كلمات في المصطلحات

الألفاظ الشرعية والمصطلحات الدينية فيها الشفاء والغَناء والحرمة والتعظيم ما ليس في غيرها، كما أنَّ فيها من الحِكَم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه[(١)].

والانفتاح على الثقافات الأخرى، وعلوم الأمم المختلفة جَلَب كمَّاً هائلاً من المصطلحات الحادِثة، والألفاظ المستجدة، التي لا تنفك عن إجمال واشتباه، وتلبيس وأغاليط؛ ولا سيما أن نفوساً تعتريها السآمة من الألفاظ الشرعية الراتبة! ويسارقها طبع الميل إلى المستجد والحديث.

ولزوم الشرع المنزَّل يحقق صلاحاً للعقل، وزكاءً للفكر، وسعة في الأفق و «إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقي صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان»[(٢)].

---

(١) انظر: النبوات لابن تيمية: ٢/ ٨٧٦.

(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ١٦٦.

والسلف الصالح لم ينكروا هذه الألفاظ المستجدة لأجل حدوث ألفاظها، وحدَّة تعبيراتها؛ وإنما لأجل اشتمالها على باطل وضلال.

بل إن الألفاظ والمصطلحات الشرعية يلحقها التحريف وسوء الفهم لأجل ظروف وملابسات البيئة التي تظهر فيها تلك المصطلحات؛ فقد ينشأ الشخص وهو لا يعرف من مصطلح «التوسل» - مثلاً - إلا التوسل إلى الله بالجاه والذات، فيتوهم أن هذا معنى التوسل في نصوص الوحيين، وليس الأمر كذلك[1]؛ وإنما التوسل المشروع هو التوسل إلى الله بالإيمان والعمل الصالح.

وإذا كان اللَّبس واقعاً في الألفاظ الشرعية فكيف بألفاظ ومصطلحات أجنبية النشأة والولادة؟ فالألفاظ المتداوَلة - كالإنسانية والمجتمع المدني والحريات وغيرها - لا تنفك عن ملابسات فكرية وعقدية؛ فلا يمكن تصوُّر هذه المصطلحات بعلم وعدل إلا باستصحاب هذه النشأة وتلك الملابسات.

والمحققون في مذهب السلف - كابن تيمية وابن القيم ونحوهما - يذكرون الألفاظ المجملة في الاعتقاد كالجوهر والجهة عند المتكلمة، والألفاظ المجملة في السلوك كالغناء وأحوال القلوب عند المتصوِّفة، ويقررون أن الكلام فيها دون الاستفصال يوقع في الجهل والضلال، والقيل والقال، وأن أكثر الاختلاف باعثُه الإجمال والاشتراك في الألفاظ والمصطلحات[2].

يقول ابن القيم: «أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل، فيطلقها من يريد حقها فينكرها من يريد باطلها، فيردُّ عليه من يرد حقها. وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب، وخلَّصه من ورطات

---

(١) انظر: قاعدة جليلة في التوسل ص ١٥٢، وبيان تلبيس الجهمية: ٧/ ٣٩٩.
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية: ٢/ ٢١٧.

تورَّط فيها أكثر الطوائف»[1].

والحاصل أنه لا بد مع تلك المصطلحات من التبيين والتفصيل، فلا نقبلها بإطلاق، كما لا نردُّها بإطلاق؛ إذ قد نقبل باطلاً أو نردُّ حقاً. بل نجعل الألفاظ الشرعية والمصطلحات الدينية هي الأصل والميزان لتلك المصطلحات المحدَثَة المجمَلَة؛ فإن كان المراد بهذه المصطلحات صواباً موافِقاً لنصوص الوحيين قُبِل. وإن كان مراده باطلاً رُدَّ.

لكن قد يحتاج إلى تلك الألفاظ المجملة في مخاطبة بعض الناس؛ كالشخص الذي لا يعقل إلا هذه الألفاظ، فإنه يُخاطب بها عند اللزوم والحاجة، كما حرره أبو العباس ابن تيمية[2].

والمقصود أن لزوم العبارات الشرعية والاعتزاز بها يتسق مع الموقف من الألفاظ الحادثة والمصطلحات المجملة؛ فلا انفلات ولا جمود، ولا ذوبات ولا انقباض.

ومما يحسُن التنبيه عليه أن جملة من المصطلحات الحادثة المجمَلة إنما هي مجرد ألفاظ وتعبيرات، فلا ينبني عليها حقائق علمية أو عقلية «والاصطلاحات اللفظية ليست دليلاً على نفي الحقائق العقلية»[3].

«والمعاني العقلية لا يعتبر فيها مجرد الاصطلاحات»[4].

وهذا واقع قديماً وحديثاً؛ فالفلاسفة المشاؤون - مثلاً - أحدثوا اصطلاحات وفروقاً فلسفية لكنها لا تغير من الحقائق شيئاً، ولا دليل عليها.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٩، وانظر: نقض التأسيس لابن تيمية: ٢/ ١٤.
(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: ٢/ ٥٥٤.
(٣) التدمرية لابن تيمية ص١٣٠.
(٤) الدرء: ٢/ ٢٢٢.

وإذا كنا في عصر الانفتاح وثورة المصطلحات الوافدة، وركام التعبيرات والألفاظ، فلا بد من إشارة إلى ما في جملة هذه الألفاظ من زخرف وتزويق، وبهرجة وتنميق، قد يستهوي ضعاف العلم والتحقيق(١).

قال - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

خاصة إذا كانت هذه الألفاظ المستجدة هي ثقافة سائدة ومكرورة بكرةً وعشياً، إضافة إلى زخم الإعلام بتلك المصطلحات، وتهويل المجتمع واحتفائه بها، فربما أن بعضهم لا يسوِّغ هذه المصطلحات الموهمة المشتبهة، لكن تبقى حظوظ النفس لها أثرها وتأثيرها؛ فقد ينساق في استعمال هذه الألفاظ بعُجرها وبُجرها، لئلا يُتهَم بالتخلُّف والقصور!

وهذه الآفة الحاضرة قد كشفها ابن تيمية وحررها بأسلوب متين يجمع بين التأصيل الشرعي والدراية بأهواء النفوس وكمائنها، فقال - رحمه الله -: «عمدوا [أي الفلاسفة] إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركَّبوها، وعظَّموا قولهم، وهوَّلوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضاً لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وخاطبونه بما تنفر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحميَّة يحملها على أن تسلِّم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل»(٢).

(١) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/ ٤٣٦.
(٢) الدرء: ١/ ٢٩٥.

وأخيراً فإن الألفاظ الشرعية لها حرمة وتعظيم، ومن تمام ذلك أن نتعرَّف على معانيها وحدودها؛ فمن أشرف العلوم علم الحدود المشروعة (المأمورات والمنهيات)، ومعرفة ذلك دراية، والقيام بها رعاية[1].

والله الموفق لا إله غيره.

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢/ ١١٣، ١/ ٢٥، ومدارج السالكين لابن القيم: ١/ ١٤٠، والفوائد ص ١٣٣.

استيعاب المقالات وتحرير النـزاع عند أبي العبّاس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

لا يُعلم لابن تيمية نظير في معرفة الملل والنحل، فدرايته بمقالات الفرق الإسلامية وغير الإسلامية تبهر العقول، بل إنه أدرى وأعلم بمقولات المبتدعة من المبتدعة أنفسهم.

يقول تلميذه ابن عبد الهادي: «ثم انفتح له بعد ذلك من الردّ على الفلاسفة والجهمية وسائر أهل الأهواء والبدع، ما لا يوصف ولا يعبّر عنه، وجرى له من المناظرات العجيبة والمباحث الدقيقة، في كتبه وغير كتبه مع أقرانه وغيرهم في سائر أنواع العلوم ما تضيق العبارة عنه»[1].

ومن أنعم اللهُ عليه بمطالعة التراث التيّمي يلحظ براعة فائقة، وقدرة عجيبة في فهم أقوال المخالفين، واستيعاب شبهاتهم، ودرايته بأصولها وجذورها، ومهارةً في توضيحها وتقريبها وتلخيصها بعلم وعدل، وفقه وإنصاف.

(١) العقود الدرّية، صـ٦٧.

كما يَشهد حدةَ ذكائه وتوقّد فكره في بيان تشابه هذه المقالات والقدر المشترك بينها تارةً، وبيان اختلافها وافتراقها تارة أخرى، وتفاوت الانحراف بين تلك المقالات، ومعرفته الراسخة بمراتب الطوائف وتفاضلهم.. ثم إن ابن تيمية لا يقتصر على ذلك بل يعقبه بالنقض المتين لتلك المقالات، والإتيان عليها من أصولها، ونسف قواعدها.

فابن تيمية - وكأن العلوم بين عينيه كما وصفوه - عندما ينظر في مقالات الفرق والنحل، فمع كثرة مقالاتهم وتشعبها، وعويص مذاهبهم وغموضها، وما قد يبدو من تضادّها وتقابلها، إلا أنه بذهنه السيال، وعلمه الزخّار، ونور بصيرته استطاع أن يقرّب هذه المقولات وأن يردّها إلى أصولها، ويحرر منشأ الضلال، ويكشف عن أصل الاضطراب فيها، كما سيتضح من خلال الشواهد التالية:

- ما أكثر مقالات الفرق الإسلامية في تعريف الإيمان كالخوارج والمعتزلة والمرجئة.. ومع تقابل وتضاد الوعيدية (الخوارج والمعتزلة) والمرجئة لكنهم يتفقون على أصل فاسد تفرّعت عنه البدع في الإيمان، «فإنهم ظنوا أن الإيمان متى ذهب بعضه ذهب كلّه لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تُذهِب الكبائرُ وتركُ الواجبات الظاهرة شيئاً من الإيمان، إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء، فيكون شيئاً يستوي فيه البرّ والفاجر.

ونصوص الرسول ﷺ وأصحابه تدلّ على ذهاب بعضه وبقاء بعضه..»[1].

وبيّن ذلك في موطن آخر فقال: «وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والمرجئة يقولون إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق.. ومن هنا غلطوا فيه وخالفوا فيه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان مع مخالفة صريح المعقول»[2].

(١) الإيمان، ص٢١٠.

(٢) الإيمان، ص٣٣٧، وينظر: مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٧١، ١٨/ ٢٧٠، ومنهاج السنة ٥/ ٢٠٤، ٤/ ٥٧٠.

والحاصل أن الإنحراف في تعريف الإيمان ناشئٌ عن أصل فاسد يتفق عليه الوعيدية والمرجئة، وهو أن الإيمان شيء واحد لا يتبعض ولا يتجزأ، فلا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه. .

- وأما في مسائل القدر فقد احتفى ابن تيمية بهذا الفرقان المبين بين الإدارة الكونية القدرية، والإدارة الشرعية الدينية، وأثبت هذا التقسيم الشريف في في مواطن كثيرة جداً، وبيّن أن هذا التقسيم ذكره غير واحد من أهل السنة، وأن أبا الحسن الأشعري خالف ذلك فجعل المشئية هي المحبة والرضا.

فقال - رحمه الله -: «وجهم ومن وافقه من المعتزلة اشتركوا في أن مشيئة الله ومحبته ورضاه بمعنى واحد، ثم قالت المعتزلة: وهو لا يحبّ الكفر والفسوق والعصيان، فلا يشاؤه، فقالوا: إنه يكون بلا مشيئة، وقالت الجهمية، بل هو يشاء ذلك، فهو يحبّه ويرضاه، وأبو الحسن (الأشعري) وافق هؤلاء، ولم يفرّق بين المشيئة، والمحبة والرضا»[1].

ونقل ابن تيمية أن السلف على التفريق بين المشئية والمحبة، فقال: «وأما جمهور أهل السنة فيفرّقون بين الإرادة والمحبة والرضا، فيقولون إنه وإن كان يريد المعاصي فهو لا يحبّها ولا يرضاه، بل يبغضها ويسخطها، ينهى عنها، فهؤلاء يفرّقون بين مشيئة الله ومحبته. . »[2].

والمقصود أن القدرية النفاة والجبرية على طرفي نقيض، إلا أن منشأ ضلالهم واحد، وهو التسوية بين مشئية الله تعالى، وبين محبته ورضاه، فجعلوا المشيئة هي المحبة، ثم قالت المعتزلة القدرية: إن المعاصي لا يحبّها الله فهي خارج مشيئته!

(١) الفتاوى ٨/ ٤٧٤.
(٢) المنهاج ٣/ ١٥= باختصار، وينظر: النبوات ١/ ٢٨٧، الفتاوى ١٠/ ١٦٦.

وقالت الجمهية الجبرية: المعاصي واقعة بمشيئة الله، فالله يحبها ويرضاها - تعالى الله عن ذلك -.

والحق أن المعاصي وإن كانت واقعة بمشيئة الله، إلا أن الله لا يحبها ولا يرضاها، فلا يرضى سبحانه لعباده الكفر، والله لا يحب الفساد.

- وأما ما يتعلق بمسائل الأسماء والصفات.. فهذا كثير ومن ذلك أننا نجد طرفين في إثبات أفعال الله تعالى، فالكلابية والأشاعرة يجعلونها قديمة بعينها ملازمة لذاته سبحانه، وأما المعتزلة فيجعلونها مخلوقة منفصلة عنه، وأهل السنة والجماعة يقولون: إن أفعال الله تعالى قائمة بذات الله تعالى-رداً على المعتزلة-وأنها متعلقة بمشيئته وقدرته ردّاً على الأشاعرة والكلابية[١].

لكن منشأ اضطراب الفريقين (المعتزلة والأشاعرة) واحد: حيث اشتركا في أن الله تعالى لا يقوم به ما يكون بإرادته وقدرته، فلزم المعتزلة أنهم جعلوا أفعاله مخلوقة، ولزم الأشاعرة أنهم جعلوا أفعاله قديمة لازمة لذاته سبحانه، وليست متعلقة بمشيئته وقدرته[٢].

وكذا مسألة دوام الحوادث وتسلسلها، فالفلاسفة يقولون بقدم العالم ودوام الحوادث بإطلاق، والمتكلمون ينفون دوام الحوادث في الماضي بإطلاق، وهذان القولان المتقابلان يشتركان في أصل واحد فاسد وهو أن تسلسل الحوادث يستلزم قدم العالم[٣].

(١) ينظر: الصفدية ٢/ ٨٩، الدرء ٢/ ١٤٧، الفتاوى ٦/ ١٤٤.
(٢) ينظر: الدرء ٢/ ١١٢.
(٣) ينظر: الدرء ٩/ ١٤٧.

ثم إن قول الفلاسفة بوقوع الحوادث بلا محدث ولا صانع هو نظير قول المتكلمة بحدوث الحوادث بلا سبب[1].

والفيصل في مسألة دوام الحوادث هو التفريق بين أفرادها وبين أنواعها، والفلاسفة والمتكلمون لم يفرّقوا بينها، فنعيم الجنّة مثلاً دائم لا يزول قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤] فالدائم الذي لا ينفد هو النوع، وإلا فكل فرد من أفراده نافد فقضى ليس بدائم[2].

وأخيراً فهذه النماذج الرائعة والشواهد السامقة ينبغي أن نوظّفها وأن نعتبر بها في التعامل مع النوازل العقدية والفكرية المعاصرة، وسبيل فهمها، وردّها إلى أصولها، وملابسات نشأتها، ومواطن الاتفاق والافتراق فيما بينها، ثم الحكم عليها وتقويمها وفق النقل والعقل، والله المستعان.

(١) ينظر: الفتاوى ١٢/ ١٨٧، الصفدية ١/ ١٣٣.
(٢) ينظر: الصفدية ١/ ٦٥، والمنهاج ١/ ٤٢٦.

بيان السلف وإلغاز الخلف

غَلَب على المكتوب والمنشور في هذه الأيام هشاشة العبارات وركاكتها، واستحوذ التكلُّف والتصنُّع في الألفاظ، وساد التشقيق في الكلام والإسهاب؛ بل ربما تجاوزوا ذلك إلى ابتذال الأسلوب، ومقارفة كلمات سوقية وأشباهها، ونال ذلك الرسائلَ الجامعية والبحوثَ المحكَّمة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أتى على الأمة العربية بضعة قرون وهي في تدلٍّ وضعف في اللغة، لا يمضي عليهم قرن ولا عام إلا والذي بعده شر منه، وما سببه إلا تنكب سبيل الأولين في حفظ الكثير من الكلام العربي الحرِّ الفصيح وفهمه»[1].

ولقد كان قدوتنا محمد ﷺ أفصح الناس، كما كان أنصح الناس وأعلمهم؛ فقد أوتي جوامع الكلم، فكان يبلِّغ المعاني الكثيرة الجليلة بألفاظ وجيزة بليغة، تمتاز بالجزالة والسبك، والتنزُّه عن التكلُّف ومجانبة وحشي اللغة و شواذها[2].

(١) فتاوى محمد رشيد رضا: ٤/ ١٣٨٦.

(٢) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية لكمال عز الدين ص٦٢، ووحي الرسالة للزيات: ٣/ ١٠٥.

وأهل السُّنة والجماعة على سنة رسول الله ﷺ؛ ففي تقريراتهم: الوضوح والظهور، والإفصاح والبيان، ومن ذلك: أن السلف الصالح أثبتوا أن صفات الله - تعالى - معلومة المعاني؛ فقد أمر الله - تعالى - بتدبُّر القرآن كله في عدة آيات، والتدبُّر هو العقل والفهم. وجَانَب السلفُ تأويلات المتكلمين و تكلفاتهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، كما جانبوا جهالات المفوِّضة وضلالهم، والذين جعلوا آيات الصفات - وهي ظاهرة الدلالة بيِّنة المعاني - مجرد «أمانيَّ» لا تُفهَم ولا تُعلَم. فَرضي أهلُ التجهيل بالسفسطة وإنكار الحقائق البديهة.

ومما يجدر ذكره أن مفوِّضة هذا العصر قد يشغبون على أهل السنة، فيطالبون بتعريف ما كان بدهيّاً جلياً (كالسمع، والبصر، والنزول، واليد) مما لا يزيده التعريف إلا خفاءً واشتباهاً، وكل ذلك من أجل أن يوقعوا مخالفيهم: إما في التمثيل والتكييف، أو التفويض والتجهيل، وهذا شغب مكشوف وضلال مفضوح، وكما قال الإمام الذهبي: «السؤال عن النزول ما هو عيٌّ؛ لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة؛ وإلا فالنزول، والكلام، والسمع، والبصر، والاستواء، عبارات جلية واضحة للسامع؛ فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر»(١).

وتعويل السلف الصالح على الألفاظ الشرعية، والعبارات الدينية حقق لهم بَرْد اليقين والإجلال والتعظيم لشعائر دين الله - تعالى - وشرائعه، كما أورثهم الفهم والبيان والبلاغة والإيجاز؛ فإن في الألفاظ القرآنية والنبوية من الغَناء والشفاء والحرمة ما ليس لغيرها، وفيها من الحِكَم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه(٢).

(١) العلو: ٢/ ١٢٢٩.
(٢) ينظر: النبوات لابن تيمية: ٢/ ٨٧٦.

بخلاف أهل الزندقة والأهواء فهم في ريبهم يترددون، وفيهم من الاستخفاف بدين الله ما هو مبسوط في موضعه، كما أنهم يتقصَّدون الإلغاز والتلبيس، والتعمية، والتأسي بالمذهب الباطني في تحريفاته ونفاقه، وسرد ألفاظ طويلة لمعانٍ خفيفة[1].

ومهما يكن فإن الاحتفاء والتعويل على العبارات المجهولة الغامضة هو جادة سلكها المتكلِّمة والمتفلسفة ومن نحا نحوهم من منافقي هذا الزمان؛ حتى قال ابن تيمية عنهم: «كلما كانت العبارة أبعد عن الفهم كانوا لها أشد تعظيماً، وهذا حال الأمم الضالة؛ كلما كان الشيء مجهولاً كانوا أشد له تعظيماً؛ كما يعظِّم الرافضة المنتظَر الذي ليس لهم منه حسٌّ ولا خبر، ولا وقعوا له عيناً ولا أثراً.

وكذلك تعظيم الجهال من المتصوفة ونحوهم للغوث وخاتم الأولياء، ونحو ذلك مما لا يعرفون له حقيقته، وكذلك النصارى تعظِّم ما هو من هذا الباب، وهكذا الفلاسفة»[2]. بل زعم الفخر الرازي أن وقوف الناس على معاني القرآن يُسْقِط وقعها عن القلب. وهذا كلام في غاية البطلان والتهافت؛ فإن الشخص يجد في نفسه أنه كلما كان أكثر فهماً للقرآن كان أشد تعظيماً وإجلالاً لكلام الله تعالى. قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولما تحدَّث ابن القيم عن منزلة التعظيم قال: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قَدْر المعرفة يكون تعظيم الربِّ - تعالى - في القلب، وأعرَف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً»[3].

(١) ينظر: الانحرافات العقدية في الأدب العربي لسعيد الغامدي ص (٦٩٠ - ٦٩١).
(٢) الدرء: ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.
(٣) مدارج السالكين: ٢/ ٤٩٥.

ثم إن من دسائس المبتدعة ومن سلك سبيلهم من العصريين: أنهم يعشقون العبارات الغامضة الشائكة ويخدعون الناس بتلك الألفاظ العويصة؛ فهذه الألفاظ المشتبهة المشكلة قد عظَّموا من شأنها، وهوَّلوا في نفوس من لم يفهمها.. وإذا اعترض عليهم معترض قالوا: أنت لا تفهم هذا، فعندئذ يلحق ذلك المعترض ما في النفوس من الأنفة والحميَّة، فيسلِّم بألفاظهم الغامضة حتى لا يتهم بنقص في فهمه وعقله[1].

واسترواح الغموض والشذوذ نابع عن كِبْر وعُجْب وحبِّ التفرُّد والتمايز عن الآخرين؛ وإلا فهذه الألفاظ التي بهرجوها وهوَّلوها «من باب القعقعة بالشنان لمن يفزعه ذلك من الصبيان، ومَن هو شبيه بالصبيان»[2].

والحاصل أن هذه الألفاظ لا حقيقة لها عند الإنسان، بل هي هذيان وإفك وبهتان، نظير منتظِرِ الرافضة، وغوث الصوفية، ومعصوم النصيرية[3].

لقد كان وضوح تقريرات السلف، وجلاءُ عباراتهم من أعظم الأسباب في قبول مذهب السلف وانتشاره؛ حتى اعترف بعض المبتدعة بذلك قائلاً: «هذا إذا سمعه الناس قبلوه وتلقَّوه بالقبول، وظهر لهم أنه الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، ونحن إذا أخذنا الشخص فربَّيناه وغذَّيناه ثلاثين سنة، ثم أردنا أن ننزل قولنا في حَلْقه، لم ينزل في حَلْقه إلا بكلفة»[4].

---

(١) انظر: الدرء: ١/ ٢٩٥.

(٢) الدرء: ٤/ ١٨١.

(٣) ينظر: بيان تلبيس الجهمية: ٤/ ١١٨.

(٤) الدرء: ٥/ ٦٢.

تراث ابن تيمية.. القبول والشغب

تتابع البلاء على ابن تيمية وعلى تلاميذه ومؤلفاته؛ فكان إظهار مؤلفاته آنذاك يوجب العقوبة والسجن، كما كشف عن ذلك تلميذه ابن عبد الهادي قائلاً: (لَمَّا حُبس - ابن تيمية - تفرَّق أتباعه، وتفرَّقت كتبه، وخَوَّفوا أصحابه من أن يُظْهِروا كتبه، وذهب كل أحد بما عنده وأخفاه، ولم يُظْهِروا كتبه، فبقي هذا يهرب بما عنده، وهذا يبيعه أو يهبه، وهذا يخفيه ويودعه، حتى إن منهم من تُسرق كتبه فلا يستطيع أن يطلبها، ولا يقدر على تخليصها)[1].

ولم يقف العناء والأذى على مجرد إظهار مصنفات ابن تيمية، بل امتدَّ الخوف إلى مجرد تدوين أسماء مصنفاته، حيث جاء في رسالة وجَّهها عبد الله بن حامد - أحد علماء الشافعية - إلى ابن رُشَيِّق في رثاء ابن تيمية، إذ يقول ابن حامد: (والله ما كتبتها إلا وأدمعي تتساقط عند ذكره أسفاً على فراقه، وعدم ملاقاته... لكن لما سبق الوعد الكريم منكم بإنفاذ فهرست مصنفات الشيخ، وتأخّر ذلك عني، وأعتقد

(١) العقود الدرية، ص ٤٨.

أن الإضراب عن ذلك نوع تقية، أو لغدر لا يسعني السؤال عنه؛ فسكتُّ عن الطلب، خشية أن يلحق أحداً ضررٌ - والعياذ بالله - بسببي. .)[1].

وتكالب أهل البدع والأهواء على عداوته والحط منه؛ سواء كانوا من الروافض أو المتصوفة أو المتكلمين ونحوهم، بل بلغ بهم النَّزَق والحمق إلى تكفيره وتضليله؛ فالحصني - مثلاً - يجاهر بتكفير ابن تيمية، وأسوأ من ذلك العلاء البخاري الذي يكفِّر من سمَّى ابن تيمية شيخَ الإسلام!

ولحق - في ذيل تلك القافلة المتعثرة - شرذمة من المتساقطين المتكسين في هذا الزمان؛ إذ تتابع نعيقهم وشغبهم، فأحدهم يهذي قائلاً: إن ابن تيمية مرَّ بأزمة روحية. ثم اختلق «الممسوخ» كذبة صلعاء وافترى على ابن تيمية قائلاً: (إن جميع الكفار سيغادرون النار إلى جنة الخلود!)[2].

وأما الآخر فكان مراوغاً فتارةً يتهم ابن تيمية بالتشدد؛ لأن عبارة: (يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل) تكررت في عدة مواطن من مؤلفاته! وتارةً ينتقل هذا المتلوِّن إلى نقيض ذلك فيكتب عن التعددية عند ابن تيمية[3].

وثالثٌ من أُغَيْلِمَة الصحافة يطعن في موقف ابن تيمية من الفلسفة، ويتهافت في الدفاع عن الفلسفة ويتدثر في لمزه وهمزه بالعُجْمة والغموض. . . (فابن تيمية يُغيِّب الأيديولوجي في ثنايا النظر الابستمولوجي!)[4].

وفي غمرة هذه الأحوال الحالكة، والشغب المتلاحق؛ تتحقق الفراسة الإيمانية التي سطَّرها الشيخ أحمد بن مُرِّي - بعد وفاة ابن تيمية -: (والله - إن شاء الله -

(١) العقود الدرية، ص ٣٤٤؛ باختصار.
(٢) موقع إيلاف، ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٧م.
(٣) جريدة الوطن، ١٣/ ٧/ ٢٠٠٢م.
(٤) جريدة المحايد، ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢م.

ليقيمنَّ الله – سبحانه – لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه؛ رجالاً هم الآن في أصلاب آبائهم)[١].

(وقد برَّت يمين ابن مُرِّي – بحمد الله ومنّته – فقام الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (ت ١٣٩٢هـ) بمساعدة ابنه محمد (ت ١٤٢١هـ) بعد نحو ستة قرون؛ بهذه المهمة الجليلة في (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية). وهذا المجموع غُرَّة في جبين الدهر، زينة لأهل الإسلام، لسان صدق للعلماء، عمدة للباحثين، نفع الله به أقواماً بعد آخرين، وقد انتشر في العالمين انتشار العافية، وكتب الله له من القبول والانتشار ما يعزّ نظيره في جهود المتأخرين، فالحمد لله رب العالمين)[٢].

وحَفَل هذا العصر بإصدار موسوعات ومطولات ورسائل متعددة لابن تيمية، مثل: الفتاوى الكبرى، وجامع الرسائل (ت: محمد رشاد سالم)، والدرء، ومنهاج السُّنّة النبوية (ت: محمد رشاد سالم)، والمجموعة العلية (ت: هشام الصيني)، وجامع المسائل (ت: عزيز شمس، وعلي العمران)، وغيرها كثير جداً. ولا يزال أهل الإسلام والسنة (يَرِدون من بحره العذب النمير، يرتعون من فضله في روضة وغدير)[٣].

وقد حظيت هذه المؤلفات بالانتشار والاحتفاء والقبول ما لم يتحقق لغيرها، ولا يزال هذا الإبريز[٤] يزداد تألقاً ولمعاناً مع مرور الأيام، وأضحى هذا التراث مورداً للباحثين في شتى العلوم الشرعية والتاريخية والتربوية... بل إن جملة من المفكرين البارزين أظهروا انبهارهم بابن تيمية وتراثه، مثل: محمد عمارة في كتابه (رفع الملام)، وأبو يعرب المرزوقي وغيرهما.

---

(١) الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ١٠٢.

(٢) المداخل لآثار ابن تيمية، لبكر أبو زيد، ص ٢.

(٣) الدرر الكامنة لابن حجر، (١/ ١٦٧).

(٤) الإبريز: الذهب الخالص

لقد أجلب الجناة بخيلهم ورَجِلِهم، وتكالبوا على مؤلفات ابن تيمية بشتى أنواع الكيد والمكر؛ فكذبوا عليه وزوّروا، وخوّفوا وحذّروا، بل كفّروا وحرّقوا مؤلفاته! لكن خاب سعيهم، وتعثّر شأنهم، فلا تزال هذه المؤلفات ملء السمع والبصر، قد حفظها الله تعالى، وبارك فيها؛ إذ هي مما يُبتغى به وجه الله؛ إذ ما كان لله فهو ينفع ويدوم[1]. وقال ابن عبد الهادي - في شأن هذا الحفظ الرباني -: (ولقد رأيت من خَرْق العادة في حفظ كتبه وجمعها وإصلاح ما فَسَد منها، وردّ ما ذهب منها ما لو ذكرته لكان عجباً، يعلم به كل مصنف أن لله عناية به وبكلامه؛ لأنه يذبّ عن سُنة نبيه ﷺ تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين)[2].

وما أجمل ما قاله بهاء الدين السبكي: (والله يا فلان! ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصدّه هواه عن الحق بعد معرفته به)[3].

ومع نفاسة هذا التراث وما يحويه من التحقيق البديع، والعمق والرسوخ، والسعة والشمول، وحسن الترتيب، وجزالة الأسلوب؛ إلا أن بعض متسنّنة هذا العصر قد زهدوا في هذا التراث، وفتروا عن تحصيل العلوم الشرعية، وشُغفوا بما استجد من معارف حادثة بما يسمى (البرمجة العصبية) و(تطوير الذات) و(تفجير الطاقات)...!

إن عموم جيل الصحوة الإسلامية يحتاج إلى تقريب وتيسير لهذا التراث، إضافة إلى أن العبارات المتشابهة التي يشغِّب بها أهل الأهواء فإنها تُرَدّ إلى عباراته وتقريراته المُحْكَمة البيّنة، كما يُحتفى بإبراز ما تحويه هذه المصنفات من تقعيد متين، وتأصيل فريد للعلوم الشرعية، وما تتضمنه من فقه للمقاصد وتحقيق لسدِّ الذرائع، ومعالجة للنوازل والمستجدات، ودراية بأحوال النفوس وأدوائها. وبالله التوفيق.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٣٢٩).
(٢) العقود الدرية، ص ٤٨.
(٣) الردّ الوافع، لابن ناصر الدين، ص ٩٩.

رهق أبي العبــاس والمـوهوبين

عقول الناس على قدر زمانهم، كما قال مطرِّف بن عبد الله بن الشخير[1]، وقد وصف الإمامُ إبراهيم الحربي بشرَ بن الحارث (الزاهد المشهور) (ت ٢٧٧هـ) قائلاً: «ما أخرجت بغداد أتمَّ منه، وكان في كل شعرة منه عقل، ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء، وما نقص من عقله شيء»[2].

وعندما يتحدث السلف الصالح عن العقلاء الكبار، فإنهم يعنون بهم أرباب العقول المحمودة التي أعانها الله - تعالى - بالتوفيق «فالعقل الذي أعين بالتوفيق يدعو صاحبه إلى موافقة أمر الله، والانقياد لحكمه، والتسليم لما جاء عنه، وترك الالتفات إلى ما خالف أمره، أو وافق نهيه... فيسعد باتباع الأمر، واجتناب النهي»[3].

(١) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة: ١/ ٣٩٣.
(٢) البداية لابن كثير: ١٠/ ٢٩٧.
(٣) الحجة في بيان المحجة لقوام السُّنة الأصفهاني، ٢/ ٢٩٥، بتصرف يسير.

وإلا فقد يكون الشخص من أذكياء العالم، لكنه مخذول جزاء إعراضه عن اتباع الشرع المنزَّل، واعتراضه على نصوص الوحيين.

قال ابن تيمية: «من عارض آيات الله بمعقوله، فإنه لا علم عنده، إذ ذلك المعارض، وإن سمَّاه معقولاً، فإنه جهل وضلال، فليس بعلم ولا عقل ولا هدى... (إلى أن قال): ومن تبحَّر في المعقولات وميَّز بين البيِّنات والشبهات، تبيَّن له أن العقل الصريح أعظم الأشياء موافقة لما جاء به الرسول ﷺ وكلما عظمت معرفة الرجل بذلك، عظمت موافقته للرسول ﷺ»[1].

فالأذكياء وأصحاب المواهب الذهنية الحادة لا يحصل لهم الانتفاع بعقولهم في الدارين إلا بلزوم الشريعة والاعتصام بالكتاب والسُّنة؛ فالعقل خلقه الله - تعالى - لأجل عبادته، ولا يَشرُف هذا العقل، ولا يظهر خيره العميم، ولا يعظم أثره إلا بعبادة الله واتباع شرعه، بل إن العبد يعتري عقله الفساد، ويطيش حلمه، لأجل مخالفة الشرع... كما قرره ابن القيم بقوله: «إن الله - سبحانه - اقتضت حكمته وعدله أن يُفسد على العبد عقله الذي خالف به رسله، ولم يجعله منقاداً لهم، مسلماً لِمَا جاؤوا به، مذعناً له؛ فأول ما أفسد - سبحانه - عقل شيخهم القديم إبليس؛ حيث لم يَنْقَد به لأمره، وعارض النص بالعقل، وذكر وجه المعارضة، فأفسد عليه عقله غاية الإفساد، حتى آل الأمر إلى أن صار إمام المبطلين، وقدوة الملحدين، وشيخ الكفار والمنافقين... (إلى أن قال): فما عصي الله بشيء إلا أفسده على صاحبه ومن أعظم معصية العقل، إعرضه عن كتابه ووحيه...»[2].

وإن تعجْب فعجبٌ من أقوام تزن عقولهم الجبال، ثم لهم مقالات واعتقادات

(١) الدرء: ٥/ ٢٦٣، ٣١٤.
(٢) الصواعق المرسلة: ٣/ ٨٦١، ٨٦٥

محل تهكم وسخرية، وموطن مكابرة وسفسطة، كما في مقالات فلاسفة اليونان، وكفرة أهل الكتاب، ومن شابههم من مبتدعة هذه الأمة؛ فهي حقيقة مطَّردة وسنة ثابتة: أن من جانَبَ سبيل المرسلين، وزاغ عن الصراط المستقيم، فإن انتكاس العقل يصيبه، وطيش الأحلام يلازمه والمقصود أن العقل لا يتحقق أثره ولا تعم بركته إلا فيما ينفع، وتفتيقه فيما يصلح دون إفراط وغلو؛ فلا يتوثب على الشرع، ولا يتجاوز حدود ما أنزل الله على رسوله.

وتاريخ الإسلام حافل بالنماذج الرائعة، والقدوات الرفيعة من أصحاب العقول الفذة، من العلماء الربانيين الذين جمعوا بين رسوخ العلم الشرعي، وحِدَّة الذكاء وتوقده، وإخبات العبادة وإخلاصها.

«قال الشعبي - رحمه الله -: إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمع فيه العقل والنسك»[1].

وأبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - إحدى هذه النماذج النادرة والشخصيات الفريدة التي تميزت بقوة ذكاء، وسرعة إدراك، وسيلان ذهن حتى قالوا عنه: «كأن عينيه لسانان ناطقان» وسنشير إلى جوانب من ذلك في مرحلة نشأته ورهقه.

- ناظر ابن تيمية وهو دون البلوغ، وكان يحضر المدارس والمجالس في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار، وأفتى في سن السابعة عشرة من عمره، وكذا بدأ التأليف في سن السابعة عشرة، وقبل ذلك كان قد أتقن العلوم من: التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعربية، والتاريخ، والجبر، والمنطق، والملل، وعلم أهل الكتابين، وعلم أهل البدع... وغيرها وهو ابن بضع عشر سنة[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٠٧.

(٢) انظر: مقدمة الجامع لسيرة ابن تيمية، تقديم بكر أبو زيد.

- كان في بداية أمره يخرج أحياناً إلى الصحراء يخلو عن الناس، ويطلب الأنس بالله والشوق للقائه . . . ويتمثل قول الشاعر:

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدث عنك النفس بالسرِّ خالياً[1]

نشأ - رحمه الله - في عفاف وتألُّه واتباع وإخبات كما في هذه الواقعة التي حكاها - رحمه الله - قائلاً: «كنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة، فبتنا بمكان، وأرادوا أن يقيموا سماعاً[2]، وأن أحضر معهم فامتنعت من ذلك، فجعلوا لي مكاناً منفرداً قعدت فيه، فلما سمعوا وحصل الوجد صار الشيخ الكبير يهتف لي في حالة وَجْدِه ويقول: يا فلان! قد جاءك نصيب عظيم، تعال خذ نصيبك، فقلت لهم: أنتم في حل من هذا النصيب، فكل نصيب لا يأتي من طريق محمد بن عبد الله ﷺ فإني لا آكل منه شيئاً.

والذي قلته أن هذا النصيب وهذه العطية سببها غير شرعي، ليس هو طاعة لله ورسوله، ولا شَرَعها الرسول . . .»[3].

- ولئن كان الأطفال والناشئة في مرحلة لهو وتصابي، ولعب ومرح، فإن أبا العباس في طفولته. في جدٍّ وجَلَد في تحصيل العلم وتحقيقه؛ إذ طَلَبَ العلم وهو في السابعة من عُمُره، وأخذ عن أكثر من مائتي عالم في دمشق الشام، بل إنه ناظر - وهو طفل صغير - أتباع ابن عربي الزنديق في هذيانهم باسم «هو» فيجعلون

---

(١) انظر مدارج السالكين: ٣/ ٥٩، ٦٠.

(٢) يعني: سماعاً بديعاً من إنشاد قصائد ومنظومات على سبيل التعبد تصدُّ عن سماع القرآن . . . وقد يصحبها بعض المعازف، كما هو مبسوط في الاستقامة لابن تيمية، والسماع لابن القيم وتلبيس إبليس لابن الجوزي.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤١٨ - ٤١٩، باختصار.

قول لا إله إلا الله ذكراً للعامة، واسم الله المفرد (الله) للخاصة، و (هو) لخاصة الخاصة... فكان من هذه المناظرة ما سطَّره قائلاً: «قال لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال المعنى: وما يعلم تأويل (هو) أي اسم (هو) الذي يقال فيه (هو، هو)، وصنف ابن عربي كتاباً في (الهو) فقلت له - وأنا إذ ذاك صغير جداً - لو كان كما تقول: لكتبت في المصحف مفصولة (تأويل هو) ولم تكتب موصولة، وهذا الكلام الذي قاله هذا، معلوم الفساد بالاضطرار...»(١).

- وإذا تجاوزنا عالم اليقظة إلى عالم النوم والأحلام، فأحلام عموم الناشئة يكثر فيها الاحتلام وأضغاث الأحلام وما أشبهه! وأما أبو العباس - رحمة الله عليه - فقد علت همته وشَرُفت نفسه، حتى في أحلامه ومناماته وقت رهقه وشبابه؛ إذ ليس له شغل ولا همٌّ إلا بالإقبال على العلم والتصنيف، والذبِّ عن دين الله - تعالى - فكان يورد الحجج والبينات في الردِّ على المبطلين، كما في مناظرته لابن سينا في المنام؛ حيث قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وقد كنت في أوائل معرفتي بأقوال الفلاسفة بعد بلوغي بقريب، وعندي من الرغبة في طلب العلم، وتحقيق هذه الأمور ما أَوجَبَ أني كنت أرى في منامي ابن سينا، وأنا أناظره في هذا المقام وأقول له: أنتم تزعمون أنكم عقلاء العالم وأذكياء الخلق، وتقولون مثل هذا الكلام الذي لا يقوله أضعف الناس عقلاً، وأورد عليه مثل هذا الكلام فأقول: العقل الأول إن كان واحداً من جميع الجهات فلا يصدر عنه إلا واحد، لا يصدر عنه عقل ونفس وفلك، وإن كان فيه كثرة، فقد صدر عن الواحد أكثر من واحد، ولو قيل: تلك الكثرة هي أمور عدمية؛ فالأمور العدمية لا يصدر عنها وجود... إلخ»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٥٦٠.

(٢) بيان تلبيس الجهمية: ٥/ ٢٦٣، ٢٦٤.

وقد اقتصرت في النقل السابق على ما كان واضحاً سهلاً، وتركت العويص والعميق إشفاقاً على الكاتب، ورفقاً بالقارئ!

وأخيراً فلقد كانت هذه العقلية الباهرة وسطاً بين الإفراط والتفريط، فلئن كان تراثه النفيس حافلٌ بالبراهين العقلية والحِجَاج والبراهين التي نسفت «معقولات» الفلاسفة وأشباههم من المتكلمين، وترغيبه في النظر في العلوم الصادقة: كالجبر، وعويص الفرائض، والوصايا، لشحذ الذهن وتفتيقه[1]. فإن في تراثه تأكيداً وتقريراً بلزوم العقل للشرع، وموافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، والتحذير من انفلات العقل وخروجه عن ناموس الشريعة، وكذا توسطه تجاه ما يحِّرك الذهن؛ إذ لا حاجة إلى الإغراق في حساب النجوم، والاشتغال بمعرفة أقدار الأفلاك وحركاتها وصفاتها، فهو كثير التعب قليل الفائدة...[2].

فعلى الدعاة والمشتغلين بالمحاضن التربوية أن يلتفتوا إلى هؤلاء الأعلام؛ ففي الأمة من النوابغ والأذكياء ما لا يحصى؛ فيحتاج إلى تهيئة البيئة الملائمة، والظروف المناسبة في إعداد هؤلاء النوابغ، وتوجيههم إلى العلم الشرعي والتربية الإيمانية التعبدية؛ إذ صار النبوغ - الآن - يقترن بالاشتغال بسائر العلوم وإهمال علوم الشريعة، والله المستعان.

---

(١) انظر: الردِّ على المنطقيين: ص ٢٥٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٨١.

معالم الحج في تقريرات ابن تيمية

لم يحج ابن تيمية - رحمه الله - إلا حجة واحدة سنة ٦٩٢ هـ، وناله وأصحابَه في الطريق ريح شديدة جداً، مات بسببها أقوام، وحملت الريح جِمالاً عن أماكنها، واشتغل كل أحد بنفسه[١]. وبعد عودته من الحج آلت إليه الإمامة في العلم والدين[٢].

ومع هذا فقد حفلت مؤلفاته بتحريرات رصينة لمسائل الحج، واختيارات نفيسة وتقعيدات متينة، وفتاوى جليلة. . . ولن نَعْرِض في هذه السطور لشيء من ذلك؛ إذ قد أوعبها الباحثون واستوفاها المحققون، وإنما نسوق معالم كبيرة وملامح كليَّة من خلال تقريرات ابن تيمية بشأن هذه الشعيرة العظيمة:

- من المعلوم أن الكعبة - حرسها الله - هي مهوى القلوب، ومحط الأفئدة «ولهذا أخبر - سبحانه - أنه [أي البيت الحرام] مثابة للناس؛ أي: يثوبون إليه على

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ١٣/ ٣٥٢.
(٢) انظر الجامع لسيرة ابن تيمية، صفحة (ص). ونظير ذلك ما سطَّره العلامة عبد الرحمن بن حسن عن جدِّه الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - لما حجَّ بيت الله الحرام، وقف الإمام في الملتزَم وسأل الله - تعالى - أن يُظهِر هذا الدين بدعوته، وأن يرزقه القبول من الناس. ينظر: المقامات لعبد الرحمن بن حسن: ص ٧.

تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وَطَراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقاً.

لا يرجعُ الطَّرْفُ عنها حين ينظرها

حتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مشتاقا

فللَّه كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أُنفق في حبها من الأموال والأرواح، ورضي المحب بمفارقة فِلَذ الأكباد والأحباب والأوطان...»[1].

وقد تحدَّث ابن تيمية عن عَظَمَة الكعبة، وانجذاب القلوب إليها، وحِفْظِ الله - تعالى - لهذا البيت العتيق مما هو أكبر آيات الرسل، وأعظم المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، والتي أوجبت حيرة الفلاسفة وأشباههم.

قال ما ملخصه: «وكذلك ما خصَّ الله به الكعبة البيت الحرام من حين بناه إبراهيم وإلى هذا الوقت: من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والقصور، ثم لا يلبث أن ينهدم ويُهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بوادٍ غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهيه الأنفس من البساتين والمياه، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله، وهذا مما يُعلَم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر وقوى النفوس وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين. ولهذا كان أمر البيت مما حيَّر هؤلاء الفلاسفة والمنجمين؛ لكونه خارجاً عن قوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه كل عاقل لبيب، مثل قول بعضهم: إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم

(١) زاد المعاد لابن القيم: ١/ ٥١.

يُبخَّر ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع ليُقْبِل الناس إلى الحج، وهذا مما يعلم كل مَنْ عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب...»[(١)].

ومن العجب أن يعمد الرافضة الحمقى إلى احتقار الكعبة، والغلو في كربلاء؛ لأن فيها قبر الحسين بن علي - رضي الله عنهما - وتقول روايات الرافضة: إن الكعبة ليست إلا ذَنَباً مهيناً لأرض كربلاء[(٢)].

بينما عند أهل الكتاب الإخبار بعظمة الكعبة وكثرة قاصديها، وهلاك مَنْ قَصَدَها بخراب ونحوه، كما بيَّنه ابن تيمية[(٣)].

- احتفى ابن تيمية بتقرير شعيرة الحج، وعظيم شأنه، فجعله من الدين المِلِّيِّ الذي جاءت به الرسل - عليهم السلام - وقرر أن الحج من الحنيفية ملَّة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فالحنيف هو الحاج إلى بيت الله الحرام.

فقال - رحمه الله -: «معلوم باتفاق الأمم، ونَقْل المتواتر أن إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام الذي ما زال محجوجاً من عهد إبراهيم، تحجُّه العرب، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حجَّ إليه موسى بن عمران، ويونس بن متَّى...

ولما بعث الله محمداً ﷺ أوجب حجَّه على كل أحد، فحجَّت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها»[(٤)].

وقال في موطن آخر: «والحج داخل في الحنيفية من حين أوجبه الله على لسان محمد ﷺ فلا تتم الحنيفية إلا به، وهو من ملة إبراهيم، وما زال مشروعاً من عهد إبراهيم.

---

(١) الصفدية: ١/ ٢٢٠، ٢٢١ = باختصار.

(٢) انظر أصول مذهب الشيعة لناصر القفاري: ٢/ ٤٦٢، ٤٦٦.

(٣) . انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩.

(٤) الجواب الصحيح: ٣/ ٣٠٦، ٣٠٧ = باختصار.

قال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى حجَّه عليه واجباً، إن استطاع إليه سبيلاً.

فالحج كان من الحنيفية، لكن كان من مستحباتها لا من واجباتها»[1].

بل جزم - رحمه الله - أن الكعبة هي قِبْلة الأنبياء - عليهم السلام - وليس بيت المقدس، فقال: «إن الكعبة ومسجدها وحرمها أفضل بكثير من بيت المقدس وهي البيت العتيق، وقِبْلَة إبراهيم وغيره من الأنبياء، ولم يأمر الله قط أحداً أن يصلي إلى بيت المقدس؛ لا موسى ولا عيسى...»[2].

- ألمح ابن تيمية إلى ما يمكن أن يسمى بألاعيب السياسة ودجلها، وإحداث دين باطل وتطويعه لأهواء السلاطين؛ فإنه لما وقعت الفتنة بين عبد الله بن الزبير - رضي الله عنه - وبين عبد الملك بن مروان، وكان ابن الزبير يخطب في أيام منى وعرفة، وينال من بني مروان؛ فمال معظم أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان، فمنع الناس من الحج فضجوا.

قال ابن تيمية: «وقد قيل: إن الناس كانوا يقصدون الحج فيجتمعون بابن الزبير، أو يقصدونه بحُجَّة الحج، فعظَّم عبد الملك شأن الصخرة بما بناه عليها من القبة، وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف؛ ليكثر قَصْد الناس لبيت المقدس؛ فيشتغلوا بذلك عن قَصْد ابن الزبير، والناس على دين الملك، وظهر في ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا»[3].

---

(١) جامع المسائل: ٥/ ١٨٢-١٨٤ = باختصار، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٣٨٠.
(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٢٧٩. (الإيمان الكبير).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٨١٠.

بل جاء في تاريخ ابن كثير: «ولم يكن يومئذٍ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس؛ بحيث إن الناس التهوا به عن الكعبة والحج، وأتوه من كل مكان»[١].

ولما قال عبد الملك بن مروان عن صخرة بيت المقدس: هذه صخرة الرحمن التي وضع عليها رجله، قال عروة بن الزبير: سبحان الله! يقول الله - تعالى -: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. إنما هذا جبل قد أخبرنا الله أنه يُنْسَف نسفاً[٢].

والمقصود أن هذه «المضارة» والمباهاة سرعان ما لحقها الزوال والاندراس فأمست أثراً بعد عين؛ «فما لم يكن لله لا ينفع ولا يدوم»[٣].

وهذه الواقعة تُذَكِّرنا بما فعله أبرهه الأقلف عندما بنى الكنيسة الخسيسة (كما عبَّر ابن كثير)، والمسماة بـ «القُلَّيس» من أجل أن يصرف الناس عن حج بيت الله الحرام، فجاء رجل من أهل مكة، فأحدث فيها، فغضب أبرهه، وسار بجيشه ليهدم الكعبة، فأهلكه الله عاجلاً غير آجل، فالحمد لله[٤].

وأما «القُلَّيس» فصارت قَفْراً، ثم نُقِضَت حجراً حجراً وعفت آثارها في عهد الخليفة العباسي «السفاح»[٥].

- من الأصول العظام التي يؤكدها ابن تيمية أن لا يُعبَد الله إلا بما شرع، والتحذير من البدع وكل ما يفضي إلى مضاهاة الشريعة، ومجانبة الأعياد البدعية.

(١) البداية والنهاية: ٨/ ٢٨٠.
(٢) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد: ١/ ٢٥٠.
(٣) التدمرية لابن تيمية: ص ٢٣٢.
(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ١٧٠، وقاعدة عظيمة لابن تيمية: ص ١٠١.
(٥) انظر البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ١٧٠.

فكان من تقريراته ما يلي: «المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيداً، مثابة للناس، يجتمعون فيها، وينتابونها للدعاء والذِّكر والنسك، وكان للمشركين أمكنة ينتابونها للاجتماع عندها، فلما جاء الإسلام محا الله ذلك كله»[1].

وغلَّظ على من تحرَّى زيارة بيت المقدس أيام الحج؛ لما فيه من الابتداع، ومضاهاة الحج إلى بيت الله الحرام، فقال: «إن زيارة بيت المقدس مستحبة مشروعة للصلاة فيه والاعتكاف، وهو أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال، لكن قَصْد إتيانه في أيام الحج هو المكروه؛ فإن ذلك تخصيص وقت معيَّن بزيارة بيت المقدس، ولا خصوص لزيارته في هذا الوقت على غيره. ثم فيه أيضاً مضاهاة للحج إلى المسجد الحرام، وتشبيهاً له بالكعبة، ولهذا قد أفضى إلى ما لا يشك مسلم في أنه شريعة أخرى غير شريعة الإسلام»[2].

وما ألمح إليه شيخ الإسلام من تبديل شريعة الإسلام قد أضحى ظاهراً جليّاً عند الروافض؛ ففي زندقة جوفاء وكذبة صلعاء جاء في كافي الكليني: «من زار قبر الحسين يوم عرفه كتب الله له ألف حجة وألف عمرة وألف غزوة»[3].

فهذا المكر المكشوف والإفك الرخيص ما هو إلا سعي متعثر لأجل نبش ملة عمرو بن لُحَي، وطَمْس الحنيفية ملة إبراهيم - عليه السلام - وصَرْف الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام.

وأشار ابن تيمية في غير موطن إلى المباعدة عن تخصيص بقاع بالزيارة والعبادة، وما في ذلك من إحداث في دين الله، ومجانبة سبيل المؤمنين، فقال: «وحجَّ النبي ﷺ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٦٠.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٣٧، وينظر: مجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٥.
(٣) انظر: أصول الشيعة للقفاري: ٢/ ٤٦٠.

ومعه جماهير المسلمين، لم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله، وهو في ذلك كله: لا هو ولا أحد من أصحابه يأتي غار حراء، ولا يزوره، ولا شيئاً من البقاع التي حول مكة، ثم بعده خلفاؤه الراشدون وغيرهم من السابقين الأولين؛ لم يكونوا يسيرون إلى غار حراء ونحوه للصلاة فيه ولا للدعاء»[1].

والمقصود: أن الخروج عن الشرع المنزل، والتفلُّت من لزوم السنَّة قد سوَّغ لديهم الحج إلى المشاهد والقبور[2]، ولذا قال ابن تيمية: «من زار مكاناً من هذه الأمكنة (يعني: القُمامة)[3]، أو بيت لحم، أو كنائس النصارى) معتقداً أن زيارته مستحبة والعبادة فيه أفضل من العبادة في بيته، فهو ضال خارج عن شريعة الإسلام»[4].

كما حرر أن (الحرم) لا يطلَق إلا على حرم مكة اتفاقاً، وحرم المدينة النبوية عند الجمهور؛ فلا يصح إطلاق الحرم على بيت المقدس، ولا الخليل[5]. فضلاً عن إطلاقه على حرم جامعة ونحوها.

وذكر ابن تيمية أن الشياطين قد تحمل أقواماً من بلاد بعيدة إلى عرفة، دون أن يتَّبِعوا الشريعة ويلزموا الطريقة النبوية، وحكى أن أحد العلماء أنكر على هؤلاء، فقال: «إن هذا الذي تفعلونه لا يُسقط الفرض عنكم، ولا يتقبَّله الله حتى تحجُّوا كما أمر الله ورسوله ﷺ، فقالوا: نحن نقبل منك ونحج معك على السنَّة؛ فلما حجُّوا قالوا:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٧٩٧ = بتصرف يسير، وانظر: منهاج السنَّة النبوية: ٢/ ٤٤٨، ومجموع الفتاوى: ٢٦/ ١١٩، ١٤٤.

(٢) انظر: الرد على البكري (ت السهلي): ص ٣٠٦.

(٣) قمامة: بالضم أعظم كنيسة للنصارى في بيت المقدس.

(٤) مجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٤.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٦/ ١١٦، ١١٧ - ٢٧/ ١١، ١٥، واقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٨٠٩.

جزاك الله خيراً؛ فإنَّا في هذه الحَجَّة ذقنا طعم العبادة لله وحلاة الحج»[1].

والمقصود أن أئمة السلف كابن تيمية - مثلاً - قد برعوا في إظهار هذه المعاني الكبيرة، والمقاصد الكلية، والأصول الجليلة لفريضة الحج، كما أنهم حرروا وحققوا فروع الحج ومسائله التفصيلية؛ فإظهار عَظَمَة الكعبة المشرَّفة باعثُه تعظيم الله - عز وجل - وتعظيم شعائره وحرماته. ودين الله - تعالى - قائمٌ على تعظيم الله وإجلاله. والحج من ملَّة التوحيد؛ إذ الحج نوع من القصد؛ فهو من توحيد الإرادة والقصد (توحيد العبادة)، وفيه الدعاء والتفرغ إلى الله - تعالى - في جميع مناسك الحج، والدعاء هو العبادة، إضافةً إلى ما يحويه الحج من تَقَصُّد مخالفة المشركين ومجانبة أصحاب الجحيم، وأيضاً فدين الله - تعالى - قائم على أصلين: أحدهما: ألا نعبد إلا الله كما سبق، والآخر: أن لا يُعبد إلا بما شرع؛ فلزوم الشرع المنزَّل هو آكد وأجلُّ أصول الدين. والاعتصام بالسنَّة سبيل النجاة، وكفيل بمحو البدع وطَمْسِها؛ إذ إن من لم يفعل المشروع والسنَّة وقع في الممنوع والبدعة كما هو مشاهَد.

فيا له من دين لو أنَّ له رجالاً!

---

(١) جامع المسائل: ١/ ٢١١.

احتساب ابن تيمية على المتديِّنة!

سيرة ابن تيمية حافلة بجوانب متعددة ومجالات متنوعة في الاحتساب؛ فالاحتساب العملي ظاهر في تقريراته وتطبيقاته؛ حتى أنه في هذا الشهر (شوال سنة ٧٠١هـ ثار جماعة من الحَسَدة عليه، وشَكَوا منه أنه يقيم الحدود ويعزِّر... ثم بيَّن خطأهم، فسكنت الأمور[١].

ومِن قَبْل ذلك في سنة ٦٩٩هـ دار ابن تيمية وأصحابه على الخمَّارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وعزَّروا جماعة من أهل الحانات، ففرح الناس بذلك[٢].

وحكى - رحمه الله - طرفاً من ذلك الاحتساب فقال: «... مثل الشخص الذي قتلناه سنة خمس عشرة[٣]، وكان له قرين يأتيه ويكاشفه[٤]، وكان قد انقاد له طائفة من المنسوبين إلى أهل الإسلام والرئاسة فيكاشفهم حتى كشف الله أمره»[٥].

---

(١) ينظر: البداية لابن كثير: ١٤/ ٢٠.
(٢) ينظر البداية لابن كثير: ١٤/ ١٢.
(٣) بعد المائة السابعة.
(٤) أي: كان له قرين من الجنَّ يخبره بالمغيَّبات.
(٥) جامع الرسائل: ١/ ١٩٦.

وأفرد إبراهيم الغياني فصلاً في ما قام به ابن تيمية وتفرَّد به دون غيره من العلماء؛ وذلك بتكسير الأحجار التي يُتبَرَّك بها[1]، ومن ذلك أنه كسر العمود المخلَّق بدمشق وأتلفه، وقد كان الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) يدعو الله - تعالى - قائلاً: اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المخلَّق[2]!

ولئن كان الله - تعالى - قد استجاب دعوة النووي، فإن هذا الواقعة تكشف أن هذه المظاهر الوثنية قد استحكمت وتمكنت؛ حتى أن الإمام النووي تعسَّر عليه إزالة هذا العمود، فلم يملك إلا الدعاء. مع أن النووي - كما وصفه السبكي -: «أَمْرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر أشهر من أن يُذكَر»[3].

كما أن هذه الحادثة (ونظائرَها) تعطي دلالة ظاهرة على تغلغل هذه الشركيات والخرافات في نفوس الناس؛ حتى أن الذين رافقوا ابن تيمية لأجل تكسير ذاك العمود، سرعان ما تخلَّو عن ذلك وجبنوا عن المبادرة. حتى شرع ابن تيمية في تكسيره فتتابع الناس[4].

والحاصل: أن احتساب ابن تيمية قد استوعب مجالات الاحتساب وجميع فئات الناس؛ فمن الاحتساب السياسي، إلى الاحتساب في العبادات والأحوال، إلى الاحتساب الأخلاقي والاجتماعي، إلى الاحتساب الاقتصادي، كما أنه احتسب على الحكام والعلماء والعبَّاد والعامة، وعلى أهل الكتاب وأهل الابتداع، بالمقال والفعال كما هو مبسوط في موضعه. وسنقتصر في هذه السطور على مواقف محددة من احتسابه على المتديِّنة كما يلي:

(١) ينظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص٧٨ - ٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٠ - ٨١.
(٣) طبقات السبكي: ٨/ ٣٩٧.
(٤) انظر تفصيل ذلك في الجامع لسيرة ابن تيمية، ص٨٠ - ٨١.

١ - تحدَّث - رحمه الله - عن آفة بعض المتديِّنين الذين ينكصون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتدثرون بأن ذلك التَّرْك والفرار هو من باب الهروب من الفتنة فقال: «وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي عن المنكر الذي يكون به الدين، وتكون كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة، وهذه حال كثير من المتدينين يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله لئلا يفتنوا بجنس الشهوات وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها»[١].

وذكر في موطن آخر أن المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي ظنّاً أن ذلك من باب ترك الفتنة؛ حتى أن بعضهم أسقط شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢]! فهؤلاء المتديِّنة لا يقتصرون على مجرد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن في ذلك تفريطاً ظاهراً وعصياناً بيِّناً؛ لكنهم تجاوزوا ذلك إلى بليَّة أطمَّ؛ حيث صيَّروا هذا التقاعس والتنصُّل من باب التخوُّف من الفتنة، والحذر من الولوج إليها، لكن الواقع أنهم في فتنة متحققة؛ فهم فروا من فتنة متوهَّمة ومتوقَّعة إلى فتنة متحقِّقة واقعة!

وما حققه ابن تيمية لَيُؤكد أهمية الرسوخ والفقه لأحكام الاحتساب، كما يقرر ضرورة تحريك الفقه الباطن، وإحياء واعظ الله في قلب كل مسلم. قال - تعالى -: ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] «فالإنسان شاهد ومحاسَب، ومعاذيره لا تُقبَل، بل يقرر بعمله. فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئاً»[٣].

---

(١) الاستقامة: ٢/ ٢٩٠، وانظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٦٧.
(٢) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ١/ ١٧٧.
(٣) تفسير السعدي: ٧/ ٢٤، باختصار.

وقال - رحمه الله -: «فالاعتذار عن النفس بالباطل، والجدال عنها لا يجوز، بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربِّه بذنبه، وخضع له بقلبه، وسأله مغفرته»(١).

٢ - وكما هي منهجية ابن تيمية في تحقيق العدل والوسط في التقريرات والردود، والمسائل والدلائل؛ فهو لا يستغرق في مدافعة انحراف ويغفل عما يقابله؛ بل إنه يدافع التفريط والإفراط مراعياً تفاوت مراتب الشرور؛ فلئن كان - رحمه الله - حذَّر من التقصير في باب الاحتساب، فإنه غلَّظ على من أفرط وبغى في الأمر والنهي، فقال - رحمه الله - عن قوله - تعالى -: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]: «ألاَّ يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمِّهم أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم؛ فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله: إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه؛ وسواء ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين... وما أكثر ما يصوِّر الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان. وأنت أذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها و عبَّادها وأمرائها وجدتَ أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الرافضة على المتسننة مرات متعددة، وكما قد يبغي بعض المتسننة إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به»(٢).

فابن تيمية يحذِّر من مجاوزة الحدِّ في الاحتساب، وأن بعضهم يقارف البغي والعدوان باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن أهل التفريط يتركون الاحتساب باسم اجتناب الفتنة، وهذا يكشف عن دارية هذا الإمام الرباني بآفات

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٤٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٨١ - ٤٨٣، باختصار.

النفوس وكمائنها عند المتديِّنة.

ثم إنه - رحمه الله - أشار إلى أن التفرُّق عند أرباب المعارضات الثلاث (الملوك، العلماء، العباد[1]) ناشئ عن ذلك البغي، ولا يغيب عنه «النقد الذاتي» لبعض أهل السُّنة وأنه قد يقع منهم بغي؛ سواء في ما بينهم، أو مع بعض المبتدعة، وهكذا أخلاق أئمة السُّنة: إنصاف من أنفسهم، وعدل وموضوعية، ورحمة وإعذار.

٣ - حرر ابن تيمية أن الاحتساب له حالتان: فمن كان قادراً فعليه الانتصار والمدافعة ومجانبة العجز والإضاعة، ومن كان عاجزاً عن الاحتساب فعليه بلزوم الصبر والتجلُّد والحذر من الجزع واليأس. «فالأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه»[2]. وقال - رحمه الله -: «ضد الانتصار العجز، وضد الصبر الجزع، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس حتى بعض المتديِّنين إذا ظلموا أو رأوا[3] منكراً فلا هم ينتصرون ولا يصبرون، بل يعجزون ويجزعون»[4]

وقال في موطن آخر: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغيَّر كثير من أحوال الإسلام جزع وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام»[5].

---

(١) وهي المذكورة في شعر عبد الله بنِ المبارك - رحمه الله -:

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحبارُ سوء ورهبانها

وقد احتفى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بالحديث عن هذه المعارضات الثلاث. ينظر: الاقتضاء: ٢/ ٥٩٨، والصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٥١، والمدارج: ٢/ ٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٨/ ٣٢٠، ١٤/ ٣٩.

(٣) في المطبوع: أرادوا، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٣٨.

(٥) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٥.

وهذا العجز والكسل، والجزع والتسخط قد يكون بلسان الحال؛ فإن بعض المتدينة قد لا يتفوَّه بالجزع ولا بالعجز؛ لكن أحواله وفعاله وسائر شؤونه لا تنفك عن شوائب العجز والإضاعة والتواني، ودسائس الجزع والتسخط واليأس.

٤ - بيَّن - رحمه الله - أن بعض المنكرين قد يستحوذ عليهم الترك والإنكار والتقصير في لزوم السنن وفعل المعروف، وأن ذلك مخالف للشرع، كما أنه مصادم لطبيعة النفس البشرية التي جُبلت على العمل، فأصدق ما يسمَّى به الإنسان أنه حارث لا يفارق العمل والسعي والاكتساب.

قال - رحمه الله -: «وكثير من المنكرين لبدع العبادات والعادات تجدهم مقصِّرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به؛ فلا يُنهَى عن منكر ولا ويؤمَر بمعروف يغني عنه، كما يُؤمَر بعبادة الله - سبحانه - ويُنهَى عن عبادة ما سواه. والنفوس خُلقت لتعمل لا لتترك؛ وإنما الترك مقصود لغيره؛ فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ أو الناقص»[1].

وهذا واقع مشاهَد عند بعض إخواننا المتديِّنة، وإذ يغلب عليهم النفي والسلب في الاحتساب، والاقتصار على سرد المنهيات والمبتدعات، مع أن فعل المعروف ولزوم السنن آكد من ترك هذه المخالفات، فإن المأمورات مقصودة لذاتها، إضافة إلى أن أداء السنن والاشتغال بالمأمورات هو الكفيل برفع البدع وزوال المخالفات.

هذا وبالله التوفيق.

---

(١) الاقتضاء: ٢/ ٦١٧.

تقريرات سياسية لابن تيمية

عاش ابن تيمية – رحمه الله – في زمن حافل بمتغيرات سياسية، وحوادث جسام، وتعدد الولايات والإمارات، لكنه تعامل مع هذه الولايات وأصحابها بعلم وعدل، فلم يكن بمعزل عنها، ولا مناكفاً لها، كما لم يكن مجاملاً للحكام ولا ساكتاً عما أحدثوه.

ولن نتحدث عن مواقفه العملية في هذا الشأن مع أهميتها، لكن الأهم هو الحديث عن تقريراته العلمية المنهجية في باب السياسة الشرعية كما في السطور التالية:

– قرر في مواطن عدة أن مقصود جميع الولايات في الإسلام: أن يكون الدين كله لله تعالى، وإصلاح دين الناس ودنياهم، فليست الولاية ولا صاحب الولاية مقصوداً لذاته، وإنما نُصِّب لأجل إقامة الدين الحق، وإصلاح دنيا الخلق.

يقول رحمه الله: «فالمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسراناً مبيناً، ولم ينفعهم ما نعّموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم...»(١).

(١) مجموع الفتاوى «السياسة الشرعية» ٢٨/ ٢٦٢.

وقال في مطلع رسالة الحسبة: «جميع الولايات في الإسلام مقصودها أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لذلك...»[1].

وقرر أنه إذا عجز السلطانُ عن إقامة الحدود، وأداء الحقوق، أو إضاعته لذلك؛ فإن ذلك واجب على من قدر على إقامتها.

ثم قال: «وقول من يقول: لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه، إذا كانوا قادرين فاعلين بالعدل.

فالأمير إذا كان مضيّعاً للحدود، أو عاجزاً عنها؛ لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه.

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم إلا بعدد، ومن غير سلطان، أقيمت إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها»[2].

فتأمّل كيف جمع ابن تيمية بين الشجاعة والحزم بوجوب إقامة الشرع على القادرين إذا عجز الأمراء أو ضيّعوا، مع الحكمة، حيث اشترط أن لا يفضي ذلك إلى مفسدة راجحة.

وقد حفلت سيرة ابن تيمية بأمثلة عملية ومشاهد واقعية بإقامة الحدود، والتعزيرات، وإراقة الخمور، كما سطّره ابن كثير وغيره[3].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦١.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٤/ ١٧٦.
(٣) ينظر البداية لابن كثير ١٤/ ١٢، ٣٦، ٣٧.

- قرر ابن تيمية أن أهل السنة وسط في باب أصحاب الولايات الشرعية بين الوعيدية والمرجئة . .

فالوعيدية من الخوارج والمعتزلة قد ينكرون المنكر، لكن بنوع من التعدي والإفراط، فجوّزوا الخروج على أئمة الجور وقتالهم، ما تترتب عليه أنواعٌ من الفساد والمنكر أكثر مما أزالوه، وأما المرجئة فقد تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة، فأهل السنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، مع مراعاة مقاصد الشريعة، وقواعد المصالح والمفاسد.

فقال: أهل البدع من الخوارج والمعتزلة يرون قتال أئمة الجور والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم، أو ما ظنوه هم ظلماً، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظناً أن ذلك من باب ترك الفتنة، وهؤلاء يقابلون أولئك . . . »[1].

وقال أيضاً: «الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد، كهؤلاء القوم المسؤول عنهم (أي التتار) مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله . .

وهذا طريقة خيار هذه الأمة قديماً وحديثاً، وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم من يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم من يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقاً وإن لم يكونوا أبراراً»[2].

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح، وانظر: مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٦٧.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٠٨.

- بيَّن ابن تيمية في غير موضع أن السياسات المحدثة لا تنشأ إلا بترك السياسة الشرعية، أو الجهل باستيعابها للحوادث والنوازل، والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، فإذا أعرضوا عن السياسة الشرعية، استعاضوا عنها بالسياسات الفاسدة، مع أن لزوم السياسات الشرعية يحقق الغَناء والكفاية عن السياسات المبتدعة.

فقال رحمه الله: عامة الأمراء إنما أحدثوا أنواعاً من السياسات الجائرة من أخذ أموال لا يجوز أخذها، وعقوبات على الجرائم لا تجوز؛ لأنهم فرّطوا في المشروع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فلو قبضوا ما يسوغ قبضه، ووضعوه حيث يسوغ وضعه، طالبين بذلك إقامة دين الله، لا رياسة نفوسهم، وأقاموا الحدود المشروعة على الشريف والوضيع، متحرين في ترغيبهم وترهيبهم للعدل الذين شرعه الله؛ لما احتاجوا إلى المكوس (الضرائب) الموضوعة، ولا إلى العقوبات الجائرة»[(١)].

وبيّن أن تقصير فقهاء العراق - زمن الدولة العباسية - بمعرفة السياسة الشرعية، أوقعهم في إحداث سياسات في ولايات المظالم والحرب، وجعلوها مغايرة لولاية الشرع، ثم قال: «وتعاظم الأمر في كثير من أمصار المسلمين حتى صار يقال: الشرع والسياسة، وهذا يدعو خصمه إلى الشرع، وهذا يدعو إلى السياسة»[(٢)].

ثم إن السياسة الحادثة تضعف الخلافة[(٣)]، بل ربما كانت البدع شؤماً عليها، كما في سقوط دولة بني أمية، فإن آخر خليفة أموي هو مروان بن محمد وكان تلميذاً للجعد بن درهم رأس التعطيل.

(١) الاقتضاء ٢/ ٥٩٨.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٣٩٢.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٠/ ٣١٩.

- حـذّر ابن تيميـة من الطاعة العمياء للمخلوق، فلا طاعة مطلقة إلا للـرسـل - عليهم السلام -، فقال: «من نصّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضل في ذلك»[1].

وقرّر أن أهل السنة لا يوجبون طاعة الإمام في كل ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلا فيما تسوغ طاعته في الشريعة، فلا يجوزون طاعته في معصية الله، وإن كان إماماً عادلاً[2].

وبيّن أنّ أكثر الصحابة لم يشاركوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في قتاله لأهل الشام، مع أنه الخليفة الراشد الذي تجب طاعته؛ لأن هذا قتال فتنة، وقد جاءت النصوص النبوية في النهي عن قتال الفتنة، فلا عدول عن هذه النصوص الخاصة الصريحة إلى نص عام في طاعة أولي الأمر[3].

وأخيراً؛ ففي التراث التيميّ من التحقيقات الفريدة والتأصيلات المتينة ما يزيل اللبس ويدفع الغلط عن مذهب الصالح في شأن السياسات. . وبالله التوفيق.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٦٩، وينظر: السبعينية (بغية المرتاد) ص ٤٩٥، ومنهاج السنة ٣/ ٤٩٠.
(٢) انظر: منهاج السنة ٣/ ٣٨٧.
(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٤/ ٤٤٣.

أهل السنة والخصوم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

• منذ أشرقت الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وخصوهما يقارفون الكبر والمكر والصدّ عن سبيل الله - تعالى - بالطعن في هذا الدين، والعمل المتواصل بالإساءة للصادق الأمين ﷺ، فسمّى بعض المشركين رسول الله ﷺ ساحراً، وسمّاه بعضهم كاهناً، وبعضهم مجنوناً، وبعضهم مفترياً كذّاباً.

ولما أخبر النبي ﷺ ورقةَ بن نوفل بما رآه في بدء الوحي.. فقال له ورقة: هذا الناموس[1] الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[2]، ليتني أكون حيّاً؛ إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجيّ هم»؟! قال: نعم! لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب - يلبث - ورقة أن توفي. أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، برقم (٣).

(١) الناموس صاحب السر، والمراد به ها هنا جبريل - عليه السلام -.
(٢) أي: شاباً.

ولما قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك ما لقيتْ، وكان أشدّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا لِيل بن عبد كُلال[1]، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي...» الحديث. أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، برقم (٣٢٣١)، وانظر: باب: ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ك: مناقب الأنصار، من صحيح البخاري.

• وإذا تبيّن ذلك فإن أتباع النبي ﷺ لا بد أن يصيبهم البلاء، وتعرض لهم المحن، ولذا قال بعض السلف: وهذا علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة[2]. ومع أن أهل السنة امتُحنوا بأنواع المحن، وفُتنوا بأنواع الفتن - كما سيأتي بيانه - إلا أنهم أعظم الناس صبراً ويقيناً؛ فالثبات والاستقرار في أهل السنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل البدع والأهواء[3].

بل قرر ابن القيم - رحمه الله - أن المحنة والابتلاء ملازمان لكل إنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً.

وقال - أيضاً -: «إن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بدّ له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب، إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب، إذا لم يُوافِق أهواءهم واعتقاداتهم، ولا ريب أن ألَم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم.

(١) ابن عبد ياليل من زعماء الطائف من ثقيف.
(٢) انظر: الفتوى الحموية، لابن تيمية، ص ٥٣٥.
(٣) انظر تفصيل ذلك في مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/ ٥٠، ٥١.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور، فإن لم يوافقهم آذوه وعادوه، ولكن له العاقبة والنصر عليهم إن صبر واتقى، وإن وافقهم فراراً من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فرّ منه، والغالب أنهم يسلطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعافُ ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم.

فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد، فألمٌ يسيرٌ يُعْقِب لذة عظيمة دائمة أوْلى بالاحتمال من لذة يسيرة تُعْقِب ألماً عظيماً دائماً، والتوفيق بيد الله»[1].

• وما فتئ أهل البدع والأهواء في الطعن على أهل السنة، ونبذهم بالألقاب الكاذبة، كما هو مسطور في القديم، ومشاهَد في الحديث. فأما في القديم فقد ساق شيخ الإسلام الصابوني بإسناده إلى أبي حاتم الرازي (ت ٢٧٧هـ) أنه قال: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر[2]، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهلَ الأثر حشوية[3]، يريدون بذلك إبطال الآثار، وعلامة القدرية تسميتهم أهلَ السنة مجبرة، وعلامة الجهمية تسميتهم أهلَ السنة مشبِّهة، وعلامة الرافضة تسميتهم أهلَ الأثر نابتة[4] وناصبة..»[5].

وصّنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي (ت٦٢٢هـ) جزءاً أسماه: «تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة»، فذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة بلقب افتراه، يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد، كما أن المشركين كانوا

---

(١) إغاثة اللّهفان: ٢/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) يعني أهل السنة؛ لأنهم يأخذون بالمأثور عن الله - تعالى - في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ.

(٣) الحشوية مأخوذة من الحشو وهو فضل الكلام، ومقصودهم اتهام أهل السنة بقلة المعرفة والفهم، وكان عمرو بن عبيد أحد رؤوس المعتزلة أول من تكلم بذلك فزعم أن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - كان حشوياً، انظر مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٤/ ٢٣.

(٤) أصل النابتة: الغلام الصغير الذي لم يجرّب الأمور، ومقصودهم لمزُ أهل السنة بأنهم أحداث صغار.

(٥) عقيدة السلف، للصابوني (ت ٤٤٩ هـ)، ص ٣٠٤.

يلقبون النبي ﷺ بألقاب افتروها؛ فالروافض تسميهم نواصب، والمرجئة يسمونهم شُكّاكاً[١]، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ونوابت»[٢].

ولا يزال أهل الزندقة في هذا العصر من العلمانيين والباطنيين ومن تبعهم من أهل الأهواء المعاصرين الذي يسمون أنفسهم بالعقلانيين، أو أدعياء التنوير، أو ما يسمّى بـ «الليبراليين الإسلاميين»! ، لا يزالون جميعاً على طريقة أسلافهم من الشغب على أهل السنة، فيرمونهم بالتشدد والتشنج وضيق الأفق، والظلامية والأصولية والإرهاب، إضافة إلى طعنهم في الثوابت الشرعية والأحكام المعلومة من الدين بالضرورة.

• لقد كابد أهل السنة أنواعاً من البلاء والعداء، وقاسوا فتن الشبهات والشهوات، فما وهنوا ولا استكانوا، بل صبروا على الأذى، وبلّغوا رسالات الله تعالى لا يخافون في الله لومة لائم.

فهذا إمام الهجرة مالك بن أنس - رحمه الله - قد امتُحن وضُرب بالسياط، ومُدّتْ يداه حتى انخلع كتفاه، ومع ذلك كان يقول: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء.

وقال بعضهم: فواللهِ لمالكٌ بعد ذلك الضرب في رفعة الناس، وعلو وإعظام، حتى كأنما كانت تلك السياط حلياً حُلِّي بها[٣].

وهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل: «قد تداوله ثلاثة خلفاء[٤] مسلّطون من شرق

---

(١) أطلق المرجئة هذا اللقب على أهل السنة؛ لأن أهل السنة يستثنون في الإيمان ما لم يكن على سبيل الشك فيقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله.

(٢) الحموية، لابن تيمية، ص ٥٣٢ ٥٣٤.

(٣) انظر: ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ١/ ١٢٤، ١٢٥، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٤/ ٥٠.

(٤) وهم: المأمون و المعتصم و الواثق.

الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة، والوزراء، والأمراء من لا يحصيهم إلا الله، فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله، وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه، وما رجع عمّا جاء به الكتاب والسنة»(١).

بل بلغ الإفك ببعضهم أن زعموا أن الإمام أحمد كان من أعظم نفاة الصفات(٢).

وسجن الإمام البويطي صاحب الشافعي ووضع الغلّ في عنقه، والقيد في رجليه وكان يقول: لأموتنّ في حديدي هذا، حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم(٣).

وعانى شيخ الإسلام الهروي - رحمه الله - (ت٤٨١هـ) ضروباً من المحن والبلايا، فَأُخْرِجَ من بلده، وجاءه الإمام البغوي قائلاً له: إن الله قد جمع لك الفضائل، وكانت قد بقيت فضيلة واحدة، فأراد أن يكملها لك، وهي الإخراج من الوطن، أسوة برسول الله ﷺ(٤).

وعمد خصومه إلى الإفك والبهتان، حيث حملوا صنماً صغيراً، وجعلوه تحت سجادة الهروي، ثم أخبروا السلطان أن الهروي يعبد صنماً.. وفضح الله أمرهم، وعللوا صنيعهم ذلك بأن الهروي استأثر على عامة الناس دونهم!»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ١٢/ ٤٣٩ = باختصار.
(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٦/ ٢١٣.
(٣) طبقات الشافعية، للسبكي، ٢/ ١٦٤.
(٤) انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، ١/ ٦٠.
(٥) انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، ١/ ٥٥.

وامتُحن ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية (ت٧٩٢هـ)، فَحُبِس ومُنع من التدريس[١].

ومن قبله امتُحن شيخ الإسلام ابن تيمية، فسُجن سبع مرات، وكان سجنه أسوأ من سجن النصارى[٢].

وقال الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله -: «ومن نظر في سير المصلحين، وما أُلِّف من كتب مفردة في إذايتهم مثل كتاب «المحن» لأبي العرب وغيره لم ير عالماً لحقه من صنوف الأذايا من سجن وغيره مثل شيخ الإسلام - رحمه الله -»[٣].

لقد كذب ابن بطوطة؛ حيث اتهم شيخ الإسلام بالتشبيه[٤]، وافترى الكوثري فادّعى أن ابن تيمية يقول بوحدة الوجود، وزعم الحصني أن ابن تيمية يقول بقول الرافضة، وفي المقابل ادّعى بعضهم أن ابن تيمية ناصبي يبغض آل البيت[٥]..!!

وأما الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - فما أعظم الأذى والبلاء الذي أصابه، وما أكثر الأكاذيب والمفتريات التي ألصقت به وبدعوته؛ فمن ذلك الإفك الشنيع: اتهامه ببغض الرسول ﷺ، وادعاء النبوة، وإنكار كرامات الأولياء.. فضلاً عن الشبهات المثارة ضد دعوته كالتكفير وتحريم التوسل ونحوها[٦].

---

(١) انظر: إنباء الغمر بأنباء العمر، لابن حجر، ١/ ٢٥٨ ٢٦٠.

(٢) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص (ل ي)، ومجموع الفتاوى، ٣/ ٢٥٤.

(٣) الجامع لسيرة ابن تيمية ص (ل).

(٤) انظر: ردّ الشيخ القاسمي على هذه الفرية في كتابه (عن شيخ الإسلام ابن تيمية)، طبع المكتب الإسلامي بيروت.

(٥) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، لعبد الله الغصن، ص ٧٦ ٨٤.

(٦) انظر تفصيل ذلك في كتاب دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لعبد العزيز آل عبد اللطيف.

وبلغ الإسفاف وشناعة السباب ببعضهم إلى القول بأن عبد الوهاب والد الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب غفل عن مواقعة أمه يعني أمّ محمد بن عبد الوهاب فسبقه الشيطان إليها فكان أباً لهذا المارد[1] ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

• والناظر في المناوئين لأهل السنة، يلحظ أنهم كلما ازدادوا بعداً عن الإسلام والسنة، كانوا أكثر عداءً ونقمة؛ فالباطنية مثلاً أشد الطوائف كيداً وأذى لأهل السنة، ومن ذلك ما فعله القرامطة سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة، حيث هاجموا مكة، فقتلوا الحجيج، ونهبوا الأموال، ونزعوا الحجر الأسود[2].

ومن ذلك ما فعله العبيديون بالفقيه أبي بكر النابلسي - رحمه الله - (ت٣٦٣ هـ)، حيث أمر جوهر الصقلي بسلخه، حيث شق السلاّخون عرقوبيه، ونفخ كما تنفخ الشاة، ثم سلخ، وهو في هذا يقرأ القرآن بترتيل، إلى أن انتهى السلخ إلى كتفيه، فتفاشى، ثم مات، فصلب جسده ناحية، ثم جِلْده بعد أن حشي[3].

وانظر ما جاء في كتاب «بروتوكولات آيات قم»، للدكتور عبد الله الغفاري؛ حيث أورد أمثلة من التصفيات الجسدية والاغتيالات التي قام بها أولئك الزنادقة تجاه أهل السنة.

• لقد حرر شيخ الإسلام ابن تيمية موقف أهل البدع من أهل السنة في حال القدرة والعجز، كما حرر موقف أهل السنة من المبتدعة بتحقيق بليغ، فقال:

---

(١) انظر: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، لمسعود الندوي، ص ١٧٠.
(٢) انظر: أخبار القرامطة، جمع د/ سهيل زكّار.
(٣) انظر: ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ٢/ ٢٠.

«كثيراً ما يكون أهل البدع مع القدرة يشبهون الكفار في استحلال قتل المؤمنين وتكفيرهم، كما يفعله الخوارج و الرافضة و المعتزلة و الجهمية وفروعهم، لكن فيهم من يقاتل بطائفة ممتنعة كالخوارج و الزيدية، ومنهم من يسعى في قتل المقدور عليه من مخالفيه، إما بسلطانه، وإما بحيلته، ومع العجز يشبهون المنافقين، يستعملون التقية والنفاق كحال المنافقين؛ وذلك لأن البدع مشتقة من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب، هم مع القدرة يحاربون المؤمنين، ومع العجز ينافقونهم.

والمؤمن مشروع له مع القدرة أن يقيم دين الله بحسب الإمكان، بالمحاربة وغيرها، ومع العجز يمسك عما عجز عنه من الانتصار، ويصبر على ما يصيبه من البلاء من غير منافقة، بل يُشرَع له من المداراة، ومن التكلم بما يُكرَه عليه ما جعل الله له فرجاً ومخرجاً.

ولهذا كان أهل السنة مع أهل البدع والقتل بالعكس: إذا قدروا عليهم لا يعتدون عليهم بالتكفير وغير ذلك، بل يستعملون معهم العدل الذي أمر الله به ورسوله، كما فعل عمر بن عبد العزيز بالحرورية (الخوارج) و القدرية. وإذا جاهدوهم، فكما جاهد عليّ - رضي الله عنه - الحرورية بعد الإعذار وإقامة الحجة؛ وعامة ما كانوا يستعملون معهم الهجران والمنع من الأمور التي تظهر بسببها بدعتهم، مثل: ترك مخاطبتهم ومجالستهم؛ لأن هذا هو الطريق إلى خمود بدعتهم، وإذا عجزوا عنهم لم ينافقوهم، بل يصبرون على الحق الذي بعث به الله نبيه ﷺ»[1].

ولقد اعترف الرافضة بهذا العدل والإنصاف مع أنهم أكثر الطوائف جهلاً وظلماً، وشهدوا أن أهل السنة ينصفونهم ما لا ينصفهم سائر إخوانهم الروافض، وكما حكاه ابن تيمية قائلاً: «فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف، ولا يظلمونهم؛ فإن

(١) التسعينية، ٢/ ٦٩٨ ـ ٧٠١.

الظلم حرام مطلقاً، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء (أهل الأهواء) خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً»[1].

• وإذا تقرر أن البلاء والصراع بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله أمر لازم كما ثبت شرعاً وقدراً، فلا مبرر لهذا الخنوع والتولي عن هذا السجال كما اعترى فئاماً من أهل السنة.

فإن العاقبة للمتقين: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فالواجب الاستعانة بالله - تعالى - والتوكل عليه، وبذل الأسباب في تبليغ رسالات الله، والذبّ عن شعائر الدين، والردّ على الملحدين والزائفين بعلم وعدل؛ فإن أهل السنة يعملون الحق ويرحمون الخلق.

ومع تكالب الأعداء في هذا العصر سواء من الغرب الكافر، أو أذنابهم من العلمانيين المنافقين، وأشباههم من «أدعياء التنوير»، و «الليبراليين الإسلاميين»!

ومع ظهور المذاهب الباطنية و الصوفية الغالية، ونحوها من مذاهب أهل البدع.. مع هذا التسلط والمكر الكُبّار، فالواجب معرفة الشرور ومراتب الانحراف، وتقديم ما هو أحق وأوْلى بالمعالجة والمواجهة، كما ينبغي فقه المصالح والمفاسد، ومراعاة الحال من جهة القوة أو الضعف.

فإن بعض المتسنّنة قد يدفعه الحماس والاستعجال لإعلان المواجهة لكل مخالف، فلا يراعي قدراته وإمكاناته، فيتحمل من البلاء ما لا يطيق، وربما أعقب ذلك استسلاماً وقنوطاً.

---

(١) منهاج السنة، ٥/ ١٥٧، وانظر: ٢/ ٣٤٢، ٤/ ١٢١.

ويقابلهم من آثرَ العاجلة، فسارع إلى مداهنة أعداء الله – تعالى –، وقدّم مرضاتهم على مرضاة الله ورسوله ﷺ.

والمتعيّن أن نبلّغ دين الله – تعالى – ونظهر السنّة حسب الوسع والاستطاعة.

وأخيراً: فإن علينا أن نستفيد من مواقف السلف الصالح تجاه المنحرفين عن صراط الله المستقيم، سواء من جهة فضحهم وتعرية زندقتهم ونفاقهم، والردّ على شبهاتهم وإشكالاتهم، أو من جهة بيان حكم الله – تعالى – فيهم، أو من جهة مناظرتهم ومباهلتهم، ونحو ذلك.

ويمكن أن نمثّل على ذلك بهذا المثال: فإن السلف الأوائل حّذروا من «الكلام» وبيّنوا زندقة بعض المتكلمين، وقرروا أن «الكلام» متلقّى من فلسفة اليونان ونحوها من الوثنيات. والناظر إلى العصرانيين (الليبراليين الإسلاميين) في هذا الزمن، يلحظ أن هذه العصرنة طريق إلى العلمانية الصريحة، وأن أطروحاتهم مستقاة من مذاهب غربية متنوعة، أما الزندقة فقد تجاوز بعضهم العلمانيين في الردة والتطاول على دين الله – تعالى –.

فنسأل الله – تعالى – أن ينصر دينه، ويخذل الكفار والمنافقين.

الإفراط في النشيد

ـ يُحكى أن مغنياً عزم على التوبة، فقيل له: عليك بصحبة الصوفية! فإنهم يعملون على إرادة الآخرة، والزهد في الدنيا، فصحبهم، فصاروا يستعملونه في السماع والإنشاد، ولا تكاد التوبة تنتهي إليه لتزاحمهم عليه، فترك ذاك المغني صحبتهم، وقال: أنا كنتُ تائباً ولا أدري[1].

هذه واقعة سطّرها يراع ابن القيم ـ رحمه الله ـ، وهي تذكّرنا بالإغراق والمبالغة في النشيد هذه الأيام، والذي استحوذ على فئام من أهل النشيد، حتى أفضى الأمر عند بعضهم إلى محاكاة الغناء الماجن.

فصاحَب بعض الإنشاد التكسّرُ والتأوه في الإلقاء، ومشابهة لحون الغناء المتهتك، واعتناء بعض المنشدين بجمال الصورة، وتنميق المظهر، وحلق شعر الوجه؛ بل أفضى الأمر إلى استعمال المعازف في ذاك النشيد المتفلت، ويضاف إلى ذلك تقنيات الصوت ومؤثراته، والتي جعلت الأسماع لا تكاد تميّز بين غناء المجون وهذا النشيد.

(١) انظر: الكلام على مسألة السماع، ص (٣٤٢).

وقد ألمح ابن الجوزي إلى ذلك وحذّر من مغبة هذا الصنيع فقال: «ولما يئس إبليس، أن يسمع من المتعبدين شيئاً من الأصوات المحرمة كالعود، نظر إلى المعنى الحاصل بالعود، فدرجه في ضمن الغناء بغير العود وحسّنه لهم، وإنما مراده التدريج من شيء إلى شيء. والفقيه من نظر في الأسباب والنتائج، وتأمّل المقاصد»[1].

- والانهماك في كثير من هذه الأناشيد يورث عاطفة وانفعالاً عند بعض الناس، لكن دون بصيرة أو فقه، فهو يحِّرك المشاعر، ويؤجج العواطف. وقد استخوذ على الصوفية سماع القصائد فقلّ علمهم وعزّ فقههم، حتى قال سفيان الثوري: «أعزّ الخلق خمسة أنفس - وذكر منهم -: فقيه صوفي»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة الاعتياض بسماع القصائد عن سماع القرآن، فإنه يعطيهم حركة حبّ من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق.. وله تأثير من جهة التحريك والإزعاج لا من جهة العلم»[3].

فالأجيال العاكفة على سماع النشيد لا تنال بذلك فقهاً، ولا تحقق علماً بدين الله - تعالى -، وإنما هو ترنّم وتواجد، وانفعال عاطفي.

- والولع بسماع النشيد يزهّد في سماع القرآن العظيم، «ولذا تجد مَنْ أكثر مِنْ سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه»[4].

وقد قال الإمام الشافعي: «خلّفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير[5]، يصدون به الناس عن القرآن»[6].

---

(١) تلبيس إبليس، ص (٢٤٩).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٢).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٨٤).
(٥) التغبير: هو الضرب بالقضيب، وهو آلة من الآلات التي تقرن بتلحين الغناء، انظر: الاستقامة (١/ ٣٨).
(٦) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس، ص (٢٥٧).

قال ابن تيمية ـ معلقاً على كلام الشافعي ـ: «وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين، فإن القلب إذا تعوّد سماع القصائد والأبيات والتذّ بها، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن»[1].

ويقول ـ في موطن آخر ـ: «فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المسكرة، فيصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن، وفهم معانيه، واتباعه، فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله...»[2].

فالقلوب أوعية، فإن كان الوعاء مملوءاً بحبّ القصائد والأناشيد، فأين يقع حبّ القرآن وذكر الله ـ تعالى ـ في ذلك الوعاء؟!

وقال ابن الجوزي ـ في نقده الصوفية ـ: «وقد نشب حبّ السماع بقلوب خلق منهم، فآثروه على قراءة القرآن، ورقت قلوبهم عنده مما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن تمكن منه، وغلبة طبع...»[3].

ـ إن النشيد المنضبط بالضوابط الشرعية بديل محمود عن الأغاني الماجنة، لكن إذا وضع بتوازن في موضعه الصحيح، أما إذا أردنا أن نعرف الحكم الشرعي في ذلك النشيد المتفلت، فعلينا أن ننظر إلى مآلاته وعواقبه، وقد حرر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم قاعدة في ذلك، وأعملاها على السماع المحدث، فكان مما قاله ابن القيم:

«إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة،

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٣٢)، وانظر: الاستقامة (١/ ٢٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٣).
(٣) تلبيس إبليس، ص (٢٧٦).

فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي. ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله ﷺ موصلاً إليه.

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر؛ لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات، ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ . . . » ـ إلى أن قال ـ: « . . . والذي شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب أن ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها؛ إلا سلط الله عليهم العدو، وبُلوا بالقحط والجدب وولاة السوء. والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان»[1].

ـ هذا النشيد المتهتك أنموذج من الترخص المتفلت في واقعنا الحاضر، فقد ظهرت في الآونة الأخيرة توجهات ومؤلفات في التفلت عن ضوابط الشرع، والتواثب على حرمات ـ الله عز وجل ـ مثل: حلق اللحية، وإباحة سماع الغناء، والتوسع في أنواع من المناكح والمكاسب والمطعومات دون التحقق من أحكام الشرع.

إضافة إلى ما هو أطم من ذلك كالتساهل في وسائل الشرك وذرائعه، وتهوين عقيدة الولاء والبراء، وغير ذلك.

وهذا الواقع يوجب على العلماء والدعاة أن يربّوا الأمة على أخذ الدين بقوة، والدعوة إلى التمسك بالسُّنة والعض عليها بالنواجذ، والحذر من تتبع الرخص والحيل المحرمة والأقوال الشاذة، وإحياء واعظ الله في قلوب أهل الإسلام، والتذكير بالوقوف بين يدي الجبار جل جلاله، الذي يعلم السر وأخفى، قال ـ عزّ وجلّ ـ:
﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤ – ١٥].

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٩٦، ٤٩٧، ٥٠٠).

النشيد الراحل والغناء الحاضر

قد لا يُستغرب أن يكون التصوف مورداً لغناء المجون والفجور ؛ إذ قد شهد بذلك من عاينَ مجالس الصوفية، وتحلَّى بطرقها، كما اعترف زكي مبارك قائلاً :

«قد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحياناً إلى مجالس فنية، فهي مجالس تُعقد ظاهراً لذكر الله، والغرض منها الغناء . .

وكانت مجالس الذكر مدرسة لتخريج المغنين . . فالصوفية تفرَّدوا بين رجال الدين بالتشيُّع للموسيقا والغناء، فأقبلوا على الغناء، وتفرَّدت الطريقة المولوية باستجازة العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجالس الذكر»[1] .

ولا عجب أن الروافض يعوِّلون على تأجيج العواطف الرعناء وتحريك مشاعر البكاء والعويل ؛ فدين القوم أكاذيب في المنقول، وحماقات في المعقول ؛ فلا يمكن أن يروج الكذب والشطح إلا بامتطاء هذه العاطفة الهوجاء، والمشاعر العوجاء،

(١) التصوف الإسلامي، ١٩٣ - ١٩٥ ؛ بتصرف .

والعـارية من الدليل والبرهان. . وهذا ما أوصى به خامنئي شيعته - بمناسبة عاشوراء عام ١٤٢٦هـ - قائلاً: «إن مجالس العزاء[1] مستمرة إلى يومنا هذا، ولا بد من أن تستمر إلى الأبد؛ لأجل استقطاب العواطف؛ فمن خلال أجواء العاطفة والمحبة والشفقة يمكن أن تُفهم كثير من الحقائق»[2]!

لكن العجب أن يضاهي أولئك ويسلك سبيلهم طوائف من متسننة هذا العصر؛ فما كان يُسمَّى إنشاداً - في الماضي القريب - قد أضحى غناءً ومجوناً. . فالترخُّص المُفْرِط في النشيد أفضى إلى الافتتان بالمؤثرات الصوتية، والولع بمعالجة الأصوات وَفْق تقنيات الحاسوب، والهيام بالآهات والترنُّمات. . !

فهذا الركام المتتابع من الانفلات أوقع ولوغاً في غناء الفجور، وسماع المعازف، فانحدر بعض المنشدين إلى خمر النفوس ورقية الزنى والمجاهرة باستعمال ألحان وموسيقى المجون. . بل تفوَّه أحد المنحدرين بأن إظهار الموسيقى هو مقتضى الصراحة!

وهكذا البدع والانحرافات تبدأ شبراً، ثم تكون ذراعاً، ثم تصير باعاً، فأميالاً وفراسخ. . وكما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل»[3].

ومن المعلوم أن البقل ينبـت في الأرض شيئاً فشيئاً لا يحسّ الناس بنباته[4].

وهذه الأناشيد الموسيقية تحرِّك الشهوات الكامنة في النفس، وتثيرها تلك الأصوات والمعازف «فالنغمات المرتبة على النسب التلحينية هو المؤثر في الطباع

(١) يعني: حماقات أتباعه من النحيب وضرب الصدور وإسالة الدماء. .
(٢) موقع علي الخامنئي مركز العهد الثقافي بدمشق ٤/ ٢/ ٢٠٠٦م.
(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى، ٢/ ٧٠٤.
(٤) انظر: الاستقامة لابن تيمية ١/ ٣٩٣، وإغاثة اللهفان ١/ ٣٧٤، ومدارج السالكين ١/ ٤٩٧.

فيهيجها إلى ما يناسبها، وهي الحركات على اختلافها»[1].

فالأصوات الملحّنة تهيِّج وتحرِّك من كل قلب ما فيه من محبة مطلقة لا تختص بأهل الإيمان، «وكل إناء بالذي فيه ينضح»، فقد تحرِّك محبة الله تعالى، أو محبة الأوثان، والصلبان، والأوطان، والنسوان. .[2].

كما أن هذه الأصوات المطربة يزداد أثرها وتعظم حركتها عند النسوان والصبيان والحيوان؛ لأنه ثوران الطباع، فيشترك فيه الإنسان والحيوان، وكلما ضعف العقل قويت حركة النفوس وتواجدها فرحاً أو حزناً. . لكنها حركة ووجد بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير[3].

قال ابن تيمية: «وأما التحرك بمجرد الصوت فهذا أمر لم يأت الشرع بالندب إليه، ولا عقلاء الناس يأمرون بذلك، بل يعدُّون ذلك من قلة العقل، وضعف الرأي، كالذي يفزع عن مجرد الأصوات المفزعة المرعبة»[4].

وتحاكي الأناشيدُ الحاضرة الغناء المعهود، بل تماثله مماثلة القُذَّة للقُذَّة، بحيث يتعذر على أرباب الإنشاد والمونتاج التفريق بينهما فضلاً عن غيرهم!

فهذا النشيد الموسيقي والغناء:

رضيعا لبان ثدي أم تقاسما

بأسحم داج عَوْضَ لا نتفرقُ

(١) الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٨٠.
(٢) انظر: العبودية لابن تيمية ص ٧١، والاستقامة ١/ ٢٦١.
(٣) انظر: الاستقامة ١/ ٣٠٦، ٣٧٣. ومجموع الفتاوى ٢/ ٢٤٢، ١٠/ ٧٦. والاعتصام ١/ ٢٨٠.
(٤) الاستقامة ١/ ٣٧٤، وانظر: مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/ ٣١٣.

ومع هذه المماثلة الظاهرة إلا أن بعضهم يصرُّ على تفريق موهوم بين إنشاده وغناء المجون، فليحذر من هذا التحايل البغيض والذي اتسع خرقه، وتتابع نقضه، فتلبَّس أصحابه بسماع الغناء الحرام مع المخادعة والاحتيال.

قال أيوب السختياني: يخادعون الله، كأنما يخادعون الصبيان. ولو أتى الأمر على وجهه لكان أهون عليّ[1].

وها هو ابن القيم يحذِّر من التوثُّب على محارم الله - تعالى - باسم الحيل، فيقول: «فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكراً وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يوماً تُبلى فيه السرائر، ويحصّل ما في الصدور. هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون»[2].

ويتعلَّل بعض المولعين بالنشيد المتهتك بأن أصل النشيد مباح، فهي أصوات بشر وشجر ونحوهما، وتم تركيبها ومعالجتها حسب تقنيات الحاسوب.. وهذا تعليل عليل؛ إذ العبرة بالحقائق، ومآلات الأمور، فقد استحال هذا النشيد إلى غناء ومعازف، كما لو استحال العنب إلى خمر، وهذه المعالجة الحاسوبية أوقعت في تلاعب بالأصوات وتغييرها من صوت بشر وشجر وماء.. إلى صوت معازف وموسيقى..

فهذا الغناء الحاضر مركب من تلك الأصوات بعد تعديلها ومعالجتها.. فالعبرة بالنتائج وعواقب الأشياء، كما قال ابن الجوزي: «ولما يئس إبليس أن يسمع من

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٣٠/ ٢٢٣.
(٢) إعلام الموقعين: ٣/ ١٦٣؛ باختصار.

المتعبدين شيئاً من الأصوات المحرمة كالعود نظر إلى المعنى الحاصل بالعود فدرجه في ضمن الغناء بغير العود وحسَّنه لهم، وإنما مراده التدرج من شيء إلى شيء. والفقيه من نظر في الأسباب والنتائج، وتأمَّل المقاصد»[1].

وكما يُحكى عن إياس بن معاوية (ت ١٢٢هـ) أن رجلاً قال له: ما تقول في الماء؟ قال حلال. قال: والتمر؟ قال: حلال. قال: فالنبيذ تمر وماء! فقال له إياس: أرأيت لو ضربتُكَ بكفٍّ من تراب أكنتُ أقتلكَ؟ قال: لا. قال: فإن ضربتُكَ بكفٍّ من تبن أكنتُ أقتلكَ؟ قال: لا. قال: فإن ضربتُكَ بماء أكنتُ أقتلكَ؟ قال: لا. قال: فإن أخذتُ الماء والتبن والتراب فجعلتها طيناً، وتركته حتى جفَّ، وضربتُكَ به أقتلك؟ قال: نعم! فقال: كذلك النبيذ.

ومقصوده أن القاتل هو القوة الحاصلة بالتركيب، والمفسد للعقل هو القوة المسكرة الحاصلة بالتركيب[2]. فكذا النشيد الحاضر بعد التركيب؛ فقد تغيَّرت صفاته السابقة، وانمحت آثاره السالفة.

وأخيراً: فإن فتنة الأصوات والصور المحرمة قد وَلِعَ بها كثير من أرباب التعبُّد المحدث، وإن كانت فتنة الصور أشد فتكاً، ولئن سلم فئام من المتديِّنة من شراك الصور الفاتنة، لكن أسرتهم الأصوات الملحنة؛ فإن غناء المجون وفتنة الأصوات سبيل الولوج في فتنة الصور، فالغناء رقية الزنى..

قال ابن القيم: «أهل الأصوات طرقوا لأهل الصور الطريق، ونهجوا لهم السبيل، وطيَّبوا لهم السير، فساروا وجدّوا بهم إلى مطارح الجمال، فطاب لهم اللعب، ووصفوا لهم سمر القدود وورود الخدود وسواد العيون وبياض الثغور،

---

(١) تلبيس إبليس، ص ٢٤٩.

(٢) السماع، ص ٣٦٢ = باختصار. وانظر: الاستقامة: ١/ ٣٤٦.

ونادوا (حيَّ على الوصال)، فأجاب القوم منادي الهوى إذ نادى بهم بحيَّ على غير الفلاح، وباعوا أنفسهم بالغبن، وبذلوها في مرضاة الصور الجميلة»[1].

والمقصود أن هذا النشيد «المستنسخ» من الغناء حافل بمفاسد ظاهرة؛ كالصدِّ عن سماع القرآن، والإعراض عن التفقه في دين الله تعالى، واستثارة العواطف الرعناء، وتحريك الشهوات من مكانها، والتحايل على المحرمات، ومشابهة لحون أهل الفسق والفجور.. فهل من توبة نصوح عن ذاك الغناء؟!

ولقد أحسن القائل:

«برئنا إلى الله من معشر
بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلتُ يا قوم أنتم على
شَفا جُرُف ما به من بِنَا
فلما استهانوا بتنبيهنا
رجعنا إلى الله في بِنَا
فعشنا على سنة المصطفى
وماتوا على تِنْتِنا تِنْتِنا»[2].

(١) انظر: الاستقامة لابن تيمية: ١/ ٢٤٤.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٣٤٦.

وَذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً

شاهد بعض ملوك فارسٍ اجتماعاً لبعض المتصوفة، وقد أُحضر فيه من الصور الجميلة والأصوات المطربة ما أُحضر، فقال الملك لشيخهم: يا شيخ! إن كان هذا هو طريق الجنَّة؛ فأين طريق النار؟[1]

لقد عكف فِئام من المتصوفة على سماع الْمُكاء والتصدية، والمصاحَب بالدفّ والشبابة والمزمار وضرب الأوتار، وإنما حدث هذا السماع بعد القرون المفضَّلة؛ فلما تأخر الزمان وفترت العزائم عن السماع المشروع مما أنزل على الرسول ﷺ؛ استعاضوا عنه بالسماع المحدَث من العقائد والأشعار، والنظر إلى الصور المحرَّمة، وتمادوا في ذلك، حتى آلَ أمرهم إلى إنشاد قصائد الحلول والاتحاد ونحوها من البدع المكفِّرة[2].

ومما استجدَّ في هذا العصر ما يسمى بالأغاني الدينية عند أهل الطرب والمجون؛ فبينما المغني (يتكسّر) بلهوه، ويترنَّم بمجونه على المسارح؛ إذا هو بعينه ينشد (التواشيح الدينية)، ويتواجد في الزوايا والموالد، وبآلات العزف ولحون الغناء نفسها!

---

(١) انظر: الاستقامة: ١/ ٣١٧، الكلام على مسألة السماع، ص ٣٤٢.

(٢) انظر: الدرء: ٧/ ٢٩٠، ومجموعة الرسائل الكبرى: ٢/ ٣٠٢، والاستقامة: ١/ ٣٠٤.

وأضحت (الموالد) و (المشاهد) أوكاراً للسماع المحدث وغناء المجون، واختلاط النساء بالرجال ومقارفة الفواحش.. ومن ذلك: ما سطّره المؤرخ الجبرتي في شأن مشهد عبد الوهاب العفيفي (ت ١١٧٢هـ) وما يحصل عنده من طرب وفحش فقال: (ثم إنهم ابتدعوا له موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وأرباب الملاهي والبغايا... ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً..)[١].

ومثال آخر: مشهد الإنبابي بمصر؛ فقد ذكر المؤرخون أن فيه من الفساد ما لا يوصف، حتى إن الناس وجدوا حول هذا المشهد أكثر من ألف جرة خمر فارغة، وأما ما حكي عن الزنى واللواط فكثير لا يحصى[٢].

ومن أواخر هذه البلايا ما حصل في مولد أحمد البدوي بطنطا مصر آخر عام ١٤٢٨هـ الذي مضى قريباً، من الشرك الصراح، والزعيق والصراخ، ورقص الرجال مع النساء مصحوباً بالمعازف والاختلاط (والاحتضان)[٣]!

ورحم الله الشيخ عبد الرحمن الوكيل القائل: (وسلِ الآمِّين تلك الموالدَ عن عربدة الشيطان في باحاتها، وعن الإثم المهتوك في حاناتها، وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها، فما ينقضي في مصر أسبوع إلا وتحشد الصوفية أساطير شركها، وعبّاد أوثانها عند مقبرة يسبِّحون بحمد جيفتها، ويحتسون آثام الخمر (والحشيش)، والأجساد التي طرحها الإثم على الإثم فجوراً ومعصية..)[٤].

---

(١) تاريخ الجبرتي: ١/ ٣٠٤؛ باختصار.
(٢) انظر: السيد البدوي، لأحمد منصور، ٣٢٣.
(٣) انظر: مجلة الصوفية الإلكترونية، العدد السادس.
(٤) هذه هي الصوفية، ١٦٠-١٦١.

لقد أنكر العلماء السابقون ما وقع عند المتصوفة في عصرهم من الرقص واللهو، والتقرّب إلى الله بذلك؛ فقد سئل الحلواني من علماء الحنفية عمّن سمّوا أنفسهم الصوفية، واختصوا بنوع لِبسة، واشتغلوا باللهو والرقص وادّعوا لأنفسهم المنزلة. فقال: أفتروا على الله، أم بهم جنة؟!

وقال القرطبي في كتابه (المُفهِم): (وأما ما ابتدعته الصوفية في ذلك؛ فمن قبيل ما لا يُختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن يُنسب إلى الخير، حتى لقد ظهرتْ من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التواقحُ بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القُرَب وصالح الأعمال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة، وقول أهل المخْرَقة، والله المستعان).

فكيف لو أدرك أولئك العلماء صوفيةَ هذا العصر، والمولعين بما هو أشنع وأقبح من أنواع المجون والفحش؟!

ومع هذا التهتك والتفلُّت عن تحكيم الشرع واتِّباع السُّنَّة، إلا أن أولئك الصوفية أصحاب أمانٍ جامحة ودعاوى عريضة؛ فهم - كما يرون أنفسهم - أهل الذوق والوجد، وأرباب الصفا والحبّ، لكن هذه الدعاوى سرعان ما تتساقط وتزول عند أدنى ابتلاء أو امتحان، (غاية الدعوى مع غاية العجز)، فأين الذوق وحبّ الله - تعالى - عند قوم نقضوا أعظم أسباب ذلك من الاتِّباع والجهاد في سبيل الله؟!

والتنصُّل عن الصراط المستقيم، والانحلال من ربقة الاتِّباع هو ما تمليه النفوس الجاهلة والتي تركن إلى أهوائها، وتسترْوِح ملذاتها، وتأنف من التسليم والانقياد لأحكام الدين (وذلك أن النفس فيها نوع من الكِبْر، فتحبّ أن تخرج من العبودية

والاتِّباع بحسب الإمكان، كما قال أبو عثمان النيسابوري ـ رحمه الله ـ: ما ترك أحد شيئاً من السُّنَّة إلا لكِبْر في نفسه)[1].

(وقال ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطَّغَام، عَدَلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم)[2].

إن التصوف ـ بشهادة بعض المعجبين به ـ تفرّد بالتجويد في الموسيقى والغناء، فكانت مجالس الذكر الصوفي مدارس لتخريج المغنين؛ إذ إن الذكر عندهم يكون وَفْق أنغام محددة، وآلات موسيقية[3]!

وسماع الصوفية بأصواته ولحونه له تأثيره على تلك النفوس؛ فهو يؤجج المشاعر ويحرك الوجدان، لكن بلا علم ولا كتاب منير (ومعلوم أن النفوس فيها الشهوات كامنة، ولكنها مقهورة مقيدة بقيود الأوامر، فإذا صادفها السماع أحياها وأطلقها من قيودها، وافتكّها من أسرها، وهذا أمر لا ينكره إلا أحد رجلين: إما غليظ كثيف الحجاب، وإما مكابر؛ فمضرة هذا السماع على النفوس أعظم من مضرة حُمَيَّا الكؤوس)[4].

وهذا السماع وما يتفرع عنه من إنشاد متهتك، وصراخ وتواجد، وتواشيح مبتدَعة؛ لا ينفكُّ عن تشهِّي النساء وأشباههنَّ، بل يتجاوزه إلى الاختلاط والعشق والعناق...

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦١٢، والمنهاج: ٥/ ٣٣٢.
(٢) تلبيس إبليس، ص ٤٥٠.
(٣) انظر: التصوف الإسلامي، لزكي مبارك، ص ١٨٩ ١٩٩.
(٤) الكلام على مسألة السماع، ص ٣٣٣، وانظر: الاستقامة: ١/ ٣٠٦ ٣٧٨.

والمتأمل في العبادات الشرعية كالصلاة والصيام والاعتكاف والحج، يلحظ أن شأن هذه الشهوات ينافي تلك العبادات؛ ففي الصلاة مُنعت المرأة أن تؤمَّ الرجال، وأن تقف في صفهم، بل تتأخر عن صفوف الرجال، وجعل مرورها بين يدي المصلي قاطعاً لصلاته. ومُنع المحرم في الحج من النكاح والمباشرة والأسباب الداعية إلى ذلك. وكذلك الاعتكاف نُهي فيه عن مباشرة زوجه، وكذا الصيام؛ كل هذا لتخلو العبادات من التعلق بالنساء وصورهن، ويصير تعلّق القلب كله بالله وحده[1].

كما أن السماع المحدَث دائر بين الكفر والفسوق والعصيان، بل اشتمل على أكثر ما حرّمه الله ورسوله ﷺ؛ فإن الله - تعالى - قال: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٣٣].

فاشتمل هذا السماع على هذه الأمور التي هي قواعد المحرمات؛ فإن فيه الفواحش الظاهرة والباطنة والإعانة على أسبابها، والإثم، والبغي بغير الحق، والشرك بالله، والقول على الله بلا علم ما اللهُ به عليم؛ فإنه تنوَّعَ، وتفرَّقَ أهله فيه، لكل قوم ذوق ومشرب يفارقون به غيرهم، حتى في الأشعار والحركات والأذواق، فوقع فيه الاضطراب والاختلاف، وصار أهله من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون[2].

---

(١) انظر: الاستقامة: ١/ ٣١٤، والسماع لابن القيم، ص ٣٤١.
(٢) انظر: الاستقامة: ١/ ٣١٠، والسماع، ص ٣٣٧.

التقريب والولع بالتنقيب!

لا نزاع في تفاقم التحديات والمخاطر التي تجتال هـذه الأمة وتعصف بها، وتسعى إلى طمس معالم الإسلام والسنة، والطعن في عقائد أهل السنة وأحكام الشريعة؛ فعداوة الكفار وحربهم الشعواء على أهل الإسلام مكشوفة، ولا يزيدهم تصرُّم الأيام إلا سُعاراً في الكيد والتنكيل بالإسلام وأهله؛ فالقوم لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة. وأهل البدع المغلَّظة - كالروافض وأشباههم - يجاهرون بأهوائهم بلا «تقية» ويعلنون شركهم وزندقتهم بكل صَلَف، ويسومون أهل السنة صنوف الأذى والعذاب؛ كما في بلاد الرافدين وإيران ونحوها.

ومع هذا العداء السافر بخيله ورَجْله، ومع هذا المكر الكُبّار الذي هو ملء السمع والبصر؛ إلا أنّ فئاماً من متسننة هذا العصر قد آثروا السلامة والدَّعَة، واختاروا «الإسلام المريح» الذي لا ينغّص على غرب، ولا يكدّر على مبتدع، فصارت اللغة الطافحة في أدبياتٍ ومجلات وقنوات ونحوها لا تعدو الحديث عن استملاح الإنسانية، والهيام بحوار الأديان، والملاينة مع المبتدعة، و «الاصطلام» بالتقريب بين

المذاهب الإسلامية، والولاء الفطري، والتسامح الديني، ونحو ذلك من مشتقات لا تتجاوز دائرة الحبّ والسلام والوئام مع اللئام!

ما أجمل ما حرره مفتي الديار المصرية الأسبق عبد المجيد سليم - رحمه الله - في هذا الشأن؛ قائلاً: «والناس إنما يفقدون الحماسة للحق والحرارة في الدفاع عنه؛ لواحد من أمرين: إما جهل به يصرفهم عنه، فهم لم يذوقوا حلاوته، ولم يباشروا بشاشته؛ فأنَّى لهم أن يَعْبَؤُوا به فضلاً عن أن يغاروا عليه؟

وإما شُغْلٌ بغيره يملأ القلب، ولا يترك مجالاً للنضال عن الحق والكفاح في سبيله. وأولئك هم الذين يعرفون الحق ويشغلهم عنه ما آثروه من أنفسهم ومصالحهم، فهم يتظاهرون بأنّ تَرْكَهم مناصرة الحق إنما هو لتركهم التعصب، وكراهيتهم التزمُّت والتشدد، والله يعلم أن ذلك منهم نكول ونكوص، وإيثار لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.

وأشد ما تصاب به الأمة في علمائها وأهل الرأي فيها هو التحايل بالخروج من تبعات الكتمان بالتأويل والتضليل»[1].

ما أشنع التنصل عن مدافعة هذا الواقع الموجع، والتولي عن ميادين الاحتساب والصدع بالحق ومراغمة الأعداء، وتحقيق البلاغ المبين!

وأشنع من ذلك كله أن لا يُعترف بهذا الخَور والجبن، ولا يُشهد بذاك العجز والوهن، بل تجاوزه إلى أن «يكيّف» دين الله وفق معايير الانهزامية والخنوع، و «يخضِّع» هذا الإسلام لأجل أن يكون موائماً لتلك المهانة الجاثمة على فئام من متسننة هذا العصر!

(١) ظلام من الغرب، لمحمد الغزالي، ص ١٠٠.

والنكوص على الأعقاب، والهروب من تبعات الدعوة والإصلاح والتغيير؛ لا ينفك عن الأنفس المستكينة التي تُؤْثِر الراحة والتشهِّي، وتتفلت من قيود الصراع. قال أبو الوفاء ابن عقيل: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عَدَلُوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم»(١).

والتقريب بين المذاهب الإسلامية - أو بالأحرى التقريب بين أهل السنة والرافضة - هو أنموذج صارخ للغيبوبة عن تشخيص الواقع ومعالجته، والانهماك في حديث معسول، وكلام مستهلك مكرور، لا ينصر ديناً، ولا يُصلِح دنيا.

لقد ارتفعت لافتات التسامح المذهبي، ومحاربة الطائفية والمذهبية، والهَرَع لعقد المؤتمرات والندوات في سبيل تقريب موهوم، يحاكي منتظَر الرافضة وغوث الصوفية! وصرّح بعضهم بأنه: «سُنِّيٌّ في التزامه، شيعي في حبّه، صوفي في روحه ونقائه»!

ودعوة التقريب من مخلَّفات العقود السابقة، ومن الآثار «المطمورة» في متحف التاريخ المعاصر؛ إذ نُقِضت هذه الدعوة شرعاً، وتعثّرت واقعاً وقدراً، فما ذاك التقريب إلا خداع وتضليل، وسراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. فدار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة - مثلاً - أضحت مقفرة بلاقع - منذ أكثر من ثلاثين سنة - قد سفَّتها الرياح، وسكنتها الأشباح(٢).

ولئن اعتذر بعضهم لدعاة التقريب في السابق، لغلبة الجهل بعقائد الرافضة وأصولهم، واستشرافهم إلى الإسلام ووحدة المسلمين، في مقابل المدّ الشيوعي

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ٤٥٥.
(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، للقفاري، ٢/ ١٧٣ - ١٨٥.

والتغريبي، وضعف الالتزام بالمنهج السلفي آنذاك؛ فماذا يقال عن دعاة التقريب في اللاحق، وقد أشرق سبيل أهل السنة على أنحاء المعمورة وانكشف عوار وزندقة هذا المذهب للعامة والدهماء - فضلاً عن غيرهم - واستبان الحقد الدفين والعداء المستطير على أهل السنة عبر مسلسل دامٍ من المجازر والاغتيالات؟! إضافة إلى الفشل المتتابع لمحاولات التقريب البائسة.

فأيّ تقريب مع الذين ينقُضون الأصول، فيطعنون في صحة القرآن الكريم، ويتعبّدون بالشرك الصُّراح وتأليه الأئمة، ويتديّنون بتضليل خيار الأمة من الصحابة - رضوان الله عليهم - ونهش أعراضهم، ويعتقدون أنواعاً من الضلالات والحماقات كالبداء والرجعة والإمامة والطينة؟

وأي تقريب مع قوم مَرَدوا على النفاق «والتقية»، فلا يحسنون إلا مظاهرة الكافرين والمستعمرين، ويجعلون سحق أهل السنة وتصفيتهم قُربة وديناً؟

هذا المسخ في عقائد القوم، والانتكاس عن سبيل العقل السليم والفطرة السوية، والتلوّن والتذبذب في التعامل والمواقف؛ إن ذلك أوجبَ الزهدَ في مناقشتهم واليأس من محاورتهم - كما يراه بعض أهل السنة - كما أفصح بذلك القاضي أبو يعلى قائلاً: «هذه الطائفة تقول: (إن أحداً لا يعرف حقيقة دينه ومعالمه إلا بأن يأخذه من إمامه)؛ ولو كان كذلك لم يحجب عنهم؛ لأن في ذلك تكليفَ ما لا يطاق؛ لأنه كلّفهم الاقتداء والاتّباع بمَنْ قد أحال بينهم وبينه من غير دليل؛ ولأنه إذا جاز أن يُدَّعى للحسن بن عليّ[1] ولدٌ غائب من بعد أن مات ولم يظهر؛ جاز أن يدّعى للنبي ﷺ ولد غائب، وأن الإمامة فيه، ويمكن أن يُدّعى ذلك في كل زمان لكل من مات ولا عقِب له! وما هم في دعواهم إمامةَ الغائب المعدوم إلا كقول بعض الصبيان حيث يقول:

(١) الحسن بن علي العسكري (العقيم) والإمام الحادي عشر عند الرافضة.

زعـــم الـــزاعـــم فـــي بـلـدتـنـا
جـمـل فـي كُــــوّة الـبـيـت دخـل
قـلـــت : لا أعـــلـــم مـــا بـلـدتكم
هـــذه الـــكـــوّة ؛ فـادخــل يـــا جـمـل

ولو ذهب ذاهب إلى ترك مناظرة الرافضة ومكالمتهم، لكان قد ذهب مذهباً ليس ببعيد، وذلك أن المتناظرَيْن إنّما يتناظران ويردّان إلى أصل قد اتُّفِق عليه. والأصول التي ترجع إليها الأمة فيما اختلفت فيه إنما هو: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وحجج العقول. وهذه الأصول الأربعة لا يمكن الرجوع إليها على قول الرافضة؛ وذلك أن مذهبهم أنّ الكتاب مغيَّر مبدَّل، وأنه قد ذهب أكثره.. وكذلك لا يجب أن يُرجَع فيما اختلفنا فيه إلى السنّة؛ لأن النَّقَلَة فَسَقَة، الكذب غير مأمون عليهم.. وكذلك الردّ إلى الإجماع ليس فيه حجة؛ لأن الأمة يجوز أن تجتمع على خطأ وضلال، وأنها معصومة بقول الإمام؛ فإذن ليس الحجةَ إلا قول الإمام فقط. وكذلك حجج العقول؛ لأن الخلق كلهم قد عمّهم النقص إلا المعصوم؛ فإذن لا يأمن أن يُرَدَّ إلى أمر من الأمور ولشبه يدخل علينا؛ لأن النقص والجهل قد عمّنا فيردُّنا الإمام عن ذلك، فيجب أن نشك في كل ما نعتقده»[1].

وكما قال القاضي ابن العربي: «إن الرافضة انقسمت إلى عشرين فرقة، أعظمهم بأساً من يقول: (إنّ علياً هو الله)، والغرابية يقولون: (إنه رسول الله، لكن جبريل عدل بالرسالة عنه إلى محمد حميةً منه معه).. في كفر بارد لا تسخنه إلا حرارة السيف، فأما دفء المناظرة فلا يؤثر فيه»[2].

(١) المعتمد في أصول الدين، ٢٥٩، ٢٦٠ = خص.
(٢) العواصم من القواصم، ص ٢٤٧.

وعندما نسوق كلام القاضيين أبي يعلى وابن العربي، وما فيهما من شِدَّة وحِدَّة؛ فذلك إزاء ملاينة فجة للروافض، وسذاجة مُفْرطة أمام المكر الباطني، وتغافل عن الفروق الهائلة في مصادر التلقي وأصول العقائد والأحكام بين الطائفتين.

قال ابن تيمية: «ولا ريب أنه إذا كثُر المحظور احتاج الناس فيه إلى زجرٍ أكثر مما إذا كان قليلاً»[1].

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وتشخيص واقع الرافضة ديناً ودنيا هو السبيل إلى تحديد الموقف العدل تجاههم والتعامل معهم، وفق قواعد الشرع وضوابط المصالح والمفاسد.

وإن الثبات على المنهج السلفي النبوي، والاعتزاز به، وكذا تبليغ مذهب أهل السنة والجماعة، وإبراز مزاياه وخصائصه، إن ذلك هو السبيل العملي في مواجهة هذا السراب الخادع، كما أن كشف عوار مصادر الرافضة وبيان تناقضها، وما تحويه من الإفك المبين والكذب الصريح.. لهو طريق نافذ في الإجهاز على هذا الدين المتهافت المهترئ. ولقد ضربت أقوال شيوخهم رقماً قياسياً في التناقض والاضطراب، حتى اعترف بذلك شيخهم الكاشاني، فقال عن اختلاف طائفته: «تراهم يختلفون في المسألة الواحدة على عشرين قولاً أو ثلاثين أو أزيد»[2].

وفي المقابل؛ فإن من الوسائل العملية النافعة: التنقيب عن الروايات الصحيحة في خضم هذا الركام الكثيف من الروايات المكذوبة، واستخراجها من كتب الروافض وإظهارها لعلهم يرجعون.

(١) جامع المسائل، ١/ ٣٣٧.
(٢) عن كتاب مسألة التقريب للقفاري ٢/ ٢٨٦.

يقول د. ناصر القفاري: «وهذا مسلك ينبغي أن يُدرَس بعناية واهتمام؛ فإن القارئ لكتب الشيعة يتلمّس خيوطاً بيضاء وسط ركام هائل من الضلال، ومن الممكن أن ينسج من هذه الخيوطِ العقيدةَ الحقة للأئمة، ويكون في ذلك تقريب وإنقاذ لمخلِصي الشيعة من الضياع والتيه الذي يعيشونه»[١].

إن التنقيب عن هذه الآثار الصحيحة في كتب القوم أَوْلى وأنفع من التنقيب عن «أحفورة»[٢] التقريب المطمورة، التي لم تخلِّف إلا تخديراً لأهل السنة ونفاقاً لمذهب الرافضة.

ومع أن الرافضة «ليس في جميع الطوائف المنتسبين إلى الإسلام مع بدعة وضلالة شرّ منهم، لا أجهل ولا أكذب ولا أظلم ولا أقرب إلى الكفر والفسوق والعصيان، وأبعد عن حقائق الإيمان منهم»[٣]؛ إلا أن أهل السنة يعلمون الحق، ويرحمون الخلق، فلقد عاملوا الرافضة بكل عدل وإنصاف، «بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضاً»[٤].

«وشيوخهم يقرون بألسنتهم يقولون: يا أهل السنة أنتم فيكم فُتوّة، لو قدرنا عليكم لما عاملناكم بما تعاملونا به عند القدرة علينا»[٥].

ومن الجوانب المهمة في هذا المقام أن يُعَرَّف بجهود المؤسسات الدعوية والعلماء تجاه الرافضة، وسبل دعوتهم وهدايتهم، فلقد حققت هذه المناشط نفعاً كبيراً وخيراً

(١) ٢/٢٩٦.
(٢) مسألة التقريب، ٢/٢٩٦.
(٣) منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٦٠.
(٤) منهاج السنة النبوية، ٥/ ١٥٧.
(٥) منهاج السنة النبوية، ٤/ ١٢١.

عميماً، وأن يُعنى بتوسيع هذه البرامج وترجمتها وتقويمها، بحيث تستوي مناطق النفوذ الرافضي وغيرها.

وكما في وصية المصطفى ﷺ لعلي - رضي الله عنه - لـما بعثه إلى خيبر: «. . . وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله - تعالى - فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعم»[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم

الاحتساب على أهل الأهواء

«يا بني، إنْ صار لك هذا الأمر فتَجرّد لهذه العصابة [يعني طائفة من الزنادقة] فإنها فرقة تدعو إلى ظاهر حسن، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين، أحدهما: النور، والآخر: الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات! فارفع فيها الخشب، وجرِّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له»[1].

هكذا أوصى الخليفة العباسي المهدي (ت: ١٢٧هـ) ابنه موسى (الهادي). ولا غرو أن يوصي بذلك؛ فقد أهمّه أمر الزنادقة؛ فجدّ في طلبهم، وتتبعهم في سائر الآفاق، واستحضرهم، وقتلهم صبراً بين يديه[2].

ورحم الله أبا الحسن الندوي إذ ألّف رسالة وجيزة بعنوان: «ردة ولا أبا بكر لها»، وإن تعذّر وجود أمثال الصديق الأكبر - رضي الله عنه - والذي حارب المرتدين؛ فالصحابة - رضي الله عنهم - لا كان ولا يكون مثلهم، لا سيما الصدّيق

(١) تاريخ الطبري: ٨/ ٢٢٠، باختصار.

(٢) انظر: تاريخ ابن الجوزي، ٨/ ٢٨٧.

الأكبر؛ فلن تعجز الأمة أن تهيئ من يكون كالخليفة المهدي، خصوصاً في هذا العصر الحافل بأنواع البدع والزندقة؛ فلا يبلغ بنا الضعف أن يقال: زندقة ولا مهدي لها!

إن غياب الولاية الشرعية في أغلب الأمصار، وإقصاء شرع الله عن مجالات الحياة، إن ذلك سبب ظاهر في استفحال وتطاول أهل البدع والأهواء، ومع ذلك فلا تزال شعيرة الاحتساب ميداناً رحباً ومجالاً خصباً لمن أراد الإصلاح والتغيير، ولن تخلو هذه الأمة المرحومة من أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض.

وللاحتساب على أهل الأهواء والبدع صور شتى، ومواقف متعددة؛ فقد يكون الاحتساب عليهم من خلال بيان حكم الله فيهم، أو هجرهم وترك الصلاة خلفهم، أو مناظرتهم ومجادلتهم بالحسنى، أو دعوتهم واستصلاحهم، أو هتك أستارهم، ونحو ذلك مما هو مبسوط في موضعه.

ومما يجدر التنبيه عليه أن يُضبط هذا الوصف (أهل البدع والأهواء)؛ فمن خالف أهل السنة في أمر كلّيّ في الدين، أو نقض قاعدة من قواعد الشريعة فهو من أهل البدع والأهواء، كما حرر ذلك الشاطبي بقوله: «هذه الفِرق؛ إنما تصير فرقاً بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلّيٍّ في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزءٍ من الجزئيات؛ إذ الجزء والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعاً، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات؛ فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة»[1].

كما أن اتخاذ موقف من أهل الأهواء تكتنفه عدة أمور معتبرة، منها: النظر إلى المصلحة الشرعية الراجحة في ذاك الموقف، ومراعاة الأحوال الزمانية والمكانية،

---

(١) الاعتصام: ٢/ ٢٠١.

ومدى قوة أهل السنة وضعفهم، وكذا حال أهل البدع ظهوراً أو خفاءً، وتفاوت مراتب البدع[1].

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ذلك من خلال مسألة هجر المبتدع فقال: «وهذا الهجر[2] يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم؛ فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله؛ فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة؛ بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته؛ كان مشروعاً. وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف؛ بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته؛ لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف، ولهذا كان النبي ﷺ يتألّف قوماً ويهجر آخرين.

كما أن المشروع في العدو القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرّق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر[3] في البصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيّع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرّق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصلَ الطرق إليه»[4].

---

(١) ينظر: موقف أهل السنة من البدع والمبتدعة لعبد الرحمن عبد الخالق، والمبتدعة وموقف أهل السنة منهم لمحمد يسري، وموقف أهل السنة من أهل الأهواء للرحيلي.

(٢) أي: هجر التأديب والعقوبة كما جاء في بداية كلامه. انظر: مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٢٠٤.

(٣) أي: نفي القدر.

(٤) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٠٦، ٢٠٧، باختصار.

ومن مجالات الاحتساب على أهل الأهواء: دعوتهم ومناصحتهم واستصلاحهم؛ فمن تلبّس بشيء من تلك الأهواء فيُسعى إلى دعوته إلى السُنّة واتّباع الدليل. وها هو يزيد الفقير ـ أحد التابعين ـ يعتريه شغف بمذهب الخوارج؛ فيلقاه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ فيحدِّث بحديث الجهنّميين[1]؛ فتزول الشبهة عن يزيد ويلزم السُنّة.

وذاك يوسف بن إسباط كان أبوه قدرياً، وأخواله روافض؛ فأنقذه الله بسفيان الثوري[2].

وهذا موسى بن حزام كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله ـ تعالى ـ بأحمد بن حنبل؛ فانتحل السنة وذبّ عنها، وقمع من خالفها حتى مات[3].

وقد دعا شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ طوائف من الاتحادية، وبيّن لهم فساد مذهبهم؛ فتركوا تلك الضلالات وصاروا دعاة للسنة والاتّباع[4].

فهلاّ نَفَرَ طائفة من الدعاة وتخصصوا في دعوة أهل البدع؛ فتعرّفوا أحوالهم، وسبروا واقعهم، وسلكوا السبل الملائمة في دعوتهم وإنقاذهم من لجج البدع والمحدثات؛ إذ إن اهتمامات كثير من العلماء والدعاة والحركات الإسلامية متجهة إلى دعوة المنتسبين إلى السُنّة، أو دعوة الكفار إلى الإسلام، وأما ما بين ذلك ـ من دعوة المبتدعة ـ فلا يزال محل قصور وتقصير[5].

---

(١) وهم قوم من عصاة الموحدين يُخرجون من النار إلى الجنة. والقصة والحديث في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث: ٣٢٠.

(٢) انظر: شرح أصول السنة للألكائي، ١/ ٦٠.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب، ١٠/ ٣٤١.

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية، ٨/ ٢٦.

(٥) ينظر كتاب: دعوة أهل البدع لخالد الزهراني.

ومن مجالات الاحتساب على أهواء الأهواء: إقامة المناظرات معهم؛ إذ لا يخفى أهمية المناظرات ومشروعيتها إذا احتيج إليها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة، ومستحبة أخرى»(١). وعظّم ـ رحمه الله ـ شأن مناظرة المخالفين ودحض شبهاتهم فقال:

«كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس»(٢).

وقد ناظر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الخوارج فرجع الكثير منهم(٣).

وناظر عمر بن عبد العزيز غيلان القدري حتى انقطع(٤).

وناظر الإمام أحمد بن حنبل القائلين بخلق القرآن، كما ناظر أحمد من أراد الخروج على الخليفة الواثق(٥).

وتاريخ الإسلام حافل بأنواع المناظرات لأهل البدع(٦).

إن الانفتاح الإعلامي الهائل في هذا العصر، واستفحال المقالات البدعية

---

(١) الدرء: ٧/ ١٧٤.
(٢) الدرء: ١/ ٣٥٧، وانظر: زاد المعاد لابن القيم، ٣/ ٦٣٩.
(٣) انظر: البداية لابن كثير، ٧/ ٢٧٩.
(٤) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للألكائي، ١/ ٧١٤.
(٥) انظر: محنة الإمام أحمد لحنبل بن إسحاق، ص ٤٨ ـ ٨٢.
(٦) انظر: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد لعثمان علي حسن، ومناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل لعبد العزيز آل عبد اللطيف.

عبر وسائل الإعلام المتنوعة، وظهور حكومات ومؤسسات مختلفة تتبنى البدع و«تؤصلها» وتبثها؛ إن ذلك ليستدعي الاهتمام الجاد والعملي بشأن المناظرات مع المبتدعة، وتحديد ضوابط المناظرات المشروعة وشروطها، وأن تنشأ مؤسسات ومعاهد تهدف إلى تدريب وإعداد متخصصين في باب المناظرات؛ بحيث يكونون مؤهلين للمناظرات من جهة رسوخ العلم الشرعي، وقوة الحجة، وسرعة البديهة، والدراية بحال المخالفين ومآخذهم، وقبل ذلك حسن القصد وصلاح النية؛ فليس كل طالب علم أو داعية أهلاً للمناظرة. كما لا يُناظر من هبّ ودبّ من أهل البدع؛ إذ إن مناظرة المغمورين منهم سبب في ظهور البدع وبروزها، وعلى هذا يحمل ما قاله اللالكائي: «فما جُني على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة. ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمداً، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلاً»[(١)].

ومن مجالات الاحتساب: فضح أهل البدع المكفّرة وكشف مخططاتهم، وهتك أستارهم، ونشر أسرارهم ومكايدهم، وبيان عمالتهم لأعداء الإسلام، كما في موقف السلف الصالح ـ وكذا سائر أهل الإسلام ـ تجاه العبيديين الباطنيين وأشباههم من الروافض.

نسأل الله أن يعزَّ دينه ويعلي كلمته، وبالله التوفيق.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، ١/ ١٩

الرُّقاة والمجرَّبات

لَمَّا أعرض فئام من المسلمين عن سبيل سُنة سيد المرسلين ﷺ، اعتراهم من الضلال والحيرة والشقاء بِقَدْر هذا الإعـراض؛ فمستقلٍ ومستكثِر؛ فالإعراض والنكوص عن سبيل المؤمنين، يلازمه الابتداع والانصياع لمكايد الشياطين ونزغاتهم. ولما حُجِب هؤلاء عن شمس الرسالة ونور النبوة، أعقب ذلك أمراضاً روحانية ووساوس شيطانية، وآفات نفسانية؛ فاستحكمت الأهواء والشبهات، وراجت الأوهام والخرافات؛ فأي الفريقين أحق بالأمن والإيمان: الأنبياء - عليهم السلام - وأتباعهم الذين يفتحون الأعين العمي، والآذان الصُّم، والقلوب الغُلف، أم شياطين الإنس والجن الذين يُفسدون السمع والبصر والعقل[1]؟

وإزاء هذا الواقع المكتظ بالأمراض الروحانية، وصَرْع الجنِّ، وتسلُّط الشياطين، ورواج السحر، واستحواذ العين، ظهرت المدافعة لهذه الآفات، والمعالجة لتلك

(١) انظر: النبوات لابن تيمية: ٢/ ١٠٤٩ - ١٠٥٣.

البليَّات؛ فبرز «الرُّقاة» يتطبَّبون ويعالجون هذه الأدواء، وسطَّر العلماء الكتب والفتاوى بشأن الرقية وأحكامها وأحوالها. كما تحدَّثوا عن آفات الرُّقاة، وسُبُل الخلاص منها، وكما قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور»(١).

ومع رقَّة الإيمان، وضَعْف الديانة عند الكثير، وغلبة الجهل على طوائف من الرقاة، وما يكتنف النفوس من حبِّ المال والجاه، آلَ الأمر إلى الاشتباه بين الرقاة وبين الدجالين والمشعوذين، بل استحال بعض الرقاة سحرةً وشياطين. ولئن كان الشيطان قد زيَّن الشرك؛ فأظهره في قالب محبة الصالحين كما وقع لقوم نوح - عليه السلام - فإن الشيطان قد لبَّس على أقوام واستدرجهم إلى الشرك تحت ذرائع التطبب الفاسد والرُّقى المحظورة، كما حصل لأهل نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وكما جاء مبيَّناً في تاريخ نجد لابن بشر(٢).

والمقصود أن بعض رُقاة اليوم قد ارتكبوا مزالق ومآخذ، منها: الظاهر الجلي، ومنها: المشتبِه الخفي، ونورد في هذه السطور ملحظاً، هو محل اشتباه وإشكال، ألا وهو التعويل على المجرَّبات؛ فلقد أفرط الكثير من الرقاة في المجرَّبات، وفتحوا الباب على مصراعيه، فقيَّدوا ما أطلقه الشرع، وخصَّصوا ما كان عامّاً، وأطلقوا ما كان مقيَّداً؛ فآيات قرآنية حددوها لعلاج الداء الفلاني، وآيات أخرى خصصوها لداء آخر... وهكذا.

كما أثبتوا هيئات معيَّنة، وأعداداً محدَّدة عند الاستشفاء بالقرآن، ودون دليل أو برهان على تلك الهيئات أو الأعداد، وقد يحتجُّون بما ورد عن بعض السلف... مع أن ما ورد عن السلف لو صحَّ عنهم، فهو من موارد الاجتهاد والنزاع التي تُردُّ

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي: ١/ ١٨١.
(٢) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر: ١/ ٣٣ - ٣٤.

إلى نصوص الوحيين، وما أطلقه الشارع فلا يسوغ تقييده بلا دليل. يقول ابن تيمية: «شَرْع الله ورسوله ﷺ للعمل بوصف العموم والإطلاق لا يقتضي أن يكون مشروعاً بوصف الخصوص والتقييد، مثال ذلك: أن الله شرع دعاءه وذِكْرَه شَرْعاً مطلقاً، فقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ونحو ذلك من النصوص؛ فالاجتماع للدعاء والذكر في مكان معيَّن، أو زمان معيَّن، تقييد للذكر والدعاء، لا تدل عليه الدلالة العامة المطلقة بخصوصه وتُقْييده»[1].

كما قرر الشاطبي هذا المعنى بقوله: «إذا ندب الشرع - مثلاً - إلى ذكر الله، فالتزم قوم الاجتماع عليه على لسان واحد وبصوت، أو في وقت معلوم مخصوص عن سائر الأوقات، لم يكن في نَدْب الشرع ما يدل على هذا التخصيص الملتزم، بل فيه ما يدل على خلافه؛ لأن التزام الأمور غير اللازمة شرعاً شأنها أن تُفْهم التشريع»[2].

وساق الشاطبي في موطن آخر أمثلة على البدعة الإضافية؛ فكان مما قاله: «ومنه تكرار السورة الواحدة في التلاوة، أو في الركعة الواحدة؛ فإن التلاوة لم تُشْرَع على ذلك الوجه، ولا أن يَخُصَّ من القرآن شيئاً دون شيء، لا في صلاة، ولا في غيرها، فصار المخصِّص لها عاملاً برأيه في التعبد لله. وخرَّج ابن وضاح عن مصعب قال: سئل سفيان عن رجل يكثر قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. لا يقرأ غيرها كما يقرؤها، فَكَرِهه، وقال: إنما أنتم متَّبعون؛ فاتبعوا الأولين، ولم يبلغنا عنهم نحو هذا، وإنما أُنْزِلَ القرآن ليُقرأ ولا يُخصُّ شيء دون شيء.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ١٩٦ = باختصار.

(٢) الاعتصام: ١/ ٢٤٩.

وخرَّج أيضاً عن مالك - رحمه الله - أنه سئل عن قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مراراً في الركعة الواحدة، فَكَرِه ذلك، وقال: هذا من محدثات الأمور التي أحدثوا»[1].

والمقصود أن في هذه المجرَّبات تقييداً لما أطلق الشارع، والتزامَ هيئات وكيفيات لا دليل عليها؛ فأحوال هذه المجرَّبات أنها تتعلق بعبادات ثابتة من جهة أصلها: كتلاوة آيات القرآن أو الدعوات. . . ونحوها، لكنها مُحْدَثة من جهة صفتها وهيئتها وعددها[2]؛ ولا سيما أن جمهور السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار - رضوان الله عليهم - لم يُنقَل عنهم تلك المجربات، ولو وَرَد عنهم ذلك لَنُقِل؛ فهذا مما تتوفر الدواعي لنقله؛ فكان هذا الترك الراتب عن جمهور الصحابة سُنةً وسبيلاً للمؤمنين.

وما جاء عن بعض تجارب السلف فهم آحاد، وُيردُّ ذلك إلى الميزان من نصوص الكتاب والسُّنة، وما عليه جمهور السلف الصالح، وخاصة أنهم قد يعوِّلون على ما عاينوه عن علماء جرَّبوا ذلك، والاستدلال بأفعال العلماء من أضعف الاحتجاج، وكان يقال: لا تنظر إلى عمل الفقيه، ولكن سَلْه يَصْدُقك.

وأيضاً فإن هذه المجربات لم تَعُد شيئاً عارضاً، بل أضحت أمراً راتباً، وقواعد مشتهرة ومنتشرة، يتداولها طوائف من الناس على أنها مسلَّمات وقطعيات وعبر وسائل الإعلام المتنوعة.

وكثرة المُحْدَثات والتجاوزات توجب المزيد من الحزم والصرامة، كما فعل الفاروق - رضي الله عنه - في إنفاذ وقوع الطلاق بالثلاث جملة، فلَمَّا أكثر الناسُ مما نُهوا عنه من إيقاع الطلاق بالثلاث جملة، رأى عمر الفاروق أن يعاقبهم بإنفاذ ذلك عليهم.

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٥.

(٢) انظر: قواعد معرفة البدع لمحمد الجيزاني: ص ١١٣ - ١١٩.

«ولا ريب أنه إذا كثر المحظور احتاج الناس فيه إلى زجر أكثر مما إذا كان قليلاً»[(١)].

ويقال أيضاً: يتعذر الجزم بأن هذه المجرَّبات سبب مطرد في حصول المطلوب؛ فقولهم – مثلاً –: من كان عقيماً، فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩] كذا وكذا مرة، يحصل مراده كما جُرِّب؛ ولا سيما أن السبب لا يستقل بنفسه في حصول المطلوب.

فلعل شدة افتقاره ولجأه إلى الله – تعالى – هو سبب الإجابة، وليس لأجل التزام هذه التجربة وعَدَدها، ولَمَّا احتج بعضهم بأثر لا يثبت: من وسَّع على أهله يوم عاشوراء وسَّع الله عليه[(٢)]، وقال سفيان بن عيينة: جرَّبناه منذ خمسين سنة، فما رأينا إلا خيراً[(٣)].

تعقَّب ذلك ابن تيمية قائلاً: «لا حجة في قول سفيان ابن عيينة؛ فإن الله أنعم عليه برزقه، وليس في إنعام الله بذلك ما يدل على أن سببه كان التوسيع يوم عاشوراء»[(٤)]. وقال في موطن آخر: «ومن هنا يغلط كثير من الناس؛ فإنهم يبلغهم أن بعض الأعيان من الصالحين عبدوا عبادة، أو دعوا دعاءً، ووجدوا أثر تلك العبادة، وذلك الدعاء، فيجعلون ذلك دليلاً على استحسان تلك العبادة والدعاء، ويجعلون ذلك العمل سُنة، وهذا غلط... خصوصاً إذا كان ذلك العمل إنما كان أثره بصدق قام بقلب فاعله حين الفعل، ثم يفعله الأتباع صورة لا صدقاً»[(٥)].

(١) جامع المسائل لابن تيمية: ١/ ٣٣٧.
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٢٢.
(٣) انظر: لطائف المعارف لابن رجب: ص ٥٢.
(٤) مجموع الفتاوى: ٢٥/ ٣١٣.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٩٤.

كما أن حصول المطلوب، وقضاء الحاجات ها هنا لا يقتضي مشروعية هذه المجرَّبات بإطلاق؛ «فإن المشركين يُقضى كثير من حوائجهم بالدعاء عند الأصنام، والأماكن التي يعظمونها؛ فهل يقول مسلم: إن مثل ذلك سوَّغ لهم هذا الفعل المحرَّم بإجماع المسلمين[(١)]؟

فلو كان المطلوب مباحاً وسائغاً، فإنه قد يفوِّت ما هو آكد وأهم، وقد بيَّن ذلك ابن تيمية بقوله: «ليس لكل سبب أثر يكون مشروعاً، بل الشارع ينهى عن أمور لها تأثير في طلب بعض المطالب، إذا كان ضررها راجحاً على نَفْعها، كما ينهى عن طلب السحر ونحو ذلك؛ وإن كان قد يمكن أن يُقتَل به كافر، ويُطَّلع بذلك على بعض أخبار أعداء الإسلام»[(٢)].

وقال أيضاً: «حصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته، وإن كان الغرض مباحاً، فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته»[(٣)].

والمقصود: أن الإيغال في تلك المجربات، والانشغال بها يفضي إلى أن تكون هي المعيار والميزان، وليس لزوم السُّنة وتحرِّي حال السلف الصالح؛ فعلى الراقي والمسترقي أن يلزم ما عليه جمهور السلف، وأن يقف حيث وقفوا؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفُّوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل - لو كان فيها - أحرى؛ فلئن قلتم: حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من خالف هديهم، ورغب عن سنَّتهم.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٧/ ١٧٢.
(٢) الرد على البكري، (ت: السهلي): ص ٢٧٤.
(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ص ١٨٤.

الصحابة هم الدعاة

الدعوة إلى الله تعالى سبيل سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، وسبيل أتباعه إلى يوم الدين ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، والدنيا مظلمة إلا ما أشرقت عليه شمس الرسالة المحمدية التي فتح الله بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلْفاً.

والدعوة إلى الله من الواجبات الشرعية والفروض الكفائية كما حرّره ابن تيمية قائلاً: «الدعوة إلى الله واجبة على من اتبع النبي ﷺ، وهم أمته؛ يدعون إلى الله كما دعا إلى الله.

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عمّا ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبرهم به، إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر..

فالدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعيّن من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره..»(١).

(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ١٦٥، ١٦٦ = باختصار.

لقد رغّب نبينا ﷺ في الدعوة إلى الله والنصح للخلق فقال: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النّعم»(١).

ولما كان الصحابة خير القرون، وهم فوقنا في كل علم وفقه ودين وهدى؛ فقد استجابوا لهذه الوصية النبوية العظيمة كما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: «قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ، وصلّينا وصمنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا بشر كثير، وإنا لنرجو ذلك»(٢).

ومن ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما دعا الخوارج إلى لزوم السنة، وناظرهم في مناظرة مشهورة معلومة، حتى تاب ورجع آلاف منهم(٣).

لقد ترفّق ابن عباس رضي الله عنهما بهم، وتجاوز عن رعونتهم في قولهم عنه: «بل هم قوم خصمون»! واستهلّ مناظرته بقاعدة منهجية متينة، حيث قال: «جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ، وليس فيكم منهم أحد، وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله»(٤).

فهؤلاء الخوارج مبتدعة ليس لهم سلف من الصحب الكرام، والصحابة هم أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وقد شهدوا التنزيل، وعرفوا خاصّه وعامّه، فهم أعلم بتفسيره وحقيقته من غيرهم.

والاحتجاج بالسنة وما عليه الصحب الكرام هو أيضاً حجة الصحابي الفقيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما خاطب أقواماً قد بدت خمائر الخوارج في أحوالهم! فقال لهم: «هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تكسر،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) ينظر: حلية الأولياء ١/ ٣١٨.
(٤) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البرّ، ٢/ ١٠٤.

والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة»[1].

وكشفت المناظرةُ جهالةَ الخوارج وسوء فهمهم لكتاب الله، فقد جاء في المناظرة: «أما قولكم: «إنه حكّم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال في المرأة وزوجها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. أنشدكم الله! أفتحكيم الرجال في حق دمائهم وأنفسهم وصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم في حق دمائهم وصلاح ذات بينهم. قال: أأخرجته من هذه؟ قالوا: اللهم نعم»[2].

حيث احتج الخوارج بآية ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] على تكفير أهل التحكيم، فاحتج عليهم ابن عباس بآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، وآية: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فالخوارج قطعوا قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] عن قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥][3].

وهذا حال أهل الأهواء، فإنهم يبترون النصوص، ويجعلون القرآن عضين، وقد وصف ابنُ عباس الخوارجَ فقال: «يؤمنون بمحكمه، ويضلون عن مشابهه»[4].

ويقال أيضاً: «إنهم ظنوا العموم في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فلا يلحقه تخصيص، وإلا فلو علموا أن العموم يراد به الخصوص لم يسرعوا إلى الإنكار»[5].

---

(١) أخرجه الدارمي، ١/ ٧٩.
(٢) حلية الأولياء ١/ ٣١٨.
(٣) ينظر: الاعتصام للشاطبي ١/ ٩٠.
(٤) أخرجه الآجري في الشريعة، ١/ ٣٤٣.
(٥) الاعتصام للشاطبي ت: مشهور ٢/ ٤٠.

والحاصل أن ابن عباس دعا القوم إلى السنة بحجة ظاهرة، وسرعة بديهة، وتلطّف مع القوم، واطمأن لبلوغ حجته وفهمها، إذ كان يقول عقب الجواب عن كل شبهة: «أأخرجته من هذه»، واستمر على ذلك في سائر المناظرة، حتى رجع منهم عشرون ألفاً.

ومما يحسن ذكره ها هنا أن ابن عباس خطب بمنى، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأها ويفسّروها حتى ختمها، فقال بعضهم: ما رأيتُ كاليوم، والله لو سمعته الترك لأسلمت(١).

ومثال آخر: أن يزيدَ الفقير(٢) قد شغف(٣) برأي الخوارج في تخليد العصاة، حتى سمع الصحابيَّ الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدِّث بحديث الجهنميين(٤)، فقال يزيد: يا صاحب رسول الله! ما هذا الذي تحدّثون والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢]؟ فقال جابر: أفتقرأ القرآن؟ قال يزيد: نعم. قال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ؟ قال: نعم. فقال جابر: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرِج الله به من يُخْرِج(٥)، وأن قوماً يخرجون من النار بعد أن كانوا فيها(٦).

فما أجلَّ فقه جابر، فالخوارج ينتحلون كتاب الله، لكنهم لا يفقهونه، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فاحتج عليهم بالسنة النبوية التي تفسّر القرآن وتبيّنه وتدلّ عليه..

(١) ينظر: السير للذهبي ٣/ ٣٥١.
(٢) لأنه اشتكى فَقار ظهره.
(٣) شغف: أي لصق بشغاف قلبه، وهو غلافه، والمراد: شدة الحب.
(٤) وهم من عصاة الموحدين الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها.
(٥) المقام المحمود يستوعب الشفاعة العظمى لأهل المحشر لأجل فصل القضاء، والشفاعة لعصاة الموحدين المعذّبين بالخروج من النار. ينظر: إكمال المعلم للقاضي عياض، ١/ ٥٧١.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، (٣٢٠).

فذكر حديث الجهنميين، وخروج عصاة الموحدين من النار.. فأقلع يزيد الفقير وأصحابه عن مذهب الخوارج، ولم يخرج منهم غير رجل واحد.

ومقالة جابر ها هنا تذكّرنا بمقالته في حديث حجة الوداع: «ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ينزل عليه القرآن، وهو يعلم تأويله، فما عمل به من شيء عملنا به»[1].

فأعلم الناس بتأويل القرآن وتفسيره هو رسول الله ﷺ، سواءً في العقائد أو الشرائع، وهذا أصل كبير أهمله الخوارج، إذ بالقرآن يحتجون، وعن السنة المبيّنة يعرضون.

وهكذا كان سلف الأمة الذين جاؤوا من بعد الصحابة، واتبعوهم بإحسان، فقد كانوا دعاة مباركين أينما كانوا.. فهذا يوسف بن أسباط يقول: كان أبي قدرياً، وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان الثوري[2].

وهذا موسى بن حزام «كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله بأحمد بن حنبل، فانتحل السنة وذبّ عنها، وقمع من خالفها مع لزوم الدين حتى مات»[3].

وأخيراً؛ فالسلف الدعاة يعوّلون على نصوص الوحيين في دعوتهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، ففيها الغَناء والشفاء، والحجة والظهور، ولها من الإجلال والتعظيم والنفع والتأثير ما ليس لغيرها، فما أحوجنا إلى ذلك، لا سيما في هذه الأيام التي استروح فيها جملة من الدعاة إلى الأذواق والآراء والانطباعات والخطرات بلا علم ولا دليل ولا كتاب منير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج.
(٢) أخرجه اللالكائي، ١/ ٦٠.
(٣) تهذيب التهذيب، لابن حجر، ١٠/ ٣٤١.

غزة والسخاء

«ابتُلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام، ولا أخلاق الجاهلية، ولا أخلاق ذي المروءة»[1]. هذه المقالة التي سطَّرها أبو بكر الواسطي (ت ٣٢١هـ) تحكي واقع العرب تجاه أحداث غزة؛ فأخلاق الإسلام قد اندرست، وعفتْ آثارها، ومروءات العرب قد تصرَّمت إلا من الأشعار. لقد كان عرب هذا الزمان - قبل عقود - «ظاهرة صوتية»، تسمع جعجعة ولا ترى طحناً، ثم انحدروا إلى الصمت المريب والسكوت المطبق، وسوء الختام - في هذه الأيام -: التواطؤ المكشوف مع العدو المحتل، والتعاون على العدوان على أهل غزة، «والاستمتاع» بين الفريقين: اليهود وأشباههم من المنافقين.

وكان مشركو العرب - رغم شركهم - أرباب مروءات، فهم أصحاب «حِلْف الفضول» ومنهم من نقض صحيفة حصار المسلمين في شِعْب أبي طالب..، وفيهم أَنَفَة وإباء الضيم، وأما عرب اليوم فهم على النقيض من ذلك:

(١) المنتظم لابن الجوزي، ١٣/ ٣٣١.

أرانـــب غـيـر أنـهُـم «رؤوسٌ»
مـفـتـحـة عـيـونـهُـمُ نِـيـامُ
بـأجـسـام يـحـرُّ الـقـتـل فـيـهـا
ومـا أسـيـافُـهـا إلا الـطـعـامُ

ومع حمأة هذه الفواجع والمصائب، وتتابع الشدائد والبليّات؛ إلا أن بعضهم يتلفَّع بالصمت، ويؤثر التقاعس، ويتدثَّر بالعقل والتأنِّي، والتظاهر بالرزانة والثقل، ويحيد عن الحلول العملية الواضحة والعاجلة تجاه هذه النازلة الفادحة... قال الله - عز وجل -: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥].

وأحسن حالاً من أولئك مَنْ سلك موقفاً تجاه نصرة قضية غزة - وأشباهها - فاجتهدوا في الدعاء والقنوت لهم، لكنهم اقتصروا على ذلك، وتركوا أسباباً عظيمة للنصرة؛ كالإمداد والدعم بالمال، والعتاد، وتبنِّي قضية فلسطين - عموماً - والاحتفاء والانشغال بها.

ومن المعلوم بداهة أن في الدعاء فضلاً ونفعاً وأثراً، لكن من الحَيْدة وإيثار السلامة أن نتغافل عمَّا في مقدورنا مما يحتاجه إخواننا من المناصرة بالمال وتجهيز الغزاة وإيصال الغذاء والدواء إلى عقر دارهم، ونحو ذلك من المواقف والواجبات التي لها آثارها وتبعاتها، وإن أقلقتْ عرباً، أو أسخطتْ غرباً.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: «لكن نفراً من الناكصين على أعقابهم في الميادين الراكضة أبوا إلا أن يَدَعوا هذا المجال [المدافعة].. ووجد (الأذكياء) عوضاً عن الحقيقة التي يجب أن يواجهوها؛ فإذا جهاد النفس يحلُّ محلَّ

جهاد العدو، ودروس التصوف العالي تسدُّ مسدَّ الهجوم على الخونة والمغيرين». إلى أن قال: «إذا كنتَ مديناً وجاءك الغريم يتقاضاك حقه، فما معنى أن تلويه عن غرضه بمحاضرة مسهبة في الزهد والتجرد؟»[1].

وها هو نبينا محمد ﷺ لما قدم عليه قوم من قبيلة مضر، وكانوا حفاةً عراةً.. فتمعَّر وجه الرسول ﷺ لِمَا رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً - رضي الله عنه - فأذَّن وأقام فصلَّى، ثم خطب فقال: «﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ..﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشقِّ تمرة» قال جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - [راوي الحديث]: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب، حتى رأيتُ وجه رسول الله ﷺ يتهلَّل كأنه مُذْهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ سنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده.. الحديث»[2].

قال النووي: «وأما سبب سروره ﷺ ففرحاً بمبادرة المسلمين إلى طاعة الله تعالى، وبذل أموالهم لله، وامتثال أمر رسول الله ﷺ، ولدفع حاجة هؤلاء المحتاجين، وشفقة المسلمين بعضهم على بعض...»[3].

ومما ينبغي تجليته ما كان عليه المسلمون الأوائل من اتخاذ الأوقاف والأحباس، وجعل رَيْعها وغَلَّتها لأهل الرباط والثغور، وسائر نفقات الجهاد في سبيل الله تعالى. ومن ذلك: أن مسلمي الأندلس اعتادوا أن يجعلوا نصيباً من أحباسهم لتمويل مرافق

(١) في موكب الدعوة، ص ٣٠٩.
(٢) أخرجه مسلم رقم (١٠١٧).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ٧/ ١٠٣.

الجهاد الحربي ضد النصارى[1]، ومثال ذلك: أن أحدهم أوصى أن يُحْبَسَ على ثغر من ثغور الأندلس الفندقان اللذان له، تنفق غَلَّتهما هنالك ما دامت الدنيا[2].

وأفتى علماء الأندلس - ومعهم علماء المغرب - يوسف ابن تاشفين بجواز طلب المعونة من الناس؛ لتغطية نفقات الجيش المرابطي المجاهد في الأندلس، حينما قصَّرت عن ذلك أموال الدولة[3].

ومن طريف البذل والسخاء أن امرأة بذلت ضفائر شعرها في سبيل الله، وأرسلتها إلى الخليفة هارون الرشيد، ومعها كتاب فيه: إني امرأة من أهل البيوتات من العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وسمعتُ تحريضك الناس على الغزو، وترغيبك في ذلك، فعمدتُ إلى أكرم شيء من بدني وهما ذؤابتاي فقطعتهما وصررتُهما في هذه الخرقة المختومة، وأناشدك بالله العظيم لما جعلتهما قيد فرس غازٍ في سبيل الله، فلعلَّ الله العظيم أن ينظر إليَّ على تلك الحال نظرةً فيرحمني بها.

فبكى الرشيد وأبكى الناس، وأمر أن يُنادَى بالنفير، فغزا بنفسه، فأنكى فيهم، وفتح الله عليهم[4].

ويقرِّر ابن تيمية عِظَم ملازمة الثغور فيقول: «إن السكن بالثغور والرباط والاعتناء به أمر عظيم، وكانت الثغور معمورة بخيار المسلمين علماً وعملاً، وأعظم البلاد إقامة بشعائر الإسلام؛ وحقائق الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . - إلى أن قال -: وأهل الشام ما زالوا مرابطين من أول الإسلام لمجاورتهم النصارى ومجاهدتهم لهم، فكانوا مرابطين مجاهدين لأهل الكتاب.

(١) جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى، لمحمد أبا الخيل، ص ٢٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٦١.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(٤) انظر: صفة الصفوة، ٤/١٩٨، لابن الجوزي. ثم عقب ابن الجوزي قائلاً: «هذه امرأة حَسُن قصدها، وغلطت في فعلها؛ لأنها جهلت أن ما فعلتْ منهيٌّ عنه، فلينظر إلى قصدها».

وقد جاء عن السلف آثار فيها ذكر الثغور مثل: (غزة)، و (عسقلان)، و (الإسكندرية)، و (قزوين)، ونحو ذلك»[1].

كم هو جميل حقاً تلك المشاعر الإيمانية، والعواطف الوجدانية التي أظهرها أهل الإسلام نحو إخوانهم في غزَّة؛ فمع تكالب عوامل الإفساد والتغريب، والقمع والتلبيس لأمة الإسلام؛ إلاّ أنَّ هذه الأمة المحرومة بذلت جهد المقل تجاه أهل غزة، فينبغي تحريك هذه العاطفة الدينية، وتقوية مشاعر «الأخوة الإيمانية»، وتوظيفها في مواقف إيجابية وبرامج عملية، ومن ثم لا مسوِّغ للإيغال فيما يسمى بـ «ضبط النفس»؛ إذ الأمة تكابد أنواعاً من التخدير والتخذيل، فالإغراق في ذلك الضبط لا يعقبه إلا القضاء على بقية هذه العواطف الجيَّاشة وإخمادها، ولا يخلِّف إلا أكواماً من الجمود والبرود.

وقد يلحظ المشتغلون بالعلم والدعوة ما لدى الشبيبة من عاطفة متدفقة، وإقدام وبذل، وتستحوذ على هؤلاء الدعاة والمربِّين وقائع معينة أورثتْ مفاسد وسلبيات؛ لأجل اندفاع الناشئة وشجاعتهم، فينهمكون في التزهيد من هذه العاطفة وتقليصها، والإفراط في التريُّث والحذر، فأعقب ذلك ضعف الغيرة، وغلبة البرود، واستيلاء الجُبْن!

ويذكِّر هذا المسلك بما حكاه الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - عن المتصوفة حين قال: «إن الدجالين من رجال الطرق الصوفية كانوا يربُّون أتباعهم على التواضع بشتى الطرق المهينة.

فإذا رأوا أنفة في مسلك أحدهم، أو دلائل عزة وترفُّع؛ جعلوا عليه مهمة حمل أحذية الجماعة والمحافظة عليها؛ حتى تنكسر نفسه، وينخفض رأسه، وبذلك يكون

---

(١) مسألة في المرابطة بالثغور، ص ٥٠، ٥١، ٥٩؛ باختصار.

مرشحاً لعبادة الله كما يجب!

ولم يَدْر المغفلون أنهم يرشحونه أيضاً ليكون عبداً للناس جميعاً، وأن مثل هذا الكائن الممسوخ هو أمل المستعمرين الذين يقيمون وجودهم على إذلال الشعوب وقتل الشعور بالكرامة في نفوس بنيها»[1].

وأخيراً: «لا تتم رعاية الخلق وسياستهم إلا بالجود الذي هو العطاء، والنجدة التي هي الشجاعة، بل لا يصلح الدين والدنيا إلا بذلك»[2].

(١) تأملات في الدين والحياة، ص ١٧٣.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨/ ٢٩١.

كسوف العقل

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لو أن أهل الحساب والمشتغلين بالفلك والهيئة اقتصروا في تفسير كسوف الشمس أو خسوف القمر وَفْق ما يعرفونه من أسبابٍ ظاهرةٍ طبعيةٍ لهان الأمر؛ فقيمة المرء ما يحسنه، لكن أن يدَّعوا أن كسوف الشمس ليس سببه ذنوب العباد، ولا أثَر ولا صلة له بمعاصي بني آدم، فذاك ظن بلا علم، وتخرُّص بلا فهم، بل هو جهالة بالعلميات، وقساوة قلب بالعمليات والإرادات، كما هو مبيَّن في السطور التالية:

- مقولة الفلكيين السالفة قد تجد آذاناً صاغية في عصور غابرة، زمن الصراع بين الكنيسة والدين في أوروبا؛ فتأليه العلم التجريبي لا يتحقق إلا بمحاربة إله الكنيسة وخرافة الدين النصراني المحرَّف؛ فإن أردتَ العلم فانسلخ من تلك العبادة، وكذا العكس... وهكذا ظل الصراع قائماً بين الدين المحرَّف والعلم في بلاد الغرب.

وأما دين الإسلام - وعند مذهب أهل السُّنة والجماعة على سبيل الخصوص - فتصريح المعقولات موافق لصحيح المنقولات؛ فلا عداء مفتعلاً بين العلم والدين؛ فما أثبته العلم التجريبي من حقائقَ يستحيل أن تعارض هذا الشرع التامَّ والدين الخاتم؛ فالشرع أنزله الله - تعالى - والعقل خلقه الله، عز وجل. والأدلة الشرعية والبراهين العقلية يصدق بعضها بعضاً[1].

- قررتِ الأدلة النقلية أن للكسوف أسباباً شرعية في وقوعه وارتفاعه؛ فذنوب العباد من أسباب وقوعه وانعقاده، كما أن الصلاة والصدقة والدعاء والتوبة... سبب في زواله وارتفاعه؛ فعن أبي بكرة - رضي الله عنه - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس فقام النبي ﷺ يجرُّ رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا، فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد فإذا رأيتموها فصلُّوا وادعوا حتى يُكشف ما بكم»[2].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله (آيتان) أي علامتان، (من آيات الله)؛ أي: الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته، أو على تخويف العباد من بأس الله وسطوته، ويؤيده قوله - تعالى -: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]»[3].

وبيَّن الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بطلان مزاعم أهل الهيئة (الفلك)، فقال: «قوله ﷺ: (يخوِّف بهما عباده) فيه ردٌّ على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادي لا يتقدم ولا يتأخر؛ إذ لو كان كما يقولون لم يكن في ذلك تخويف، ويصير بمنزلة الجَزْر والمدِّ في البحر، وقد ردَّ ذلك عليهم ابن العربي وغير واحد من أهل العلم بما في حديث أبي موسى الأشعري؛ حيث قال: «فقام فزعاً يخشى أن

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب: ص ٩ - ٨٧، والعلمانية لسفر الحوالي ص ١٢٣ - ٢١٩.
(٢) أخرجه البخاري: (١٠٤٨).
(٣) فتح الباري: ٢/ ٥٢٨.

تكون الساعة». قالوا: إن ظاهر الأحاديث أن ذلك يفيد التخويف، وأن كل ما ذُكِر من أنواع الطاعة يُرجَى أن يُدفَع به ما يُخشَى من أثر ذلك الكسوف»[1].

وقال العلامة العيني: «لا خلاف في مشروعية صلاة الكسوف والخسوف، وأصل مشروعيتها الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة: أما الكتاب فقوله - تعالى -: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، والكسوف آية من آيات الله المخوِّفة، والله - تعالى - يخوِّف عباده ليتركوا المعاصي ويرجعوا إلى طاعة الله التي فيها فوزهم»[2].

وأخرج الشيخان من حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته؛ فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبِّروا وصَلُّوا وتصدَّقوا. ثم قال: يا أمَّة محمد! والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده، أو تزني أَمَته، يا أُمَّة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

قال الحافظ ابن حجر: «قال الطيبي وغيره: لَـمَّا أُمِروا باستدفاع البلاء بالذكر والدعاء والصلاة والصدقة، ناسب ردعَهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء، وخصَّ منها الزنا؛ لأنه أعظمها في ذلك. وفي الحديث ترجيح التخويف في الخطبة على التوسع في الترخيص؛ لِمَا في ذكر الرخص من ملاءمة النفوس لما جُبلَت عليه من الشهوة. والطبيب الحاذق يقابل العلة بما يضادها لا بما يزيدها»[3].

- من أعظم الآفات أن يكذِّب أقوام بما لم يحيطوا بعلمه؛ فكون الكسوف والخسوف له أسباب ظاهرة طبعية قد تُعرَف بالحساب؛ فهذا لا ينفي ما سبق تقريره أن

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٣٧.
(٢) عمدة القارئ: ٦/ ٤٧.
(٣) فتح الباري: ٢/ ٥٣١.

ذنوب العباد وتفريطهم من أسباب انعقاد الكسوف وحصوله؛ فلا مانع من ذلك كله، وأمَّا حصر هذه السببية فيما ادَّعاه أهل الهيئة فهذا قصور في العلم، وضيق في الأفق.

فالعلماء المحققون من أهل الإسلام والسُّنة اتسعت عقولهم وأفهامهم؛ فأثبتوا السبب الطبعي والشرعي؛ فابن دقيق العيد يقول: «ربما يعتقد بعضهم أن الذي يذكره أهل الحساب ينافي قوله ﷺ: «يخوِّف الله بهما عباده» وليس بشيء؛ لأن لله أفعالاً على حسب العادة، وأفعالاً خارجة عن ذلك، وقدرته حاكمة على كل سبب؛ فله أن يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض، وإذا ثبت ذلك فالعلماء بالله لقوة اعتقادهم في عموم قدرته على خرق العادة، وأنه يفعل ما يشاء إذا وقع شيء غريب حدث عندهم الخوف لقوة ذلك الاعتقاد؛ وذلك لا يمنع أن يكون هناك أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله خرقَها، وحاصله أن الذي يذكره أهل الحساب إن كان حقاً في نفس الأمر لا ينافي كون ذلك مخوفاً لعباد الله، تعالى»[(١)].

وتحدث ابن القيم عن سببية الكسوف والخسوف قبل مئات السنين فأثبت السبب الطبعي المعتاد، فقال: «فأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا، وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس حتى يصير القمر ممنوعاً من اكتساب النور من الشمس...»[(٢)].

كما قرر السبب الشرعي قائلاً: «إن الله - سبحانه - يُحدِث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره ما يكون بلاءً لقوم ومصيبة لهم، ويجعل الكسوف سبباً لذلك؛ ولهذا أمر النبي ﷺ عند الكسوف بالفزع إلى ذكر الله والصلاة والعتاقة والصيام؛ لأن هذه الأشياء تدفع موجب الكسوف الذي جعله الله سبباً لما جعله؛ فَلَولا انعقاد سبب التخويف، لما أمر بدفع موجبه بهذه العبادات.

---

(١) فتح الباري: ٢/ ٥٣٧.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٠٦، ٢٠٧ = باختصار.

ولله – تعالى – في أيام دهره أوقات يُحْدِث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء، ويقضي من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قام به، أو يقلله أو يخففه؛ فمن فزع إلى تلك الأسباب أو بعضها، اندفع عنه الشر الذي جعل الله الكسوف سبباً له أو بعضه؛ ولهذا قلَّ ما يسلم أطراف الأرض؛ حيث يخفى الإيمان، وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف، وتسلم منه الأماكن التي يظهر فيها نور النبوة، والقيام بما جاءت به الرسل، أو يقلُّ فيها جداً»[1].

كما قرر أيضاً أنه لا تناقض بين حساب الكسوف، وبين الفزع إلى الصلاة والدعاء والصدقة، والذي هو أنفع للأمة وأجدى عليهم في دنياهم وأخراهم من اشتغالهم بعلم الهيئة وحساب الكسوف[2].

– وإذا تقرر أن للكسوف سبباً يُعرف بالحساب، وحكمةً إلهية في تخويف العباد، فلا يُظَن أن ما جاءت به السنَّة في الكسوف يعارض معرفة وقت الحساب كما حرره ابن تيمية بقوله: «وما أخبر به النبي ﷺ لا ينافي كون الكسوف له وقت محدود يكون فيه؛ حيث لا يكون كسوف الشمس إلا في آخر الشهر ليلة السرار، ولا يكون خسوف القمر إلا وسط الشهر وليالي الأبدار. ومن ادَّعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة؛ فلعدم علمه بالحساب»[3].

كما أن كسوف الشمس سبب في حوادث أرضية؛ فالكسوف سبب للشر وليس مجرد اقتران كما تقوله الجهمية ولا يسوغ أن يُدَّعى أنه لا أثر لشيء من الكواكب العُلْويَّات في السفليات مطلقاً، كما بيَّنه ابن تيمية في غير موطن[4].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٢٠٩، ٢١٠.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢١٢، ٢١٣.
(٣) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٧٥.
(٤) انظر منهاج السنة النبوية: ٥/ ٤٤٢، ٤٤٥، ومجموع الفتاوى: ٣٥/ ١٦٨.

وأخيراً: فإن معارضة الرسل - عليهم السلام - توجب فساداً في العقل، وسوءاً في الفهم، وكلما كان الرجل عن أتباع الرسول أبعد، كان عقله أقلّ وأفسد[1].

فدعوى أن كسوف الشمس مجرد أمر معتاد يُعرف بالحساب، لا تنفك عن جهالة بالعلم، وفظاظة في القلب؛ فما ينشره أهل الفلك من أخبار الكسوف هذه الأيام، قد أعقب بلادةً في الوجدان، وتهويناً لشأن هذه الحوادث العظام.

ولئن كسفت الشمس لحِكَم إلهية، وأسباب قدرية، فلقد اعترى عقولَ أهل الفلك نوع من الكسوف؛ لضعف الاستجابة لله - تعالى - ورسوله ﷺ، وظهور الأهواء، وكما قال الشاعر:

إنـــارة الـعـقـل مـكـسـوفٌ بـطـوعِ هـوى

وعـقـلُ عـاصـي الـهـوى يـزدادُ تنويرا

(١) انظر الصواعق المرسلة لابن القيم: ٣/ ٨٦١، ٨٦٤.

أبو بطين ... الفقه والاحتساب

لئن كان العلاَّمة عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين[1] (ت ١٢٨٢هـ) من علماء الدعوة السلفية (التي جددها الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب)؛ إلا أنه يُعدُّ أنموذجاً فذّاً في سيرته وقضائه وفقهه، وجهوده العلمية؛ فلا غرو أن يلقَّب آنذاك بـ «مفتي الديار النجدية»؛ فكان في الفروع «إذا سُئل عن مسألة واضحة لا تخفى على أدنى طَلَبَته تأنَّى في الجواب حتى يظن الجاهل أنه لا يعرفها، والحال أنه يعرف مَن نقلها، ومَن رجَّحها، ومَن ضعَّفها، ودليلَها، وأما اطلاعه على خلاف الأئمة الأربعة وغيرهم من السلف والروايات والأقوال المذهبية فأمر عجيب»[2].

فمن مزاياه أنه ألَّف رسالة في تجويد القرآن، وهذا يندر عند علماء نجد في ذلك الوقت، ثم إنه في أصول الدين صاحبَ تقرير بديع، وردٍّ متين كما هو ظاهر في مؤلَّفاته وفتاويه. ومن ذلك: أن الذين يطلبون الشفاعة من الأموات، يقولون: إن

---

(١) انظر ترجمته في: السحب الوابلة لابن حميد: ٢/ ٦٢٦، وعلماء نجد للبسام: ٤/ ٢٢٥.
(٢) السحب الوابلة: ٢/ ٦٣١.

النبي ﷺ أُعطِي الشفاعة، ونحن نطلبه ممن أعطاه إليه. فأجاب العلاَّمة أبو بطين عن هذه الشبهة قائلاً: «إطلاق القول بأن الله ملَّك المؤمنين الشفاعة خطأٌ؛ بل الشفاعة كلها لله وحدَه، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وأثبت - سبحانه - الشفاعة بإذنه، وأخبر النبيُ ﷺ أن الأنبياء يشفعون، والصالحون يشفعون، وعلى هذا فمن أَذِن الله له في الشفاعة يصح أن يقال: إنه مَلَك ما أُذِن له فيه، لا ما لم يؤذن له فيه؛ فهو تمليك معلَّق على الإذن والرضى لا تمليك مطلَق... وسيد الشفعاء - صلوات الله وسلامه عليه - لا يشفع حتى يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسْمَع، واشفع تشفَّع»[(١)].

ولما احتج الخصوم بحديث: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب» على عدم وقوع الشرك في جزيرة العرب. ردَّ أبو بطين هذا الاستدلال فقال: «في الحديث نسبة اليأس إلى الشيطان مبنياً للفاعل، لم يقل: (أُيِّس) بالبناء للمفعول، لو قُدِّر أنه يئس من عبادته في أرض العرب إياساً مستمراً؛ فإنما ذلك منه وتخمين لا عن علم؛ لأنه لا يعلم الغيب، وهذا غيب لا يعلمه إلا الله... كما أن أكثر العرب ارتدُّوا بعد وفاة النبي ﷺ؛ فكثير منهم رجعوا إلى الكفر وعبادة الأوثان، وكثير صدَّقوا مسيلمة في دعواه الكاذبة للنبوة، ومَن أطاع الشيطان في نوع من أنواع الكفر فقد عبده؛ لا تختص عبادة الشيطان بنوع من الشرك، كما أن المصطفى ﷺ أخبر أن هذه الأمة تفعل كما فعلت الأمم قبلها: اليهود والنصارى وفارس والروم»[(٢)].

ومن تقريراته التي تدل على تحقيقه ورسوخه، أن تعقَّب صاحب تيسير العزيز الحميد - الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ - في قوله: «إن الطاعة ملزومة للعبادة»[(٣)]؛ حيث قال أبو بطين: «قوله: ملزومة للعبادة... غير صحيح؛ فليس

(١) تأسيس التقديس، ص ٨٢.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية: ٤/ ٤٨٢ - ٤٨٧ = باختصار، وانظر: ٢/ ١٧٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد، ص ٦٥٦.

كل مطاع معبوداً كالنبي ﷺ، وأولي الأمر»[1]. فهذا كلام نفيس دلَّت عليه النصوص الشرعية؛ فالعبادة حق لله - تعالى - وحده، وأما جنس الطاعة فهي لله ورُسُله - عليهم السلام - كما أن العبادة غاية الحب وغاية الذل، بخلاف الطاعة للملوك؛ فقد تكون خضوعاً ظاهراً فقط[2].

وأما عن احتسابه فقد ظهر جليّاً في احتسابه السياسي وَفْقَ تقريرات علمية ومواقف عملية، ولما ورد عليه هذا السؤال: «إن قال بعض الجهال: من شرط الإمام أن يكون قرشياً، ولم يقل عارضياً؛ يشير إلى أنه قد ادَّعاها من ليس من أهلها، يعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ومن قام معه وبعده بما دعا إليه، وأيضاً أن البغاة يحل دماؤهم دون أموالهم، وقد استحل الأموال والدماء من العلماء وغيرهم؛ فما الجواب؟».

فأجاب - رحمه الله -: «إذا قال بعض الجهال ذلك، فقل له: ولم يقل: تركياً، فإذا زال الأمر عن قريش؛ فلو رجع إلى الاختيار لكان العرب أَوْلَى به من الترك؛ لأنهم أفضل من الترك؛ ولهذا ليس التركي كفواً للعربية... وهذا الذي يعظمه الناس تركي لا قرشي، وهم أخذوها بغياً على قريش، ومحمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ما ادَّعى إمامة الأمة؛ وإنما هو عالم ودعا إلى هدى وقاتل عليه، ولم يلقَّب في حياته بالإمام، ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود، ما كان أحد منهما يسمى إماماً في حياته، وإنما حدث تسمية من تولى إماماً بعد موتهما. وأيضاً فالألقاب أمرها سهل، وهذا من صار والياً في صنعاء سمِّي إماماً، وصاحب مسقط يسمى إماماً، وقتال الشيخ محمد بن عبد الوهاب مَنْ قاتله ليس لكونهم بغاة، وإنما قاتلهم على

(١) ملخص من شرح التوحيد لأبي بطين (مخطوط في دار الملك عبد العزيز) ق ٢٩/ أ.
(٢) انظر: السبعينية، ص ٥٠٣، وجامع الرسائل لابن تيمية: ٢/ ٢١٩.

ترك الشرك وإزالة المنكرات وعلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والذين قاتلهم الصديق والصحابة - رضي الله عنهم - لأجل منع الزكاة، ولم يفرِّقوا بينهم وبين المرتدين في القتل وأخذ الأموال. . . »[1].

فيلحظ قوة حجة أبي بطين، ورسوخ تحقيقه، ومراعاة الواقع والحال، وعدم الاشتغال بالرسوخ والألقاب، والتفريق بين قتال البغاة، وقتال الممتنعين عن شرائع الإسلام الظاهرة كما جاءت به الأدلة الصحيحة.

وأما مواقفه العملية فقد كان - رحمه الله - حاضراً ومؤثراً في الواقع السياسي آنذاك، كما في هذه الموقفين الآتيين:

أولهما: أن قوماً من أهل القصيم خرجوا على الإمام فيصل بن تركي سنة ١٢٦٥هـ، فقامت وقعة «اليتيمة» بين الفريقين، وهُزم أهل القصيم، وقُتل منهم كثير، ثم إن أمير بريدة حضَّ الناس على القتال مرة أخرى، فجاءه العلاَّمة أبو بطين - وكان قاضي القصيم - وقال له: «يا هذا! اتقِ الله، واربأ بنفسك؛ فإن البلد ليست لك ولا بيدك، وأمرها بيد أهلها، وليس لك فيها أمر ولا نهي، وهم يريدون إصلاح أنفسهم مع الإمام فيصل، فإن أردتَ أن تكون كذلك فأفعل»[2]. فصدع أبو بطين بالحق، وحث على الصلح مع الإمام فيصل لأجل الاجتماع وحفظ الدماء، ثم إن الذين أشعلوا الفتنة والحرب ضد فيصل بن تركي، ندموا على ما صنعوا، وخافوا من سطوة الإمام فيصل وبطشه، فطلبوا من العلاَّمة أبي بطين أن يسعى في الصلح وإزالة غضب الإمام، فركب أبو بطين إلى الإمام فأكرمه وأجابه إلى ما طلب وعفا عنهم[3].

وأما الموقف الثاني: فإن أهل عنيزة لَمَّا عزموا على إخراج أميرهم جلوي بن

(١) مجموعة الرسائل والمسائل: ٢/ ١٧٠.

(٢) انظر: عنوان المجد: ٢/ ٢٦٧.

(٣) انظر: عنوان المجد: ٢/ ٢٦٨، وعلماء نجد للبسام: ٤/ ٢٤٠.

تركي سنة ١٢٧٠هـ وحاصروه في قصره، فبادر الشيخ أبو بطين فنصح أهل عنيزة بأن لا يُخرِجوا جلوي بهذه الطريقة، وقال: «أنا كفيل لكم بأن أركب إلى الإمام فيصل بن تركي وأطلب منه أن يعزل أخاه «جلوي»، وينصب بدله أميراً ترضونه» لكنهم أصروا على إخراجه، فغضب الشيخ أبو بطين، وخرج إلى بريدة(١).

فالشيخ أبو بطين اتخذ مسلكاً وسطاً متوازناً (يتفق مع أصل الاجتماع وقاعدة المصالح)؛ فنصح أهل عنيزة أن لا يُخرِجوا أميرهم بهذا الأسلوب، ثم إنه وعدهم بأن يسعى إلى تنصيب أمير بدله.

وأخيراً: فإن الناظر إلى سيرة العلاَّمة أبي بطين ونظرائه لَيَتذكَّر مقالةً جامعةً للإمام الشعبي؛ حيث يقول: «إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمع فيه العقل والنُّسُك»(٢). ولقد اجتمع لأبي بطين العقل والنُّسُك، ومع أنه أدرك نهاية الدولة السعودية الأُولَى، واضطراباً في عهد الدولة السعودية الثانية إلا أنه كان راسخاً مسدِّداً، ثابتاً موفَّقاً في فتاويه ومواقفه؛ فقد حباه الله - تعالى - عقلاً رشيداً ورأياً راجحاً، فولي القضاء في نجد والحجاز وعُمان، فأحسن القضاء بين الخصوم، وأجاب عن مسائل مشكلة في الفقه والاعتقاد (كما هو مبسوط في فتاويه) وشارك في معالجة نوازل واقعة، كما سبق القول. ثم إنه صاحبُ تعبُّد وسَمْت، وصدقة وإحسان؛ فقد كان «ساكناً وقوراً، دائم الصمت، قليل الكلام في كل شيء كثير العبادة والتهجُّد، مواظباً على درسَي وعظٍ بعد العصر وبين العشائين في المسجد الجامع»(٣).

وقد ورد في الأثر: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات».

---

(١) انظر: الأحوال السياسية في القصيم للسلمان، ص١٩١.
(٢) السير للذهبي: ٤/ ٣٠٧.
(٣) السحب الوابلة لابن حميد: ٢/ ٦٣١.

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا

«الغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختلُّ، وتؤرجح في أكفِّهم ميزان القِيَم؛ فلا يملكون تصوُّر الحياة وأحداثها وقيمها تصوُّراً صحيحاً، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً؛ لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغيِّر نظرته إلى كل ما يقع في هذه الأرض؛ فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون.

ومن ثمَّ لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها، ولا ينتظر ما وراءها؛ لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، فلكل منهما ميزان؛ هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا، وذاك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والحياة والموت. . .»[1].

هذا ما سطَّره المفكر الأديب سيّد قطب - رحمه الله - عند قوله - تعالى -: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٩؛ باختصار.

والإعراض عن دار الخلود يورث في هذه الدنيا هشاشةً في المواقف والنوازل، وإيثاراً للراحة والسلامة، وملاينةً للأعداء، وتنصُّلاً من المسؤوليات الجِسَام؛ فمن كانت الدنيا همّه وشغله وهِجِّيراه[1]؛ أتراه يبذل وقته وماله وقلمه في سبيل الله تعالى؛ فضلاً عن أن يقدِّم مهجته؟!

وقد أشار الأستاذ الكبير د. محمد محمد حسين - رحمه الله - إلى ذلك بقوله: «إن الناس في ضعفهم البشري، وتمسُّكهم الشديد بالحياة الدنيا؛ لا يدركون من الحروب والصراع إلا الجانب الذي يكرهونه ويخافونه، وهو العذاب والآلام التي تصاحب الصراع، والموت الذي قد ينتهي به، ولكن نظرة متدبِّرة تهدي المؤمنين إلى أن الآلام والموت على امتداد الحياة الكبرى ليست إلا بعض المكاره القليلة الخطر على الامتداد الطويل المديد الذي لا يحدّه الخيال، لا يكاد يذكرها الإنسان بعد أن يتجاوزها إلى ما وراءها، فهي لا تزيد عما يقابله في طفولته، أو صباه، أو شبابه، أو بعض أطوار حياته من ضروب المعاناة في الأمراض أو الحوادث»[2].

والغفلة عن الآخرة، وضعف اليقين بأحوال القيامة قد شمل القاصي والداني، والبرّ والفاجر، والذكر والأنثى - إلا ما شاء الله - فمستقل ومستكثر، وفتِّش نفسك هل أنت سالم؟!

لقد حذَّر السلف الصالح من الغفلة عن الآخرة، وعدم تذكُّر أهوال الآخرة وزواجرها؛ فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[3].

---

(١) هِجِّيراه: دأبه وديدنه وعادته.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية: ١٩٢ - ١٩٣؛ باختصار.

(٣) أخرجه الترمذي.

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»(١). قال ابن حجر: «فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشرِّ أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها»(٢).

وكان الحسن البصري - رحمه الله - يقول: «لقد رأيتُ رجالاً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين، ولو رأوكم لقالوا: هؤلاء شياطين، ولو رأوا خياركم لقالوا: هؤلاء لا خلاق لهم، ولو رأوا شراركم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب»(٣).

وكان للحسن مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك(٤).

ومن خواطر ابن الجوزي ومواعظه: «من تفكَّر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهَّب للسفر. ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

تغترُّ بصحتك وتنسى دنوَّ السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم، لقد أراك مصرعُ غيرك مصرعَك.

وكيف تنامُ العينُ وهي قريرةٌ
ولم تدرِ من أيِّ المحلّين تنزلُ»(٥)

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) الفتح: ١١/ ٣٢١.
(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٦/ ٧٢.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٧٩.
(٥) صيد الخاطر: ٤٥؛ باختصار.

وقال أيضاً: «همة المؤمن متعلقة بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة، وكل من شَغَله شيء فهمّته شغله. ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيتَ البَزّاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبنَّاء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط. والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذَّة ذكر الجنة، فهمّته متعلقة بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كل ما ثمَّ»[1].

إن الإيمان بالآخرة أصل صلاح القلب، وأصل الرغبة في الخير والرهبة من الشر، اللذان هما أساس الخيرات، فالإيمان بيوم القيامة يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء اللذين إن خلا القلب منهما؛ خرب كلَّ الخراب، وإن عُمر بهما أوجب له الخوفُ الانكفافَ عن المعاصي، والرجاءُ تيسيرَ الطاعة وتسهيلها[2].

ومع كثرة الخطط الدعوية والبرامج التربوية عند الإسلاميين؛ إلا أن هذا الجانب الإيماني الروحاني الجليل لم يُعْطَ حقه من الاحتفاء وتربية الأجيال عليه؛ إذ لا يتولى هذا الشأن إلا من قلَّ علمه وقدره.

لقد كان الوعاظ في قديم الزمان علماء وفقهاء، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاضٍ صدوق[3].

إن الناظر في واقع الصحوة الإسلامية - فضلاً عن واقع عامة المسلمين - ليلاحظ جملة من الآفات السلوكية والأخلاقية، باعثها ضعف الإيمان باليوم الآخر، ومن

(١) صيد الخاطر: ٣٤٢.
(٢) انظر: تفسير السعدي: ١/ ٢٩، ٣٦٠.
(٣) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ١٣٤- ١٣٥.

ذلك: الفتور عن العمل الدعوي لأجل الدنيا أو الأهل، وأسوأ من ذلك تسخير العمل الدعوي وليُّه في سبيل تحصيل حظوظ الدنيا! وكذا استرواح المداهنة لأعداء الله تعالى، واللياذ بالمواقف العائمة التي لا تهدم باطلاً ولا تنصر حقاً، والانبهار بالحضارة المادية، والتولِّي عن مقارعة أئمة الكفر والبدع والفجور، وغياب الأخلاق والمروءات؛ كالشجاعة والكرم والنصرة، وتتبُّع رخص الفقهاء.. إلخ.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول: «لا تتمُّ الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بالنظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرَّات، كما قال الله – سبحانه –: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة»[1].

وقال – في كتاب آخر –: «جميع الأمم المكذِّبة لأنبيائهم إنما حملهم على كفرهم وهلاكهم حبُّ الدنيا.. فكل خطيئة في العالم أصلها حبُّ الدنيا، فحب الدنيا والرياسة هو الذي عمر النار بأهلها، والزهد في الدنيا والرياسة هو الذي عمر الجنة بأهلها.. والدنيا تسحر العقول أعظم سحر..»[2].

كم هو موجع حقاً حال طائفة منا – معشرَ الدعاة وطلابَ العلم – إذ كانوا في ريعان شبابهم على حظ كبير من الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، والبذل والحرص على أداء القربات وأنواع التضحيات، ثم لما وهن العظم، واشتعل الرأس شيباً، ودنا الرحيل؛ إذا هم ينكبُّون على حطام الدنيا الزائل، ويتثاقلون عن تلك القربات، ويغالبهم العجز والكسل! «واعجباً! كلما صعد العمر نزلتَ، وكلما جدَّ الموت هزلتَ! أتُراك ممن ختم بفتنة، وقُضيت عليه عند آخر عمره المحنة؟ كنت في

(١) الفوائد، ص ٨٨؛ باختصار.

(٢) عدة الصابرين، ص ١٨٥؛ باختصار.

زمن الشباب أصلح منك في زمن أيام المشيب»[١].

واحسرتاه! تقضَّى العمر وانصرمت
ساعاته بين ذلّ العجز والكسلِ
والقوم قد أخذوا درْب النجاة وقد
ساروا إلى المطلب الأعلى على مَهَلِ

إن على محاضن الصحوة الإسلامية أن يتعاهدوا أفرادهم بالتربية الإيمانية النبوية، ومن ذلك: أن نبينا محمداً ﷺ كان يربِّي صحابته الكرام - رضي الله عنهم - على العزوف عن الدنيا والاشتغال بيوم المعاد؛ فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبيّ فقال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[٢].

قال ابن رجب: «وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يُهيِّئ جهازه للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم..»[٣].

وعن عديٍّ بن حاتم - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار، قال: وأشاح، ثم قال: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة؛ فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[٤].

ألا فليسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم؛ فإن خير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ.

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، ص ١٨٣.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) جامع العلوم والحكم: ٢/ ٣٧٧.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

المتوارون عن الولاء

يضخِّم اللاهثون خلف سراب الإنسانية ما يُؤَمَّل من مكاسب الحوارات الموبوءة، ويُغرِقون في تشييد أمانٍ وأمنيات على جرف هارٍ من الأوهام والظنون، ويهيمون في مسارب حب «مصطلَم» وعشق مغيَّب، ويتعامونَ عن براهين الشرع المنزَّل، وحقائق التاريخ السابق والحاضر.

إنَّه الهروب من الواقع، والنكوص عن ميادين المدافعة والدعوة، والحيدة عن معالي الأمور ومجالدة الأعداء وجهادهم، والاستمتاع بملاينة الطغاة والمستبدين، والركون إلى عاجل الفانية وحطامها.

ولم يقف القوم عند هذه المهانة والخنوع للأعداء، واستملاح الذل والصَّغار، بل هرعوا إلى العبث بالنصوص الشرعية وليِّها، من أجل أن تتفق مع مسلك الخَوَر ومركب العجز.

وقبل أن نورد نماذج من تلك التحريفات والتأويلات الفاسدة لنصوص الولاء والبراء؛ نؤكد على استصحاب ما كان معلوماً من الدين بالضرورة؛ من وجوب موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، حتى قال بعض العلماء: «فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - قد أوجب ذلك، وأكَّد إيجابه، وحرَّم موالاتهم وشدَّد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله - تعالى - حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[1].

كما أن دعوى إلغاء العداء مخالفة لطبيعة الإنسان وفطرته؛ إذ لا ينفك الإنسان عن حبٍّ وبغض، وموالاة ومعاداة، فأصل كل فعل وحركة في العالم الحب والبغض؛ كما بسطه ابن تيمية في رسالته: قاعدة في المحبة.

ومعسول السلام، والترنُّم بالوئام مع أعداء الله - تعالى - يخالف سنة التدافع والصراع بين الحق والباطل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ورحم الله الأستاذ الكبير (محمد محمد حسين) حيث يقول: «وقد جرَّبنا الكلام عن الإنسانية والتسامح والسلام، وحقوق الإنسان في عصرنا؛ فوجدناه كلاماً يصنعه الأقوياء في وزارات الدعاية والإعلام؛ ليَنْفُق ويروج عند الضعفاء، فهو بضاعة للتصدير الخارجي، وليست معدَّة للاستهلاك الداخلي، لا يستفيد منها دائماً إلا القوي؛ لأنها تساعد على تمكينه من استغلال الضعيف الذي يعيش تحت تخدير هذه الدعوات، في ولاء مع مستغلِّه ومستعبده يستنفد طاقاته وقدراته في الأحلام بدل أن يوجهها لعمل نافع يحرِّره من قيود ضعفه وعجزه..»[2].

ومن هذا العبث في تفسير نصوص البراءة من المشركين: دعوى بعضهم أن العداء والبراء لمجرد الكفر والشرك لا للكافرين ولا للمشركين.. وهذه سفسطة

---

(١) النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك، لحمد بن عتيق، ص ١٥.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية، ص ١٩٢.

مكشوفة ومكابرة ظاهرة؛ إذ الكفر والشرك وصف قائم بأشخاص وأنظمة ودول! وقد أمر الله - تعالى - في محكم التنزيل بالبراءة من الشرك وأهله، بل قدَّم البراءة من المشركين على البراءة من معبوداتهم، قال - تعالى - على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام -: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال - تعالى - عن الخليل إبراهيم - عليه السلام -: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩].

ويفتري بعضهم الكذب على الله عند قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] فيزعمون أن كلمة (سواء) هي الإقرار بالربّ، فهو القاسم المشترك بيننا وبينهم! وقد تعاموا عن سائر الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فالكلمة السواء هي عبادة الله - تعالى - وحده لا شريك له، وهذا ما ينقضه النصارى جهاراً نهاراً.

وتحتج طوائف على تبرير ملاينة النصارى واللياذ بأهل الصليب بقوله - عز وجل -: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. ويغفلون عن الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]؛ فالمقصود بهم من آمن بنبينا محمد ﷺ، فهم شهدوا لله بالوحدانية ولنبينا محمد ﷺ بالنبوة والرسالة، فأين هؤلاء من عموم النصارى الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وتنقَّصوا عظمته وكماله وطعنوا في نبينا محمد ﷺ.

قال ابن حزم: «ولو أن الله وصف قولهم (طائفة اليعقوبية من النصارى القائلين: إن المسيح هو الله) في كتابه؛ لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف»[1].

وقال ابن تيمية: «ففي الجملة ما قال قوم من أهل الملل قولاً على الله إلا وقول النصارى أقبح منه، ولهذا كان معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول: لا ترحموهم؛ فقد سبُّوا الله مسبَّةً ما سبَّه إياها أحد من البشر»[2].

وتكايس آخرون فحصروا البغض والعداء في شأن الكافر المحارب دون المسالم، وهذا مردود بصريح القرآن في آيات كثيرة؛ كقوله - تعالى - على لسان إبراهيم الخليل - عليه السلام -: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ فجعل للعداوة والبغضاء غاية وهي دخولهم في الإيمان بالله وحده، وقال - عز وجل - ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، فموجب العداوة لهم وعدم اتخاذهم أولياء لأجل كونهم كفاراً يهوداً ونصارى؛ فلم يُعلِّق العداء بالمحاربين ولا الصهاينة المعتدين!

ويتحذلق بعضهم في تسويغ الديانات المنسوخة المبدلة، ويستدل بقوله - تعالى -: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. وهذه الآية الكريمة حجة عليهم كما حرَّره ابن تيمية قائلاً: «هي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله، فإن حرف «اللام» في لغة العرب يدل على الاختصاص.. ولهذا قال النبي ﷺ - عن هذه

(١) الفصل ١/ ١١١، وانظر: ٢/ ١٩٩.
(٢) الجواب الصحيح ٣/ ١٧٣.

السورة -: «هي براءة من الشرك»[(١)].

وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين ولا أهل الكتاب كما يظن بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين.. بل فيها براءته من دينهم وبراءتهم من دينه.. وهنا أمر محكم لا يقبل النسخ.. فإنه ﷺ لم يرضَ قط إلا بدين الله، ما رضي قط بدين الكفار لا من المشركين ولا من أهل الكتاب»[(٢)].

قد يعتل بعضهم على محبة الكافر بقوله - تعالى -: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**القصص**: ٥٦]؛ إذ نزلت الآية في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، والذي مات مشركاً على ملة عبد المطلب؛ كما ثبت في حديث المسيَّب بن حْزن - رضي الله عنهما - والذي أخرجه البخاري ومسلم. والجواب عن هذا الاستدلال أن معنى الآية: من أحببتَ هدايته كما هو ظاهر السياق.

كما قال شيخ المفسرين ابن جرير - رحمه الله -: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ (إنَّك) يا محمد! (لا تهدي من أحببت) هدايته (ولكن الله يهدي من يشاء) أن يهديه من خلقه، بتوفيقه للإيمان به وبرسوله، ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء؛ كان مذهباً»[(٣)].

وقال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي: «ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن نبيه ﷺ لا يهدي من أحبَّ هدايته..»[(٤)].

وتفوَّه آخرون بتوقير الكافر والاحتفاء به؛ لأن النبي ﷺ قام لجنازة يهودي.. وقد جاء في الروايات الثابتة ما يبيِّن هذا الحديث؛ فمن ذلك: «إن الموت فزع»، ومعناه:

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) الجواب الصحيح ٢/ ٣١-٣٢؛ باختصار.

(٣) تفسير ابن جرير ١١/ ٩١، وانظر: فتح الباري لابن حجر ٨/ ٥٠٦.

(٤) أضواء البيان ٦/ ٤٥٦.

أن الموت يُفْزَع منه، إشارة إلى استعظامه، وفيه تنبيه على أن تلك الحالة ينبغي لمن رآها أن يقلق من أجلها ويضطرب، وفي رواية ثانية «إنما قمنا للملائكة»، وفي لفظ ثالث «إنما تقومون إعظاماً للذي يقبض النفوس»، وفي رواية رابعة «إعظاماً لله الذي يقبض الأرواح». ولا تعارض بين ذلك كله؛ فالقيام للفزع من الموت هو من تعظيم أمر الله تعالى، وتعظيم للقائمين بأمره وهم الملائكة؛ كما أقرَّه الحافظ ابن حجر في الفتح(١).

فكيف وقد توافرت النصوص الصريحة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بمشروعية مجانبة اليهود - وسائر الكفرة - ومخالفتهم حتى قالت يهود: «ما يريد هذا الرجل - يعنون نبينا محمداً # - أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه»(٢).

والمقصود أن الولاء للمؤمنين والعداوة للكافرين من آكد المحكمات البيّنات والثوابت القطعيات كما جاء واضحاً جلياً في نصوص الوحيين وقواعد الشريعة. وإنْ تطاول أحدهم على هذا الأصل الكبير، ولوَّح بنص أو دليل يعكر على هذا الأصل؛ فهذا من المتشابه الذي ينبغي ردُّه إلى المحكم البيِّن. ولا يُعرض عن المحكمات، ويتَّبع المشتبهات إلا أهل الزيغ من النصارى وأشباههم؛ كما قال - تعالى - عنهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

مع يقيننا أن كل دليل يتشبَّث به المخالف لباطله؛ فإن في هذا الدليل ما ينقض مذهبه ويزهق باطله؛ إذ النصوص يصدِّق بعضها بعضاً، والدليل الصحيح لا يدل إلا على حق وصواب.

---

(١) ٣/ ١٨٠.

(٢) أخرجه مسلم ح (٣٠٢).

«إن لرسالات السماء أعداء موغلين في الخصام، لهم بيان حسن، ومقالات مزخرفة، واغترار بالباطل، وتأميل في نجاحه وكسب المعركة به.

وأعداء الإسلام من هذا القبيل لن ينقطعوا، ولن يهادنوا.

تُرى: أيغني في لقائهم الإحساس البارد والقلب الفارغ والابتسام المبذول؟ هيهات ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨ - ٩]»[١].

(١) تأملات في الدين والحياة، لمحمد الغزالي، ص ١٦٣.

اللهم اغفر لبكر وارفع درجته في المهديين!

فارق الشيخ العلَّامة بكر بن عبد الله أبو زيد - رحمه الله - هذه الدنيا نهار يوم الثلاثاء الموافق ٢٧/ ١/ ١٤٢٩هـ، فصُلِّي عليه ودُفن بعد العشاء في مقبرة الدرعية في الرياض، وقد كانت وفاته إثر مرض لازمه بضع سنين، وقد شهد الصلاة عليه ودفنه فئام من أهل العلم والفضل والصلاح.

- عاش العلّامة بكر سنيَّ حياته مجانباً الشهرة، مُؤْثِراً الخمول، ولسان حاله يقول: الشهرة آفة وكلٌّ يتحرّاها، والخمول راحة وكلٌّ يتوقّاها[1]، مع أن الشيخ العلامة بكراً قد ولي القضاء في المدينة النبوية (١٣٨٨- ١٤٠٠هـ)، وأمَّ حيناً من الدهر في المسجد النبوي، ثم صار وكيلاً لوزارة العدل، ثم رئيساً للمجمع الفقهي.

كان من أعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء، وهيئة كبار العلماء، وكان متعففاً شجاعاً، أبيَّ النفس، كريم الخصال، زاهداً في المناصب والأعطيات، وما أجمل

(١) قالها الروياني كما في طبقات الشافعية، للسبكي، ٧/ ٣٢٦.

ما سطّره - قدّس الله روحه - قائلاً: «من أعظم أسباب الفوز والنصر: الزهد في المناصب والولايات، والكف عن زخرفها؛ فمسكين من يتطلع إليها». ويقول: «أنا لها، ومغبون - والله - من دفع ثمنها، مُقدّماً بالتنازل عن شيء من دينه، والملاينة على حساب علمه ويقينه، وكل امرئ حسيب نفسه»[1].

وقال أيضاً: «فهل يعتبر من ابتُلوا بالتسول على مستوى رفيع، ويتنمّر على معارفه وإخوانه، والرفعاء منهم يعلمون أنه في الظاهر مطاع متبوع، وهو في الباطن عبدٌ تابع ذليل مطيع. على أن الأرض لا تخلو من المتأسِّين بالصالحين، الذين تجردوا من هذه الحظوظ»[2]، ونحسب أن أبا عبد الله من تلك الصفوة الباقية.

وقال العلامة بكر: «وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفَّى في ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ - رحمه الله - متقللاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: لقد جئت من (شنقيط) ومعي كنز، قلَّ أن يوجد عند أحد، وهو (القناعة) ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها..»[3].

- فتح الله - تعالى - على شيخنا بكر في باب التصنيف والتأليف، فعكف على تحرير الرسائل، وتحقيق القضايا، ودوَّن المؤلفات النفيسة في الفقه، والاعتقاد، ومصطلح الحديث، وسائر الفنون، ولقد أضحى تأليفه - طيّب الله ثراه - أنموذجاً يُحتذى ومناراً يُقتدى، فلقد تميّزت مصنفاته بحسن اختيار المسائل، وعمق البحث، وبلاغة الأسلوب، وفصاحة العبارة، وسعة الاطِّلاع، وقوة البحث والمطالعة.

فإن الناظر - مثلاً - في كتابه (معجم المناهي اللفظية) لينبهر من سعة اطِّلاعه، وظهور جَلَده وعمق تحقيقه، وجمال أسلوبه؛ فقد حوى هذا المعجم الفريد خمسمائة

(١) الجامع لسيرة ابن تيمية، ص: ق، ل. وانظر: حلية طالب العلم، ص ٥٢ - ٥٣.
(٢) المرجع السابق.
(٣) حلية طالب العلم، ص ١٢.

وألفاً من الألفاظ والمصطلحات، وقد استخرجها العلامة بكر من المطولات في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وسائر الفنون، وطالع كمّاً هائلاً من كتب هذا العصر وأنواع الدوريات وغيرها، ثم أوْلى هذه الألفاظ حقها من الدراسة والتحقيق والتوثيق. ومع هذه الجهود التي ينوء بها أولو القوة من الباحثين والمحققين، إلا أنك لا ترى في هذا المعجم، ولا في سائر مؤلفاته لغة الأَثَرة، أو حديث الذات، مثل: أنا، ولي، وقلت.. ونحوها، بل التواضع وهضم النفس هو السائد على تلك المصنفات.

كما يلحظ في مؤلفاته حرصه التام على إظهار السنَّة، وعنايته الفائقة بالألفاظ الشرعية، واحتفائه بلسان العرب، وحزمه تجاه الألفاظ المحدَثة والمولَّدة.

- لقد غلب على كثير من علماء قلب الجزيرة العربية قلة التأليف، وندرة التصنيف؛ تواضعاً، واشتغالاً بالتدريس في حِلَق الجوامع، ونحو ذلك، لكنّ بكراً - مع إخباته وتواضعه - قد أدرك أهمية التصنيف، وعظيم أثره، فحرَّر وعلَّق، وكتب وحقَّق، وها هي مؤلفاته البديعة ملء السمع والبصر، ورحم الله ابن الجوزي إذ يقول: «رأيتُ من الرأي القويم أنَّ نفْع التصنيف أكثر من نفْع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يُحْصَوْن ما خُلقوا بعدُ، فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وُفِّق للتصنيف المفيد؛ فإنه ليس كل من صنَّف صنّف، وليس المقصود جمع شيء كيف كان، وإنما هي أسرار يُطْلع الله - عز وجل - عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فُرِّق، أو يرتِّب ما شُتِّت، أو يشرح ما أُهمِل، هذا هو التصنيف المفيد»[1].

(١) صيد الخاطر، ص ٢٠٧.

- جاهد العلامة بكر أبو زيد بقلمه ولسانه، وسخَّر قلمه في الذبِّ عن حرمات الإسلام، كما عالج نوازل عصره ومستجدات أهل زمانه كما هو بيِّن في كتابه (فقه النوازل).

يقول ابن تيمية في شأن هذا الجهاد: «مجاهدة الكفار باللسان مشروعة من أول الأمر إلى آخره؛ فإنه إذا شُرِع جهادهم باليد فباللسان أَوْلى»[1].

وقال أيضاً: «وجوب بيان الإسلام وإعلامه ابتداءً ودفعاً لمن يطعن فيه أَوْلى من جهاد الكفار بالسيف ابتداءً ودفعاً»[2].

فسطَّر العلامة بكر (الإبطال) في نقض مقالة دعاة وحدة الأديان، وصنَّف (حراسة الفضيلة) في هتك دعاة الرذيلة، كما ألَّف في التحذير من المدارس الأجنبية، وكشف كيدها وإفسادها، ودوَّن رسالة في التحذير من أعياد الكافرين ونحوها من الأعياد المبتدعة، وسمَّاها (عيد اليوبيل بدعة في الإسلام)، وتصدَّى لأهل الأهواء والبدع كما في كتبه (تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال) و (براءة أهل السنة) وغيرها.

- لم يكن العلامة بكر مجاملاً ولا غافلاً عمّا وقع من متسنِّنة هذا العصر من تجاوزات ومآخذ، فإنه لما رأى تحزباً للجماعات والحركات، ألّف رسالته (حكم الانتماء)، ولما استحوذ وباء التصنيف، والولوغ في أعراض العلماء والدعاة، حرر رسالته (التصنيف بين الظن واليقين)، ولما أصابت لوثة الإرجاء بعض المنتسبين لأهل السنة، وظهر من خلال كتب ورسائل؛ تصدّى لهم - مع بقية أعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية - عبر فتاوى محرَّرة في نقد هذه المؤلفات والتحذير منها، ولما

(١) الجواب الصحيح: ١/ ٧٤.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٧٥.

رأى إغراقاً في مسألة دعاء ختم القرآن ألَّف رسالة صغيرة في مرويات ختم القرآن، وبيَّن عدم مشروعية ذلك.

بل إنّه - رحمه الله - تعقَّب هذا الوصف «اللجنة الدائمة» مع أنه من أعضائها[1].

- ومن جوانب خصاله المغمورة في ثنايا كتبه ما كان عليه من قوة الحجة وسرعة البديهة، كما في هذه الواقعة التي دوَّنها - بشأن الرفض والانقباض من الجديد - حيث قال: «ولما دخلت (عمّان البلقاء) عام ١٤٠٧هـ، أراد بعض الحضور التنكيت على النجديين بأنهم حرّموا (الهاتف) لأنه سحر، فقلتُ: على رِسْلِكم؛ فإن من أوابد الشاميين تحريم المطابع لشيء فيه آية من القرآن العظيم؛ لأن الحروف كانت بواسطة الرصاص المذاب، ولا يجوز تعريض القرآن للنار، بل صدرت بالتحريم فتوى من (المشيخة التركية) كما في «تاريخ مطبعة بولاق». ومن أوابدهم: تحريم القهوة والشاي، وإباحة الدخان، كما ذكر الرحيباني الحنبلي رسالة لبعض الشاميين في ذلك في كتابه «مطالب أولي النهى بشرح غاية المنتهى». وفي مصر هُجِرت السيارة، وكان لا يركبها إلا السَّوَقة، وهكذا»[2].

والعلامة بكر - فيما نحسبه - إمام سنَّة وعالم رباني، فلم تعصف به المتغيرات، أو تجرفه التحولات، كما كان صاحب دعوات ومناجاة لله رب العالمين، كما يُلْمَح في مؤلفاته الكثيرة، ومن ذلك: ما في مقدمة كتابه (التأصيل): «اللهم امْنُنْ - وأنت المانُّ وحدك - على امرئ متذلِّل بين يديك، بصالح النية في العلم والعمل، والثبات على الإسلام والسنة إلى بلوغ الأجل»[3].

فاللهم ارحم أبا عبد الله، وأكرم نُزُلَه، واجعله فوق كثير من خلقك.

---

(١) انظر: معجم المناهي اللفظية، ص ٦٤١.
(٢) تصحيح الدعاء، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.
(٣) التأصيل، ص ١٠.

ثورات العامة مشاهد تاريخية

لئن كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول عن العامة: «همج رَعاع أتباع كلِّ ناعق يميلون مع كل صائح»[(١)].

وكذا الإمام محمد بن أسلم يقول: «احذروا الغوغاء فإن الأنبياء قتلتهم الغوغاء»[(٢)].

فإن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال في وصيته لابنه يزيد: اتق صيحة العامة. وكان الإمام الشعبي يقول: نِعمَ الشيء الغوغاء يسدُّون السيل، ويطفئون الحريق، ويشغبون على ولاء السوء[(٣)].

ومهما يكن فإن لدى العامة من العفوية والإقدام ما ليس لأصحاب الروية والتفكير، كما أن لديهم من نقاء الفطرة وسلامتها ما ليس لمن عالج الشبهات وخالطها؛ فالجويني ندم على اشتغاله بعلم كلام ثم قال: «ها أنا ذا أموت على عقيدة

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٧٩.
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٩/ ٢٤٠.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٤/ ٣٢٤، وهو في السير للذهبي: ٤/ ٣١٢.

أمي. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور»[١].

والآمدي الأصولي المتكلم يقول: «أمعنتُ النظر في الكلام وما استفدت منه شيئاً إلا ما عليه العوام»[٢].

ولما سئل عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - عن شيء من الأهواء (البدع) قال: «الزم دين الصبي في الكتَّاب والأعرابي، والْهَ عما سوى ذلك»[٣].

والعالم الرباني يوصف بأنه عالم أمة، فهذا الإمام ابن تيمية كان محبوباً للعامة؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً، بلسانه وقلمه[٤].

وتاريخنا حافل بوقائع تكشف أن للعامة ثورات وشغباً وهيجاناً، وأن لها تأثيراً ظاهراً في سير الأحداث، وحضوراً قوياً في تلك النوازل.

ومن ذلك أن العامة هاجت على بشر المريسي المبتدع (ت ٢١٨هـ) وطالبوا الخليفة باستتابته واستجاب الخليفة لهم وأمر باستتابته[٥]، وكان الصبيان يتعادون بين يدي جنازة بشر، ويقولون: من يكتب إلى مالك؟ من يكتب إلى مالك (يعنون مالكاً خازن جهنم)[٦].

ثم إن هؤلاء الأطفال يرمون جنازة بشر المريسي بالحجارة[٧].

(١) الحموية لابن تيمية، ص٢١٠، وشرح الطحاوية: ١/ ٢٤٥.
(٢) الدرء لابن تيمية: ٣/ ٢٦٢.
(٣) أخرجه الصابوني في عقيدة السلف، ص٢٤٧.
(٤) انظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٤٠٨.
(٥) المنتظم لابن الجوزي: ١٠/١٠٦.
(٦) تاريخ بغداد: ٧/ ٦٤.
(٧) السنة للخلال: ٥/ ١١٤.

والحاصل أن هيجان العامة على ذلك المبتدع المريسي قد تحقق مقصوده؛ إذ أمر الخليفةُ القاضيَّ باستتابة المريسي وتمَّ ذلك.

ومن تلك الثورات أن «المطوِّعين» تجرَّدوا للإنكار على الفساق ببغداد سنة ٢٠١هـ؛ حيث استفحل شرُّ الفساق، فكانوا يختطفون النسوان والغلمان علانيةً، واللصوص يسرقون وينهبون ثم يبيعونه وضح النهار! فطالب الأهالي السلطان أن يكفَّهم فلم يجبهم.

فقام رجل يقال له: خالد الدريوس، فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومَنَع الفساق وعزَّر السرَّاق ورفعهم إلى السلطان.

ثم قام رجل آخر يقال له: سلامة الأنصاري ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتَبِعَه عامة الناس، ومَنَع المنكرات، لكن أفرط في ذلك إذ قاتل كلَّ من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان سلطاناً أو غير سلطان. فجهز له الخليفة العساكر فغلبه وانحلَّ أمره سنة ٢٠٢هـ[1].

وما فعله المحتسب الأول كان نافعاً في تحقيق الأمن وزوال الفساد، وأما ما صنعه «سلامة» فلم يكن سليماً ولا سديداً؛ فلا يتفق مع النصوص الشرعية ولا القواعد المرعية، ثم إنه حمَّل نفسه وأصحابه ما لايطيقون، فأفضى ذلك إلى انحلال أمرهم واندراس احتسابهم.

ويبدو أن الأوضاع المضطربة قد تبعث إلى الاندفاع والاسترسال، وتجرُّ لمواقف غير محررة كما في هذه الحادثة التي أودت بالاحتساب.

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي: ١٠/ ٩٢ – ٩٣ – ١٠٧، ومقدمة ابن خلدون: ٢/ ٥٣٠ – ٥٣١.

وهذا يذكِّرنا بفتنة ابن الأشعث سنة ٨١هـ؛ حيث لم يقتصر ابن الأشعث الكندي ومَن تبعَه على خلع الحَجَّاج الثقفي حتى تجاوزوه إلى خلع الخليفة عبد الملك بن مروان القرشي، ثم نفروا من مصالحة الخليفة على عزل الحجاج. فأعقب هذه الفتنة شرٌّ كبير، وهلك خلق كثير، وتولَّد عنها الإرجاء[١].

وسطَّر ابن خلدون كلاماً متيناً بشأن تعثُّر الثوار القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأورد حكاية سلامة الأنصاري وكثرة أتباعه من العامة والدهماء الذين تجمعهم هذه الدعوة الدينية، لكنهم يفتقدون إلى القبائل والعشائر الذين تذبُّ عنهم، فابن خلدون يجزم أن الدعوة الدينية لا تتم من غير عصبية أو قبيلة تنتصر لهم، وأن هؤلاء الثوار القائمين بتغيير المنكر يعرِّضون أنفسهم للمهالك؛ فالدول القوية لا يهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما عبَّر ابن خلدون[٢].

ومن ثورات العامة أن في سنة ٣٠٨هـ ارتفع الغلاء والمكوس في بغداد فاضطربت العامة لذلك وأوقعوا شغباً. . . وعندئذٍ أزيلت المكوس وهبطت الأسعار[٣].

فهيجان العامة آنذاك كان سبباً في زوال الضرائب ورخص الأسعار.

وفي سنة ٢٢٧هـ خرج رجل بالشام يُقال له: أبو حرب المبرقع اليماني لما اعتدى أحد الجنود على امرأته، فقَتَل أبو حرب ذلك الجنديَّ، ثم تحصَّن في الجبال، واتبعه على ذلك خلق كثير من الفلاَّحين والحراثين، وبلغ أتباعُه قرابة مائة ألف مقاتل، فلما حان وقت حراثة الأرض تفرَّق عنه الناس إلى أراضيهم! ولم يبقَ معه إلا شرذمة قليلة

(١) انظر: البداية لابن كثير: ٩/ ٣٥ - ٥٤.
(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون: ٢/ ٥٢٨ - ٥٣٢.
(٣) انظر: المنتظم: ١٣/ ١٩٤.

فتمَّ أسره والذهاب به إلى الخليفة العباسي المعتصم[1].

فما أسرع استجابة الحرَّاثين حال الفراغ والبطالة، وما أعجل تنصُّلهم وقت الحرث، وركونهم للزرع!

ومن ثورات العامة أن في سنة ٤٠٣هـ في عهد الخليفة العباسي القادر بالله توفيت زوجة أحد رؤساء النصارى ببغداد فأُخرجت جنازتها ومعها الطبول والصلبان، فأنكر ذلك بعض الهاشميين، فضربه بعض النصارى بدبوس في رأسه، فثار المسلمون، ووقع شغب وقتال، وانتشرت الفتنة، وغلِّقت جوامع، ثم أُخِذ هذا النصراني لدار الخلافة فسكنت الأمور[2].

ويبدو أن هذه الحادثة كانت سبباً في إلزام النصارى بالشروط العمرية، وفيها: «لا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر صليباً»[3].

وقد أحسن الخليفة القادر بالله بإحيائه هذه الشروط التي جددها الخلفاء السابقون أمثال: عمربن عبد العزيز، وهارون الرشيد، والمتوكل.

وكان عهدالقادر لا يخلو من أحداث تحكي شغب النصارى، وبغيَهم على المسلمين، وظلمَ بعض عامة المسلمين للنصارى[4]، لكن بإلزام النصارى الشروط العمرية سنة ٤٠٣ هـ اختفى الشغب واستقرت الأحوال، كما اعترف بذلك جان موريس فييه أحد النصارى المعاصرين[5].

---

(١) انظر: البداية: ١٠/ ٢٩٥.

(٢) انظر: المنتظم: ١٥/ ٩١ - ٩٢.

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٣٣٠، وأحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/ ٦٥٩.

(٤) انظر: الكامل: ٩/ ١٣٦، والبداية: ١١/ ٣٣٠.

(٥) انظر: أحوال النصارى في خلافة بني العباس لجان فييه، ص٢٦٥.

والحاصل أن هيجان العامة و ثوراتهم كانت سبباً في ظهور الشروط العمرية واستقرار الأحوال وتحقق العدل.

وفي سنة ٤٢٩ هـ أمر جلال الدولة أن يلقَّب بـ «شاهنشاه»[١] وخُطِب له بذلك على المنابر، فنفر العامة ورجموا الخطباء، ووقعت فتنة شديدة، فاستفتى الفقهاء، فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون[٢].

والمقصود أن العامة بفطرتهم نفروا من منازعة الله - تعالى - في أسمائه وما يختص به، وهو ما جعل السلطان يستفتي العلماء في هذا اللقب.

والحاصل أن للعامة تأثيراً بيِّناً في الشغب على ولاة السوء، والهيجان على أهل الكفر والابتداع، فسذاجة العامة وعفويتهم تبعث على الشجاعة والإقدام، مع ما قد يكتنفها من البغي والعدوان، والولوج في مزالق لا يطيقونها، كما أنهم قد ينفضُّون سريعاً كما وقع لأتباع أبي حرب المبرقع.

وبالجملة فالعامة يمكن أن يحققو مكاسب للأمة، وإنجازات لبلادهم، ما لا يحققه النُخَب الذين أنهكهم التفكير وأقعد طاقاتهم التنظير، والثورات الحاضرة خير شاهد على ذلك.

---

(١) شاهانشاه: ملك الملوك، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»، أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب: ١/ ٨٤، والمنتظم لابن الجوزي: ١٥/ ٢٦٥.

الدعوة الإصلاحية... القَبُول والبُهتان

ما دعوة الشيخ محمد بن عبد الواهاب - رحمه الله - إلا امتدادٌ لمذهب أهل السُّنة والجماعة، بل هي امتداد لِمَا كان عليه رسول الله ﷺ وصحبُه الكرام، رضي الله عنهم؛ فمن أصول هذه الدعوة الإصلاحية: الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحدَه لا شريك له، ولزوم الرسول ﷺ واتِّبَاعُه في أقواله وأفعاله وتقريراته؛ فالذين يدعون إلى الله - تعالى - مخلصين له الدين يتحقق لهم النفع والدوام؛ إذ كل عمل لا يُبتَغَى به وجه الله يزول ويضمحِل. قال - تعالى -: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

كما أن الذين يتَّبعون الرسول ﷺ يحصل لهم تمام الاهتداء والتوفيق، كما قال - عز وجل -: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

إن هذا التوحيد الخالص الذي حققته هذه الدعوة السلفية عبر مؤلَّفاتها ورسائلها ومواقفها، أورث جزيرة العرب أمناً وطمأنينة، واهتداءً وبصيرة في الدنيا والآخرة؛ فالناظر إلى حال الجزيرة - ونَجْدٍ على سبيل الخصوص - قبل الدعوة لا تقع عينه

إلاَّ على انحرافات دينية، وفقر حضاري، وتدهور أمني، ونزاعات سياسية، ونقص في المعايش والأرزاق؛ فلما ظهرت هذه الدعوة المباركة أعقبَ ذلك صلاحُ الدين، واستقامة الأحوال، واستقرار الأوطان، ورَغَد العيش، وازدهارٌ حضاري. قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

أفيقال بعد ذلك: إن هذه «الوهابية خطر على الإسلام والعالم»(١)، وإنها تهدِّد الأمن والسلام... سبحانك هذا بهتان عظيم!

إن هذه الدعوة المباركة قد مضى على ظهورها قرابةُ ثلاثة قرون، وقد عمَّ خيرها وظهر أثرها في بلاد العرب والعجم، ولا يزيدها تصرُّم الأيام والليالي إلا قَبُولاً وانتشاراً.

ومهما تكالب خصوم المذهب السلفي، واشتد كيدهم، وعَظُمت شوكتهم، إلا أن الظهورَ والغلبةَ لمذهب السلف في القديم والحديث؛ فإن مذهب السلف الصالح في غاية الإحكام والسداد، والثبات والاطِّراد؛ فسرعان ما تَقْبَلُه الفطرة، وتدركه العقول السليمة، فتحظى ببرد اليقين ورسوخ الإيمان، وأما المذاهب البدعية فإنما يتجرعها أصحابها على مضض وكُلْفة؛ إذ لا تكاد تسيغه ولا تقبله إلا بعَنَت.

وإذا نظرنا إلى مواقف خصوم هذه الدعوة الإصلاحية فإنك لا تكاد تحصي المؤلَّفات، والمقالات، والندوات، والمؤتمرات المعادية لهذه الدعوة، إضافة إلى كثرة الحروب والمعارك التي قامت من أجل استئصال هذه الدعوة. لكنَّ هذا المكر أضحى أثراً بعد عين؛ فالعاقبة للمتقين، والله - تعالى - لا يُصلِح عمل المفسدين.

---

(١) عنوان ندوة بالقاهرة عُقِدَت خلال شهر جمادى الأولى ١٤٣١هـ.

وأظن أن هذه الدعوة قد كُذِب عليها أكثر مما كَذَب الرافضة على جعفر الصادق، رحمه الله؛ فإذا كانت الدعوة الإصلاحية في مهدها قد تمالأ عليها في العارض بِنَجْدٍ أكثرُ من عشرين عالماً وطالبَ علم[1]؛ فما بالك بعد أن تجاوزت نجداً إلى سائر جزيرة العرب وبلاد العرب والعجم؟

وما أروع الوقائع والأمثلة التي حررها العلاَّمة عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في رسالته «المقامات»، تلك التي تكشف أنواعاً من الكرامات والحفظ والنصرة لهذه الدعوة؛ رغم الحروب الشرسة والجيوش الجرارة التي تتقصد سحقها؛ ومثال ذلك أن دهام بن دواس (أمير الرياض آنذاك) حارب الدعوة أكثر من ثلاثين عاماً، وأعانه أهل نجران والأحساء، ثم آخر أمره يخرج طريداً وحيداً «ولم يبقَ لآل دواس بعد ذلك عين تَطْرُف؛ فاعتبروا يا أُولِي الأبصار»[2].

ويبدو أن البغي والفجور في الخصومة من قِبَل أولئك الأعداء كان سبباً في ظهور هذه الدعوة وانتصارها؛ فإن الله - عز وجل - أحكم الحاكمين، وقد يقيم الدولة الكافرة إن كانت عادلة[3]؛ فكيف لا يقيم الدولة المسلمة العادلة؟ قال - تعالى -: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن تيمية: «إن الإنسان إذا اتَّبع العدل نُصِر على خصمه، وإذا خرج عنه طمع فيه خصمه»[4].

---

(١) انظر: بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ١/ ١٠٨.
(٢) المقامات: ص١٢.
(٣) انظر: الاستقامة لابن تيمية: ٢/ ٢٤٧، ونقض التأسيس: ٢/ ٣٤٤، ٣٤٨.
(٤) الدرء: ٨/ ٤٠٩.

ولو عَقَل الخصوم في مواقفهم لسلكوا سبيل العدل والعلم؛ فأين التثبُّت في النقل؟ وأين الأدلَّة على تلك الدعاوى والأقاويل؟ فإن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدَّعياً فالدليل.

وتراث علماء الدعوة الإصلاحية مطبوع، متداوَل، وتقريرات علماء الدعوة واضحة ميسَّرة تُوائم عقيدة التوحيد في وضوحها وسَيْرها؛ فليت أولئك القوم يطالعون هذا التراث مباشرة؛ فلا تُحاكَم هذه الدعوة وَفْقَ مقررات سابقة، أو دعاوى كاذبة!

وأيِّ إفك أشد وأشنع أن يُتَّهَم الشيخ محمد بن عبد الوهاب - على سبيل المثال - بادِّعاء النبوة، وانتقاص رسول الله ﷺ؟ ثم يُفتَرَى على هذه الدعوة خلال هذه الأيام، بأنها لا تَقِلُّ سوءاً عن الكيان الصهيوني! فهذه الكذبات الصلعاء تعكس جهلاً كثيفاً لدى الشانئين، كما تؤكد إفلاسَهم وتهافُتَهم.

وإذا كنا نعجب من بغي وافتراءٍ على هذه الدعوة من قِبَل عرب متسنِّنَة، فأعجب من ذلك أن ترى العدل والإنصاف من عالِم ليس عربياً، بل هو أعجمي فارسي، بل ليس سنيًّا، وإنما نشأ في إيران، وأحكم المذهب الشيعي حتى شهد له أبرز علماء الشيعة بالاجتهاد؛ إنه «آية الله العظمى» البرقعي؛ حيث يقول عن حكومة الخميني: «ليعلم القارئ أن هذه الدولة جعلتْ الناس أعداءً لنا؛ فإنَّ كلَّ من جرى على لسان كلمةٌ لبيان العقائد الموافقة للقرآن، فإن نظام الخميني يتهمه بأنه «وهابي»، مع أنه لا يوجد في الدنيا مذهب اسمه «الوهابية»، وإنما هم لغرض استعداء الناس وتنفيرهم. نعم! من حيث العقيدة هم يسيرون على عقائد العالم محمد بن عبد الوهاب، ولكنه لم يأتِ بمذهب جديد، وإنما هي آراء ابن تيمية وابن القيم، وهذان أيضاً لم يفعلا شيئاً سوى محاربة الخرافات والبدع، ودعوة الناس إلى الرجوع إلى القرآن»[1].

(١) سوانح الأيام (أيام من حياتي) للبرقعي: ص ٣٠٨ = باختصار.

وأخيراً: فإن عَجْزَ بعض المتسنِّنَة عن مدافعة هذا الكيد، وجَزَعَ بعضهم من تلك الأحداث والمتغيرات العالمية الهائلة، هو الذي أوقع أولئك الخصوم في هذا العداء السافر والمكر الكبَّار، فنعوذ بالله من جَلَد الفاجر وعجز الثقة.

فأين هؤلاء العَجَزة الجبناء من ملا عمران بن رضوان - رحمه الله - وهو الذي ما إن تبيَّن له صحةُ دعوة الشيخ الإمام، حتى بادر داعياً إليها، فَلَقَّبوه بالوهابي، فأنشد قائلاً:

إن كان تابعُ أحمدَ متوهِّباً
فأنا المُقِرُّ بأنَّني وهَّابي
أنفي الشريكَ عن الإله؛ فليس لي
ربٌّ سوى المتفرِّد الوهَّابِ

الصيام والآخرة

أسرار الصيام وحِكَمه لا تكاد تنقضي، وفوائده وآثاره لا تحصى إلا بكلفة؛ إلا أن بعض الناس انهمك في إبراز فوائد الصيام الصحية والاجتماعية، واستغرق آخرون في آثار الصيام في تغيير السلوكيات والأخلاق، وغفلوا عما هو أنفع وآكد من أثر الصيام في تحقيق الإيمان باليوم الآخر، فقلَّ الحديث عن التلازم بين الصيام وبين مجافاة دار الغرور والتعلُّق بيوم البعث والنشور، ولعلنا في هذه السطور نُبرِز آثار الصيام ولوازمها في تحقيق اليقين بالآخرة، وتعلُّق القلب بدار البقاء والخلود، والإقبال على الله - عز وجل - وقصده.

وأستهلُّها بعبارات مشرقة سطَّرها المفكر الكبير سيد قطب - رحمه الله - قائلاً: «لقد كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله، لتقرير منهجه في الأرض، وللقوامة به على البشرية. فالصوم مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها؛ إيثاراً لما عند الله من الرضا والمتاع.

وذلك كله إلى جانب ما يُتكشَف على مدار الزمان من آثار نافعة للصوم في وظائف الأبدان، ومع أنني لا أميل إلى تعليق الفرائض - في العبادات بصفة خاصة - بما يظهر للعين من فوائد حسية؛ إذ الحكمة الأصيلة فيها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره في الأرض، وتهيئته للكمال المقدَّر له في حياة الآخرة»[1].

ومن المعلوم أن غاية الصيام التقوى كما قال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والتقوى هي «العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً؛ فيفعل ما أُمر به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده، ويترك ما نُهي عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده»[2].

فيُلحَظ أن التقوى (فعلاً تركاً) لا تتحقق إلا بالإيمان بالآخرة واليقين بوعد الله ووعيده، وهو الذي يفتح باب الرجاء والخوف اللذَين إن خلا القلب منهما، خَرِب كلَّ الخراب[3]. وكما قال طلق بن حبيب - رحمه الله - لما سئل عن التقوى؟: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معاصي الله على نور من الله خوف عقاب الله»[4]. وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنَّة»[5]. وزاد سعيد بن منصور: «جُنَّة من النار»، ولأحمد: «جُنَّة وحصن حصين من النار»[6].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٦٧ = باختصار.
(٢) الرسالة التبوكية لابن القيم، ص١٧.
(٣) انظر: تفسير السعدي: ١/ ٢٩.
(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى: ٢/ ٥٩٨، (ت: نعسان).
(٥) أخرجه البخاري: (١٨٩٤).
(٦) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١٠٣ - ١٠٤.

قال ابن العربي: «إنما كان الصوم جنة من النار؛ لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات»[1]. فالحاصل أنه إذا كفَّ نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة[2].

وقرر ابن القيم أن غاية الصيام هو تحقيق سعادة النفس ونعيمها وزكاتها لأجل الحياة الدائمة السرمدية فقال - رحمه الله -: «لَمَّا كان المقصودُ من الصيام حَبْسَ النفس عن الشهوات وفِطامها عن المألوفات، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية. فالصوم لجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقرَّبين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال؛ فإن الصائم لا يفعل شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذُّذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته»[3]. والحاصل أن فئاماً من الدعاة قد استحوذ عليهم الحديث عن المصالح الدنيوية والفوائد العاجلة للصيام والصلاة وسائر العبادات؛ فالصيام لأجل تهذيب الأخلاق، والصلاة لأجل راحة البال من هموم الدنيا، بل احتفى بعضهم بفوائد الصلاة في رياضة الأبدان وصحتها، وصيَّر الأذكار لأجل حظوظ الدنيا وحفظ الأجسام!

ولا نزاع في أن شرائع الإسلام وشعائره تحقق مصالح الدنيا والآخرة؛ لكن الخلل في الإطناب والاحتفاء بالحظوظ الدنيوية العاجلة، وضعف الالتفات إلى التعلق بالله وقصده، ورجاء ثواب الله وجنته ولذة النظر إلى وجهه الكريم، سبحانه.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١٠٣ - ١٠٤.
(٢) فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١٠٣ - ١٠٤.
(٣) فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١٠٣ - ١٠٤.

وقد حذَّر ابن تيمية من مسلك الفلاسفة الذين أفرطوا في الجوانب الأخلاقية، فجعلوا تهذيب الأخلاق غاية ومقصداً، وأما عبادة الله وقصده فهو وسيلة لتهذيب الأخلاق[1]!

وقال في موطن آخر: «ليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النبوات أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم.

فإذا لم يكن مقصود الدين الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق، وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة ومن سلك سبيلهم يجعلون الشرائع من هذا الجنس لوضع قانون تتمُّ به مصلحة الحياة الدنيا؛ ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد (وهو عبادة الله وحده) ولا بالعمل للدار الآخرة، ولا ينهون فيها عن الشرك، بل يأمرون فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها»[2].

فتأمَّل - رعاك الله - هذا التحقيق المتين من هذا الإمام الرباني الكبير، وانظر ما عليه المتفلسفة الصائبة وقارنه بواقع بعض المنتسبين للإسلام والسنة، ممن دأبهم أن يسهبوا في سرد مصالح وفوائد الشرائع في الحياة الدنيا؛ فلا يكاد أن يتحدثوا عن مصالحها الأخروية ومنافعها الأبدية من عبادة الله - تعالى - وقصده وابتغاء وجه الله والدار الآخرة، فأضحت الشرائع والأخلاق لأجل تحقيق مصالح الدنيا، واكتفوا بالحديث عن الأخلاق التي لا تَصلُح الدنيا إلا بها: كالصدق والوفاء بالعهد... إلخ. وأقفرت أكثر المجالس من الحديث عن اليوم الآخر، وصار الحديث عن الآخرة حكراً على بعض الوعاظ ممن قلَّ شأنهم وانتُقِص مقامهم بالنظر إلى الدعاة المشاهير.

---

(١) ينظر: الجواب الصحيح: ٤/ ١٠٥.

(٢) جامع الرسائل (قاعدة في المحبة): ٢/ ١٣١.

والمقصود أن التذكير بالآخرة من واجبات الوقت وضرورات التربية الإيمانية والتزكية السلفية، ولا سيما أن النفوس جُبِلت على حب العاجلة والركون إليها، كما قال ابن الجوزي - رحمه الله -: «جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة، ثم هي من داخل، وذِكْر الآخرة أمر خارج عن الطبع، ثم هو من خارج، وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى، لما يسمع من الوعيد في القرآن، فإنه يطلب الهبوط وإنما رفْعُه إلى فوق يحتاج إلى التكلف، فالطبع جواذبه كثيرة، وليس العجب أن يغلب؛ وإنما العجب أن يُغلَب»[1].

(١) صيد الخاطر.

الصيام غذاء الأرواح وجُنَّة من العذاب

فرض الله عزَّ وجلَّ صيامَ رمضان لتحقيق التقوى وتحصيلها، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، هذا تعليل لكتابة الصيام ببيان فائدته الكبرى، وحكمته العليا، وهو أن يعدَّ نفس الصائم لتقوى الله بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده...»[(١)].

ثم إن الصيام يبعث على الإخلاص لله تعالى وحده، ويصحح الإيمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي..»[(٢)].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

يقول الحافظ ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث: «إذا اشتدَّ توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه ثم تركته لله عز وجل في موضع لا يطلع عليه إلا الله؛ كان ذلك دليلاً على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أنّ له ربًّا يطلع عليه في خلوته، وقد حرَّم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربّه وامتثل أمره، واجتنب نهيه؛ خوفاً من عقابه، ورغبةً في ثوابه، فشكر اللهُ له ذلك...»[(١)].

فالحاصل أن الصيام سببٌ متينٌ لتحقيق التقوى، ودليلٌ ظاهرٌ على صحة الإيمان، وسبيلٌ لنيل درجة الإحسان ومراقبة الله في السرِّ والعلن.

• إذا تقرَّر أن الصيام يحقق التقوى، وبرهان الإيمان، وطريق الإحسان؛ ففي غمرة المصطلحات الحادثة، والتعبيرات المعاصرة؛ غلب الحديث عن «الصيام والتغيير».. «الصيام غيّرني»... إلخ.

مع أنه لا مشاحة في الاصطلاح، ولا حرج في التعبير عن المعاني الصحيحة بالاصطلاحات الجديدة[(٢)].

لكن «التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع»[(٣)].

فالألفاظ الشرعية كالتقوى والإخلاص والإيمان، فيها من الشفاء والغَنَاء والحرمة ما ليس لغيرها.

---

(١) لطائف المعارف، ص ١٦١.

(٢) ينظر: الدرء لابن تيمية: (١/ ٢٣٢).

(٣) النبوات لابن تيمية: (٢/ ٨٧٦).

ثم إن لفظ «التغيير» لفظ مجمل ومحتمل، فقد يراد به حق أو باطل، بخلاف ألفاظ التقوى والإحسان ونحوها، فإن التغيير - في لغة العرب - بمعنى الاستحالة والتبديل من شيء إلى شيء، والتحوّل من صفة إلى أخرى..[1]، فلا يختصّ هذا التغيير بما كان محموداً مطلوباً.

فقد يكون «التغيير» مذموماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن تيمية: «ومعلوم أنهم كانوا على عادتهم المحمودة، يقولون ويفعلون ما هو خير، لم يكونوا قد غيّروا ما بأنفسهم، فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصدَ الشر، وباعتقادهم الحق اعتقادَ الباطل، قيل: قد غيّروا ما بأنفسهم، مثل من كان يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة، فتغيّر قلبه وصار لا يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا قد غيّر ما في نفسه»[2].

إضافة إلى أن الحديث الحاضر عن «التغيير» في رمضان يركز على آثار الصيام السلوكية والأخلاقية في الدنيا، وينهمك في التغيّرات التي تحصل في جوانب التعاملات والعلاقات في حياتنا الحاضرة، ويستحوذ على جوانب المهارات الذاتية، والنواحي النفسية، وإخضاع ذلك التغيير للتقويم والتطبيق.

فهناك إغراق في آثار الصيام في الحياة المعاصرة، والواقع الدنيوي، وأما الحديث عن الصيام وآثاره الأخروية، وربط الصيام بيوم البعث والنشور، وأنه جُنّة من عذاب الجحيم؛ فهذا الأمر الظاهر الجليل صار مغيّباً خفياً!

يقول النبي ﷺ «الصيام جُنّة»[3]، وجاء في غير رواية «جُنّة من النار»، وفي رواية

---

(١) ينظر الدرء: (١/ ١١٢)، (٢/ ١٨٥)، (٤/ ٧٢)، (١٠/ ١٨٥).
(٢) جامع الرسائل: (٢/ ٤٥).
(٣) أخرجه البخاري.

لأحمد «جُنّة وحصن حصين من النار»[1]، قال الحافظ ابن حجر: «الجُنّة بضم الجيم الوقاية والستر، وقد تبيّن بالروايات متعلق هذا الستر، وأنه من النار، وبهذا جزم ابن عبد البر.. وقال ابن العربي: إنما كان الصوم جُنّة من النار لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، فالحاصل أنه إذا كفّ نفسه عن الشهوات في الدنيا، كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة»[2].

وخَفَتَ الحديثُ عن الصيام وكونه سبيلاً إلى جنات النعيم! فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له الريّان، يدخل منه الصائمون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم»[3].

وقد كشف ابن تيمية عن مسلك الذي يقصرون الدين على مصالح دنيوية محضة فكان مما قاله: «ليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة، فإذا لم يكن مقصود الدين إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها، فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق.. وهؤلاء المتفلسفة ومن سلك سبيلهم يجعلون الشرائع من هذا الجنس لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا، ولهذا لا يأمرون فيها بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، ولا بالعمل للدار الآخرة»[4].

وكذا إخضاع تأثير الصيام وتغييره للأشخاص وَفق تقاويم البشر ومشاهداتهم، وحسب معايير المهتمين بالأحوال النفسانية.. إن ذلك قد لا يتفق ولا يتسق من كون الصيام سرّاً بين العبد وربه لا يطّلع عليه غيره؛ «لأنه مركب من نية باطنة لا يطّلع عليها إلا الله، وتركٌ لتناول الشهوات التي يستخفى بتناولها في العادة، ولذلك قيل: لا

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/ ١٠٤).
(٢) فتح الباري (٤/ ١٠٤).
(٣) أخرجه البخاري وغيره.
(٤) جامع الرسائل، (٢/ ٢٣١ - ٢٣٣) باختصار.

تكتبه الحفظة، وقيل: إن ليس فيه رياء، كذا قال الإمام أحمد وغيره، وكان بعضهم يودّ لو تمكن من عبادة لا تشعر بها الملائكة الحفظة»[1].

إن الصيام وإن كان فيه كسر للنفس، وقمع لشهواتها، إلا أنه - وسائر العبادات - «غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دلّ عليه القرآن فغالب الشرائع قرة العيون، وسرور القلوب، ولذات الأرواح، وكمال النعيم»[2].

يقول ابن القيم: «من له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، لا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قرّت عينه بمحبوبه، وتنعّم بقربه، والرضى به، وألطاف محبوبه وهداياه.. أفليس في هذا أعظم غذاء لهذا المحّب؟»[3]. وكان ابن تيمية - رحمه الله - قليل تناول الطعام والشراب، وينشد كثيراً هذا البيت:

لـهـا أحـاديـث مـن ذكـراك تشغلها

عـن الـشـراب وتلهيها عـن الـزاد[4]

ونختم المقال بشيء من فتوحات ابن القيم في هذا الصدد، حيث يقول: «خُلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وقُرِن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة (العبادة) وَجَدت روحه خفةً وراحةً، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي؛ وإذا أشبعه ونعّمه ونوّمه، أخلد البدن إلى الموضع الذي خُلِق منه فانجذبت الروح معه فصارت في السجن..»[5].

---

(١) لطائف المعارف، ص ١٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٥٦).

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٣).

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٤٩٧).

(٥) الفوائد ص ١٨٧.

فهرس الموضوعات

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	٥
عجز الثقة	٦
فسخ العزائم ونقض الهمم	١٠
آفات النفوس والأحداث	١٤
الثقة بالأشخاص ضلال	٢٠
سبيل العلاج من الوساوس والشكوك	٢٥
سكر الشهوات	٣٣
ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟	٤١
قطاع الطريق	٤٦
الانفلونزا.. وانحسار التوكل والاتباع	٥١
مدافعة الشبهات	٥٦

أكل الحلال وحلاوة المناجاة	٦٢
النجاة من كمين الشبهات	٦٩
أرباب جد في العمل	٧٤
الاهتداء والانتكاس	٧٩
متصوفة اليوم بين الصحو والمحو	٨٣
هل التصوف سائغ محمود مقبول؟	٩٠
تشيع لا قادر له!	٩٧
هل التمشعر سنة؟	١٠٤
التفويض .. الجهل والجفاء	١١١
قلب الأدلة على الطوائف المخالفة للقاضي	١١٨
عنيف القول ولطيفه تجاه السلف	١٢٥
لِمَ كان القول بخلق القرآن كفراً؟	١٣٣
رفض الخرافة وشيعة الدجال	١٣٨
هل يستعان بالجن؟	١٤٤
الاستعمار والاحتفاء بالمولد!	١٥٠
هدم الأبنية على القبور.. سنة مأثورة	١٥٦
البناء على القبور.. الهدم والوهم	١٦٢
السلفية.. رحابة وسعة فهم	١٦٧
كلمات في المصطلحات	١٧٢

استيعاب المقالات وتحرير النزاع عند أبي العباس	١٧٧
بيان السلف وإلغاز الخلف	١٨٢
تراث ابن تيمية.. القبول والشغب	١٨٦
رهق أبي العباس والموهوبين	١٩٠
معالم الحج في تقريرات ابن تيمية	١٩٦
احتساب ابن تيمية على المتدينة!	٢٠٤
تقريرات سياسية لابن تيمية	٢١٠
أهل السنة والخصوم	٢١٥
الإفراط في النشيد	٢٢٥
النشيد الراحل والغناء الحاضر	٢٢٩
وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً	٢٣٥
التقريب والولع بالتنقيب!	٢٤٠
الاحتساب على أهل الأهواء	٢٤٨
الرقاة والمجربات	٢٥٤
الصحابة هم الدعاة	٢٦٠
غزة والسخاء	٢٦٥
كسوف العقل	٢٧١
أبو بطين... الفقه والاحتساب	٢٧٧
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا	٢٨٢

المتوارون عن الولاء	٢٨٨
اللهم اغفر لبكر وارفع درجته في المهديين!	٢٩٥
ثورات العامة مشاهد تاريخية	٣٠٠
الدعوة الإصلاحية.. القبول والبهتان	٣٠٦
الصيام والآخرة	٣١١
الصيام غذاء الأرواح وجُنّة من العذاب	٣١٦
فهرس الموضوعات	٣٢١